عامر العقاد

معارك العقاد الأدبية



منشورات المكتبة العصرية
بيروت - صيدا

عامر العقاد
معارك العقاد الادبية
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

عامر العقّاد

معارك العقّاد الأدبيّة

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الإهداء

إلى أُخواني في ندوة الجُمُعة

الجيلِ الثالث من تلاميذ العقّاد

اعتزازاً بوفائهم لذكرى الراحل العظيم

« عامر العقاد »

مقدّمة

يضم هذا الكتاب بين دفتيه بعضاً من الخصومات الأدبية والمساجلات الفكرية التي تحوي صفحات كثيرة منها المجهولة أو شبه المجهولة بالنسبة لعدد من القراء ليس بالقليل ، وإن كانت معروفة بالنسبة للقراء الذين عاصروا الحياة الأدبية في فترة ما بين الحربين العالميتين .

وتدور هذه الصفحات حول معارك العقاد الأدبية ومساجلاته الفكرية .. تلك المساجلات التي أثرت الحياة الأدبية ثراء لا يستهان به لا سيما أن طرفها الآخر كان عدداً من كبار مفكرينا وأدبائنا :. منهم من انتقل الى الدار الآخرة ومنهم من يعيشون بيننا يواصلون رحلتهم في عالم الكتابة حتى اليوم .

والمتتبع لحركات النقد الأدبي ومعاركه في تاريخ الفكر المعاصر يجد للعقاد صوتا مدويا فيها . فهو المفكر الاديب الذي عاش حياته كما يعيش أهل الجلاد في ميادين الفروسية والقتال . لا يفرغ من معركة أدبية حتى يبدأ في أخرى ، لذلك ارتبطت صورته – في ذهن الدكتور لويس عوض – عقب وفاته بصورة هرقل الذي كان يسحق بهراوته الشهيرة الافاعي والتنانين والمردة وكل عناصر الشر في الحياة[١]

وقال عنه المرحوم أحمد أمين : « أول ما يروعك في العقاد أنه صارم قوي الجأش لا يأبه للعواقب ، وأصدق ما يكون في القتال اذا نازل من مس كرامته أو جرح عزته ، اذ ذاك يكون أجرأ من السيل ، وأهول من الليل ، ينسى نفسه وماله وكل شيء حتى يسترد كرامته ويثأر لعزته . « فـإذا ما رأيناه – أي العقاد – يقول عن نفسه « أنا أطلب الكرامة عن طريق الأدب والثقافة ،

(١) مقال الدكتور لويس عوض في رثاء العقاد الاهرام مارس ١٩٦٤ « موت هرقل »

وأعتبر الادب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها أن يصان شرفه بين أعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين أرفع المقامات الإنسانية بغير استثناء[1] » .

حينذاك تزول الغرابة التي يلاحظها القارىء في رأي زميله أحمد أمين . لان من يطلب الكرامة عن طريق الأدب والثقافة لابد أن يثور كلما رأى أحداً يحاول ان يقلل من قيمة الفكر الإنساني أو يعمل على هدمه وتخريبه كائنا من كان .

ان بعض هذه المعارك ما هي الا حلبة رياضية كبرى ، تجري الكرة فيها من قدم الى قدم تظهر شيئاً وتخفى شيئاً ، وهي صراع وجدل ، وسخرية وهجاء ، وتبادل للاتهامات والآراء ، وأعظم ما تدل عليه خصوبة الحياة الأدبية .. وفي وسط هذا الجو الذي كان لا يخلو من طرافة وتسلية وصراع تبحث الشخصية الادبية عن نفسها لمحاولة وضع الاساس للفكر العربي المعاصر .

وتتمثل هذه الخصومات الادبية أو المعارك الفكرية في الخلافات التي كان طرفها العقاد والطرف الآخر رعيل من أساتذتنا الادباء يقف على أكتافهم شوقي وسلامة موسى والأب انستاس الكرملي وطه حسين ، وزكي مبارك ، والرافعي ، والزهاوي ، وتوفيق الحكيم ، وأمين الخولي ، ومندور ، ومحمد كامل حسين ، ومن الشبان محمود أمين العالم ، وعبد العظيم أنيس ، وبنت الشاطىء .

لقد كانت تلك الخصومات سبباً من الاسباب التي أدت ببعضهم الى اتهام العقاد من جراء عنفه في الخصومة والجدل ، وان عدل بعض آخر عن تلك الاتهامات عقب وفاته في شجاعة وصراحة نادرة . فقد كتب الاستاذ رجاء النقاش عقب وفاته قائلا :

« .. ولكنني أحب أن أقول هنا كلمة أؤمن بها للحقيقة والتاريخ ، فالعقاد

---

(١) أنا للعقاد طبعة بيروت ص ٢٧ .

لم يكن في فكرة من أفكاره مأجوراً .. ولم تكن لحساب أحد كما قال البعض كثيراً ، وأعترف – صادقاً مستريح الضمير – أنني واحد من الذين أخطأوا في حق العقاد واتهموه بأنه كان مأجوراً في بعض كتبه ودراساته .. فالعقاد كثيراً ما يفرض على الذين يناقشونه – عندما يغضب – أن يستخدموا ضده كل الاسلحة :. حماية لهم من اسلحته التي يستخدمها هو والتي كانت بلا حدود[١] » .

وكذلك حسبنا ما كتبه الاستاذ ابراهيم الورداني على صفحات الجمهورية الصادرة في ١٩٦٩/٢/٥ بعد وفاته بخمس سنوات تقريباً حيث قال :

« وعندما أخذت أنفاسي وعدت أستطلع ما كتبته منشوراً ..[٢] أصابني الفزع والروع . فما هذا الذي فعلته ، كيف تلد اللحظة الجموح تلك كل هذا الهرم من الأخطاء . نعم وأعترف بأنها أخطاء بل ذنوب . ففي حمية الاندفاع – ضد العقاد – تعثر قلمي في تعابير فاحشة مترنحة لا يقترفها إلا ضرير طائش بعدت عنه الرؤية وضاع منه الوعي في لحظة فقدان صواب .. »[٣]

وفي الختام نرجو من الله أن نكون قد قدمنا بهذه الصفحات جانباً من جوانب العقاد وهي خصوماته الأدبية فيقف القراء بذلك على تلك الصراعات الفكرية التي أثارها هذا المفكر وغيره من أبناء جيله فدفعوا جميعاً تيارات النقد خطوات وخطوات الى جانب أنها صورة صادقة للعصر بكل ما فيه من اضطراب وقلق وتحول .

« عامر العقاد »

مصر الجديدة ١٩٧١/٢/١٥

---

(١) أدباء ومواقف ومنشورات المكتبة العصرية بيروت للاستاذ رجاء النقاش ص ١٨

(٢) يعنى مقالته التي كتبها في الجمهورية مهاجماً العقاد هجوماً شديداً .

(٣) صحيفة الجمهورية العدد ٥٥٢٢ الصادر في ٥ / ٢ / ١٩٦٩ مقال الأستاذ ابراهيم الورداني بعنوان الخطأ .

مصطفى صادق الرافعي

من أقدم المعارك الادبية .. تلك المعركة التي دارت بين الرافعي والعقاد منذ خمسين سنة تقريباً .. ففي عدد « المؤيد » الصادر في ١٦ مايو سنة ١٩١٤ نجد للعقاد نقداً أخذه على الرافعي كان عنوانه « فائدة من أفكوهة » يدور حول اضطراب القياس عند الرافعي حينما كتب عن جهاز النطق لدى الإنسان والحيوان . ويومها نفى العقاد في مقالته أن يكون نطق الكلب لبعض الالفاظ لانها من حاجاته الطبيعية ، ويذهب في هذا الصدد الى ان جهاز النطق في الحيوان مهيأ للتحسن والاكتمال ، وأن الاصوات الحيوانية أصل نمت منه فروع اللغات الإنسانية . ويأخذ العقاد على الرافعي تناقضه بين قوله بصدور اللغة في الحيوان عن الاحساس ، وبين كونه يتعلم حرفاً أو أحرفاً من لغة الناس .. فيستدرك الرافعي فيكتب في هامشه « أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها ، وبذلك تأتى لبعض الالمانيين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الالمانية ، ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الاحساس أيضاً (١) » .

ويعلق العقاد في مقالته بقوله : « ان مثل هذا المقياس أفكوهة ، فلم يكن

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ١٠٤ للرافعي

من سبيل أمام الرافعي الا أن يطنب فيذكر لغة الحيوان الطبيعية الخالدة ولغة الهمج وموقف الحروف التي ينطقونها والتي لا ينطقونها » .

وينهي العقاد مقالته بأن الرافعي منشىء مكين ، يحس اضطراب القياس لديه ، ويُعمل القلم ولا يعمل الرأي ، لانه لا يستطيع أن يصنع غير ذلك ، ومن هنا فان كتاب الرافعي في نظر العقاد كتاب أدب لا تاريخ أدب ، لان البحث في هذا الفن يتطلب من المنطق والزكانة ومعرفة « المنطق الباطني » ما يتطلبه الرافعي نفسه ولا يجده في استعداده .

هذه هي أقدم معارك العقاد مع الرافعي . وهذا ما فات الاستاذ سعيد العريان الذي كتب عن معركة العقاد الاولى مع الرافعي فقال : « لم يكن بين الرافعي والعقاد قبل اصدار الطبعة الملكية من اعجاز القرآن غير الصفاء والود ، فلما صدر هذا الكتاب في طبعته الجديدة أحدث بينهما شيئاً كان هو اول الخصام ...[1] »

ويروي العريان في كتابه قصة الخلاف التي حدثت بين الرافعي والعقاد حول اعجاز القرآن فيقول :

« حدثني الرافعي قال : سعيت لدار المقتطف لامر ، فوافقت العقاد هناك ولكنه لقيني بوجه غير الذي كان يلقاني به . فاعتذرت من ذلك الى نفسي بما ألهمتني نفسي ، وجلسنا نتحدث وسألته الرأي في اعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن .. فمضى يتحدث في حماسة وغضب وانفعال ، كان كأن ثأراً بينه وبين اعجاز القرآن ! ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان علي ، ولكن حديثه عن الكتاب جره الى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن اعجازه وايمانه بهذا الاعجاز . أصدقك القول يا بني : لقد ثارت نفسي ساعتئذ ثورة عنيفة ، فكدت أفعل شيئاً ، ان القرآن لأكرم وأعجز ..[2] »

---

(١) حياة الرافعي — لمحمد سعيد العريان ص ١٨٥ .

(٢) ساعات بين الكتب — للعقاد

والذي نعجب له أن الاستاذ العريان يحاول أن يوهم قراء العربية نقلا عن الرافعي أن معركة اعجاز القرآن بين الأديبين الكبيرين كان دافعها حسد العقاد للرافعي ، وحقده عليه ، وفي ذلك يقول نقلاً عن الرافعي « .. من هنا يا بني كانت ثورته – أي ثورة العقاد – ، كانت ثورة الغيرة .. لا ثورة الأديب الناقد الذي لم يقنع بما كتب الكتاب عن اعجاز القرآن فهو يلتمس المعرفة والاقتناع » .

والحقيقة التي حاول الاستاذ العريان تجاهلها كما جاءت في كتاب العقاد « ساعات بين الكتب » هي أن كتاب « اعجاز القرآن » في رأي العقاد كان نموذجاً في البلاغة البدوية او تسبيحاً بالآيات القرآنية او تحية يقرأها المسلم فيرتاح اليها ويقرأها غير المسلم فلا تزيده بالقرآن علماً ولا تطرق من قلبه مكان الايمان والتسلم، ولكن يقال عنه انه كتاب في اعجاز القرآن ، وليس فيه شاهد واحد على معجزات الكلام ، ولا هو نهج فيه ذلك المنهج الذي احسن فيه الجرجاني ايما احسان ، وافاد به الآداب العربية ايما افادة ، فانما الثناء على القرآن في كتاب تناهز صفحاته الاربعمائة حسنة طيبة يكتب للرافعي اجرها وثوابها عند الله ، ولكنها لا تكتب له في سجل المباحث والعلوم ، ولا تعد من حسنات التفكير والاستقراء[١] » .

واننا نرى العقاد في مقاله هذا يورد للرافعي في مقام التمثيل فقرة من كتابه وهي التي يقول فيها مؤلف الاعجاز : تأمل هذا التركيب وانعم ثم انعم على تأمله وتذوق مواقع الحروف واجر كلماتها في حسن السمع ، وتأمل مواضع القلقلة في دال لقد ، وفي الطاء من بطشتنا ، وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء الى واو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات اذا

---

(١) ساعات بين الكتب – للعقاد .

هي جرت على اللسان ليكون ثقل الضمة عليه مستحقاً، الى اخره[1] .

فيعقب العقاد بقوله : ان الرافعي في هذا النموذج قد علق بلاغة القرآن على شيء هيهات ان يكون مقصوداً او ساريا في كل آية على النحو الذي يحكيه ، والا فما يقول الرافعي في هذه الآية التالية من سورة هود : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم من معك، وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم». فان كانت بلاغة الكتاب الكريم مرتهنة بذلك النسق الذي تصوره الاديب فهل يناقض البلاغة في رأيه توالي الميمات الكثيرة والنون والتنوين في هذه الكلمات المتعاقبة او يظن الرافعي في هذه الآية بدعا بين آيات الكتاب ؟

ثم يستطرد العقاد قائلا « ان بحثاً يوضع في تقرير بلاغة القرآن والرد على منكري اعجازه لأولى المباحث ان يتصدى له عالم قوي العارضة حاضر البرهان خبير بأساليب القياس ولكن الرافعي يتصدى لهذا البحث وهو من اضعف الناس منطقاً ، وافشلهم قياساً واعجزهم عن تأييد الدعوى بالحجة وتفنيد القول بمثله ، فهو يمضي مؤيداً مفنداً ثم لا يطالب نفسه بدليل غير السخط اذا خالف والتكرار والتأمين اذا وافق وعلى الله بعد ذلك الاقتناع ببركة الالهام والايمان لا ببركة البيان والبرهان[2] »

والسؤال الذي يفرض نفسه من تلك السطور حول معركة الاعجاز بين العقاد والرافعي : لماذا تجاهل العريان هذا الحوار بين الاديبين واكتفى بما قاله له الرافعي ونقله عنه وهو كلام الخصم الذي يستحق الحرص والحذر قبل التفنيد والمراجعة ؟ .

وعلى اية حال فالحقائق تقتضينا ان نبسط القول للقارىء بخصوص تأليف الرافعي لهذا الكتاب .. فالقارىء يجد مؤلفه من الصفحة الاولى يكيل المدح

---

(١) مصطفى صادق الرافعي : اعجاز القرآن طبعة ثانية ص ٢٣٧ الآية : « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر .

(٢) ساعات بين الكتب للعقاد ص ١١

للملك السابق فؤاد ، ذلك الطاغية الذي وقف امام الحركة الدستورية واستكثر على الأمة صاحبة الحق ان تكون مصدر السلطات فيقول : « وجلالة الملك فؤاد – حرسه الله – هو اليوم رجاء الإسلام بل « فؤاد » هـذا الجسم الإسلامي كله ، فهو الملك الراسخ في العـلم ، ثم القوي بعلمه في الإيمان ، ثم المتمكن بايمانـه في الفضيلة » .

ثم نراه يكيل مدحاً زائفاً ويزحف بين سطور مقدمة كتابه فيقول موجهاً كلامه للملك :

« بك يا مولاي رد الله على مصر ما يرد من صبح على ليل فـكان لهـا الولاة كالنجوم و كنت وحدك الشمس ، ووهبها الله من اقبالك معنى الغـد ولم يكن فيها من الادبار الا معنى الامس ، فلم يلبث فجرك السعيد ان شق لهـا في الامم نهارها ، وشب في كل جهة من العـالم انوارها وما الملوك الا فصول انسانيـة تتداولها الاقدار كهذه الفصول الزمنية يداورها الليل والنهار » .

ويقول الرافعي في موضع آخر من مقدمة كتابه : كيف اعد مآثرك يا مولاي وكلما ظننت انني في آخرها وجدتني في اولها ، وكلما افضت في مفصلها لم يكن ذلك الا بعض مجملها ، فما من يوم عهـدك السعيد الا انشأ للأمة يوم مجد يؤرخ ويدون ، ولا يكتب عنك الـكاتب إلا رأي الصحيفة من تنوع مآثرك المحبوبة كالروضة كل ما تنبته جميل ملون[1] » .

ان هذا الملق الـكاذب .. وهذا المديح الزائف لا يدفع قائله الى تحلية كتابه به الا اذا كان الثمن المقابل له ترضية نفسه ، ولتحترق الوطنية وليمت الاحرار الذين كانوا يعلنون الطغيان المتمثل في ذلك الملك .

وفي ذلك كتب الشاعر العوضي الوكيل يقول : « فقـد قال الناس يومذاك ان الرافعي قد اوحي اليه بأن يهاجم العقاد ، وان يسرف في الهجوم ما شاء ، واختير الرافعي بالذات لانه كان اقرب الكتاب من القصر واوصلهم برجاله فقد

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي الطبعة الثالثة ص ٢ .

طبعوا له على نفقة الملك فؤاد كتابا في اعجاز القرآن وارسل ابنه في بعثة الى اوروبا على حساب القصر[١] » .

وما لنا نأتي بقول احد انصار العقاد او تلميذ من تلاميذه وأمامنا اعترافات ساقها المرحوم محمد سعيد العريان في كتابه عن الرافعي حيث يقول : « .. كان ولده الدكتور محمد يومئذ يدرس الطب في جامعة ليون – بفرنسا – على نفقة جلالة الملك » .

هذه شهادة من ولي .. وعندها لا نكون في حاجة الى شهادات الخصوم او الأعداء . لذلك الرافعي حسبما يتراءى لبعض الناس .

وغاية ما في هذه القضية من العجب العجاب ما ينقله تلميذ الرافعي الملخص عن استاذه ان العقاد كان يحقد عليه وعلى شهرته :. وكلنا يعرف ان شهرة العقاد في تلك الآونة قد طبقت الآفاق . وملأ اسمه دنيا السياسة والادب .. وحسب القارىء ان يعرف ان الرافعي قد ملأ كتابا كاملا بالسباب الفاحش والكلام الذي يخرج عن اداب المناقشات .. كله في العقاد اسماه « على السفود » يخرج القارىء منه بنتيجة حتمية يفهم من خلالها من من الرجلين يحقد على صاحبه ويكرهه . وفي ذلك يقول العقاد من مقال له : « مصطفى افندي الرافعي الذي الف كتابا في التشهير بالدكتور طه ، والف كتابا اسماه « على السفود » افعمه بالطعن الفاحش في كاتب هذه السطور ، ووقف نفسه من سنوات على السرقة من كتبي والإنكار علي وعلى ما اكتب وانظم ، ولم يتورع في سبيل ذلك عن كذب ولا نداء تشويه ولا تحريف ، فهل يعلم القراء في اي شيء كان الجهاد النبيل؟ سلوه عمن تعلم من أبنائه على نفقة الخاصة الملكية التي يديرها الأبراشي باشا ، وعما طبع من كتبه على نفقة الخاصة الملكية[٢] » .

ويعقب على هذا الدكتور عبد الحي دياب في كتابه « العقاد ناقداً » بقوله :

---

(١) العقاد والتجديد في الشعر – للعوضي الوكيل ص ٣٦ .
(٢) البلاغ في ١٦ / ٤ / ١٩٣٢

مات العريان عام ١٩٦٤ وله من العمر تسع وخمسون سنة

«كان من الممكن الا يكون لهذه الدعوى نصيب من الصحة الا ان الأستاذ سعيد العريان رحمه الله احد تلامذة الرافعي ، ينبئنا بما يؤكد دعوى العقاد ، وذلك إذ يقول : « كان بين الرافعي والأبراشي باشا صلة ، ثم حدث لها ان انقطعت ، وذلك حينما انقطعت صلة الرافعي بصاحب العرش ليحل محله الأستاذ عبد الله عفيفي [١] » .

ونفس الأستاذ سعيد العريان لم يستطع أن يخفي ما اتصفت به عبارات سفود الرافعي أستاذه من قسوة وتحامل حينما تناوله في كتابه ووصفه بأن به « شيئاً خليقاً بأن يطمس كل ما فيه من معالم الجمال فلا يبدو منه الا أدم الصور وأقبح الألوان بما فيه من هجر القول والهجاء[٢] » .

وما لنا نذهب بعيداً والرافعي قد فاء لنفسه بعد ذلك بسنوات في حديث له مع الاستاذ احمد حسن الزيات نشرته الرسالة بعد وفاة الرافعي بناء على وصيته لرئيس تحريرها .. بدأه بقوله ان ما كتبه على السفود فأكثره رجس من عمل الشيطان .

يقول الرافعي : « أما العقاد فاني أكرهه ، وأحترمه ، أكرهه لأنه شديد الاعتداد بنفسه .. وأحترمه لأنه أديب قد استملك أداة الأدب ، وباحث قد استكمل عدة البحث ، قصر عمره وجهده على القراءة والكتابة .. فلا ينفك بين كتاب وقلم .. اسلوب العقاد أسلوب الأديب الحكيم .. تبرز فيه الفكرة الدقيقة في مجتلى الفن الرفيع فيجمع بقوة تفكيره ودقة تعبيره طرفي البلاغة .. والعقاد مخلص لفنه :. فلا يخرج للناس ما لا يرضاه .. فهو لذلك أبعد الأدباء عن استغلال شهرته واستخدام امضائه[٣] .

هدأت المعركة بين الرافعي والعقاد ولكن الى حين ، حتى صدر للعقاد ديوان

---

(١) العقاد ناقداً — عبد الحي دياب ص٦٥٢

(٢) حياة الرافعي للعريان صفحة ١٩٢

(٣) مجلة الرسالة — العدد ٣٥٨ في ١٣ / ٥ / ١٩٤٠

في الشعر هو « وحي الأربعين » فبدلا من أن يقول الرافعي رأيه هذه المرة في ديوان غريمه العقاددفع بصديق له وزين له مهاجمة العقاد وديوانه ونعني به الاستاذ حسنين مخلوف الذي نشر مقاله في مهاجمة العقاد بصحيفة المقطم .

فما كان من العقاد الا الرد على صفحات الجهاد بمقال غاية في التهكم والسخرية والاستهزاء بعلم ناقده وأوضح مقدرته الكليلة في فهم الشعر وعاب على وزارة المعارف أن يكون بين مدرس اللغة العربية بها أمثال ناقده الذي كان هو وأمثاله سبباً في ضعف حصيلة التلاميذ في اللغة العربية . ويومها تعرض مخلوف لحملة من زملائه مدرسي اللغة العربية لأنه أراد أن يقتص لصاحبه الرافعي من العقاد على حساب اللغة العربية فلم يرحمه العقاد ولم يرحم بالتالي معه مدرسي اللغة العربية .

وروى العريان أن مخلوفا بعد أن رد عليه العقاد تعرض لحملة عنيفة من زملائه حيث قال : « كنا جماعة من مدرسي اللغة العربية نصلي كل أسبوع في مسجد المنشاوي بطنطا ، فلقينا هناك مخلوفاً فما رآه المدرسون حتى انهالوا عليه وركبوه العقاب القاسي .. وحاول مخلوف أن يعتذر ولكن اعتذاره ضاع بين ضجيج اخوانه وحملتهم عليه فلم يستمع له أحد » .

وحاول الرافعي بعد ذلك أن ينتقم لصاحبه ولنفسه من العقاد فانتهز فرصة خصام كان بين العقاد وصحيفة البلاغ فأرسل لها مقالا شغل ثلاث صفحات لا يقل في أسلوبه عما كتبه في سفوده من قبل . وكانت تلك المقالة تجديداً للمعركة السابقة التي كانت بين العقاد والرافعي .: فانبرى العقاد على صفحات الجهاد فكتب رداً على الرافعي كان عنوانه « أصنام الأدب » لقب فيه خصمه « بالمهذار الأصم » . ولم يفته – أي العقاد – يومذاك أن يتناول اسماعيل مظهر الذي نشر مقالات « على السفود » في مجلته « العصور » بعد أن أغرى الرافعي بها . ومما نذكره أن العقاد في رده هذا اتهم الرافعي في وطنيته . ومما لاشك فيه أن رد العقاد قد آلم خصمه وأتباعه مما حدا بتلميذه العريان أن يقول على اثر ذلك :

« ما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لي الرافعي مربد الوجه من غيظ وغضب، مزبد الشدقين من حنق وانفعال ، فسرني أن أسعى اليه قبل ميعادي لأراه في غيظه وحنقه وانفعاله[1] » .

مضت بعد ذلك سنتان ، وتقلبت السياسة المصرية تقلباتها ، فاذا العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول خارج على الوفد ، فوجدها الرافعي فرصة سانحة للانتقام وليستخدم السياسة في النيل من خصمه في الأدب فيكيل له صاعا بصاع ويحاربه بمثل سلاحه ، فكتب مقالا بغير توقيع في « كوكب الشرق » وهي من صحف الوفد آنذاك جعل عنوانه « أحمق الدولة » ثم اعقب ذلك بمقال نشره في الرسالة جعل عنوانه « كلمة وكليمة » عرض فيه أيضاً بالعقاد تعريضاً أليما .

وبمراجعة تلك الحملات بين الأديبين الكبيرين يتضح لنا كيف كانت نفس الرافعي مملوءة حقداً من العقاد. وحسبنا أن نتتبعه في جملة ما كتب في تلك الفترة فاننا لا نراه يكتب عن شاعر من الشعراء الا وجعل نصف مقاله تعريضاً بشعر العقاد[2] . حتى اضطر العقاد أن يعلق على بعض كتاباته بمقال كان عنوانه «المنكوب المطموس» قال العقاد في بعض فقراته : « مصطفى صادق الرافعي رجل عامي من فرعه الى قدمه أو من قدمه الى فرعه ، يظن كما يظن كل عامي أن المناقشة هي أن تغلب وأن علامة الغلب أن يظل يتكلم ويتكلم ثم قال له في ختام مقاله : يا هذا عندي ما يشغلني عن ضغينة نفسك الصغيرة فاذهب الى عالم الأشباح الذي ألقيت بك فيه منذ سنوات

---

(١) حياة الرافعي للعريان ص ٢٠٤

(٢) مقالة الرافعي عن الشاعر علي محمود طه – صحيفة المقطم – مقالة عن الشاعر محمود أبو الوفا مجلة الرسالة – مقالة (بعد شوقي) .

أحمد شوقي

كانت معركة العقاد النقدية مع الشاعر احمد شوقي من اعنف المعارك الادبية التي عرفها الجيل الماضي .. والمعروف ان شوقي كان في تلك الحقبة من تاريخنا الادبي في أوج مجده وعزته ، شاعراً كبيراً تتوسط قصائده الصفحات الاولى من الصحف الكبرى ، ساعده على ذلك انه رجل كان لصيقاً ببيت الملك وبالوزراء والحكام ، فلم يكن عجيباً ان ينزله اصحاب الصحف تلك المنزلة التي عرفها له معاصروه . ويظن بعض الناس ان نقد العقاد ومدرسته للشاعر احمد شوقي كان بقصد الشهرة ، وفات هؤلاء ان المعركة في حقيقتها كانت بين القديم والجديد أو بين التقليد والابتكار . كما يظن بعض آخر ان المعركة بين احمد شوقي ومذهبه الشعري وبين العقاد ودعوته بدأت سنة ١٩٢١ ، حينما اصدر العقاد والمازني كتاب « الديوان » .

والمتتبع لنقد العقاد لشوقي يجد انه قال رأيه في شوقي وشعره قبل ذلك بسنوات ، ففي كتابه — خلاصة اليومية صفحة ٩١ — يعلق على أبيات لشوقي كان قد رثى بها بطرس غالي ونعني بها قصيدة شوقي التي مطلعها :

قبر الوزير تحية وسلاما ... الحلم والمعروف فيك اقاما

فقد عاب العقاد عليه الغلو والتقليد المخطىء لانه لا يصدر في شعره عن شعور صادق بل هو يبكي الامير والقصر .

وواصل العقاد حملته على شوقي الشاعر في سنة ١٩٢٠ حينما اصدر هو وصديقه

المازني « الديوان في النقد والادب » ولم يكن شوقي مقصودا بالحملة لذاته كما يظن البعض وإنما سوء حظ شوقي في ان المناسبة هي التي قيضته لتلقي ضربات المجددين . ومن ثم لتقرير الحقائق الجديدة .

وهناك كثيرون اخذوا على العقاد شدة لهجته حينما نقد شوقي ، وفاتهم أن تلك اللهجة كانت انسب اللهجات لمخاطبة رجل كشوقي يشاركه في هذه المسئولية الذوق الادبي الذي كان سائداً في الجو الادبي آنذاك .

فلقد غدا الجو الادبي في تلك الفترة وكأنه ليس هناك فيه سوى شاعر واحد تتسابق الصحف والمجلات على نشر قصائده في صفحاتها الاولى مولية إياها اهتماماً زائداً عن الحد . فقد يصادف ان تمر مناسبة وطنية فيقول فيها الشعراء قصائدهم فتنشر الصحف قصيدة شوقي وتهمل قصائد من سواه من امثال حافظ وغيره ، وهذا ما دفع العقاد إلى ان يقول : « كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتاً كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استضخاماً لشهرته ، ولا لمنعة في أدبه عن النقد ، فان ادب شوقي ورصفائه من أتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا اهون الهينات ، ولكن تعففنا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضنّ الشحيح ، وتطوى دفائن اسرارها ودسائسها على الضريح ، ونحن من ذلك الفريق من النـاس الذين إذا ازدروا شيئاً لسبب يقنعهم لم يألوا ان يطبق الملأ الاعلى والملأ الاسفل عن تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقي وضجته ان يكون لهما في كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة وقد يكون هذا شأننا معه اليوم وغداً لولا الحرص المقيت او الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفاً يستثير الحاسة الاخلاقية من كل إنسان وذهب به مذهباً تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب ان لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى اعلى مقام السعة الادبية والحياة الفكرية وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين ان الرفـعة كل الرفعة والسمعة كل السمعة ان يشتري ألسنة السفهاء ويكمم افواههم ، فـاذا استطاع ان يقحم اسمه على النـاس بالتهليل

والتكبير والطبول والزمور في مناسبة وغير مناسبة وبحق او بغير حق فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم وعقوة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الافهام والضمائر ، وسحقاً للمقدرة والانصاف وبعداً للحقائق والظنون ، وتباً للخجل والحياء ،فان المجد سلعة تقتنى ولديه الثمن في الخزانة . وهل للناس عقول ؟ »

ثم يعقب العقاد كلامه عن موقف الصحافة آنذاك من امثال هذه القضية الادبية الكبرى فيقول : ومن كان في ريب من ذلك فليتحققه من تتابع المدح لشوقي ممن لا يمدح الناس إلا مأجوراً . فقد علم الخاصة والعامة شأن تلك الخرق المنتنة نعني بها بعض الصحف الاسبوعية وعرف من لم يعرف انها ما خلقت الا لثلب الاعراض والتسول بالمدح والذم وان ليس للحشرات الآدمية التي تصدرها مرتزق غير فضلات الجبناء وذوي المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التي تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . في بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جوعاً او تواروا عن العيون .

هذه هي الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك ارزاق اصحابها تكيل المدح جزافاً لشوقي في كل عدد من اعدادها (١) . وقد اخذ كثيرون على العقاد شدة لهجته في نقد شوقي وشعره – كما قلنا قبل صفحات – ولكن هذه اللهجة كانت أنسب لهجة يخاطب بها شاعر كشوقي له انصار يلتفون حوله بدافع عصبية النقيصة وكذلك كان الذوق الادبي في مصر مسئولا ايضاً عن تلك اللهجة التي خاطب بها العقاد شوقي بعد نقده إياه . ويتضح لنا ذلك بجلاء من رسالة كان قد بعث بها العقاد في ٣١ يناير سنة ١٩٢٢ لصديق له يقول فيها معللا رواج الديوان : « فهل تراه كان يحدث هذه الزوبعة التي احدثها لو خلا من حملة معروفة الهدف شديدة الرماية ؟ واذا كان ذوق الجمهور لا يستقر بغير هذه الوسيلة فهل تفيده المجاراة

---

(١) كتاب الديوان – الجزء الاول – صفحة ٣ .

فـيه ؟ وان افادتـه فهل يحتمل كاتب ان يقصر قلمه على هذا الباب مـن الكتابة »(١) .

فالعقاد نفسه لا يحتمل ان يقصر قلمه على هذه اللهجة فقد اضطر الى هـذا اضطراراً لانه لو لم تكن هذه الوسيلة لما استطاع ان ينبه الاذهان مـن غفلتها ويدير الرؤوس ناحية الصواب ويفتح الاعين لتراه ، فمن لم يفعل فليستر رأسه خير من حمل جسمه له .

وشوقي نفسه كان مسئولا ايضاً عن هذه اللهجة التي خوطب بها ، وقد صرح العقاد بهذا في الديوان وفي غيره فقال : « ان مثل شوقي في احابيله التي ينصبها لترويج امره والكيد لغيره لا يستحق منا غير تلك اللهجة . » وان كان العقاد يصف تلك اللهجة بأنها لهجة التأديب وليست لهجة التحامل . فهل يجوز للناقد هذا ؟ أم يجب ان يكون النقد هيناً ليناً ! يجيب العقاد على ذلك بقوله : « ان الناقد قد يجوز له من الصرامة أحياناً ما يجوز للقاضي وان الحق يحق له ان يخشن في موضع الخشونة ويلين في موضع اللين ، وان احساس العدل هو الـذي يسوغ لنا أن نقرر الحقائق ونبسط الآراء بلهجـة توائم الرجل الذي قيضته المناسبة لتقرير تلك الحقائق وبسط تلك الآراء »(٢) .

لقد لاقت كتابات العقاد عن الشعر المعاصر والشعراء موافقة الكثير مـن القراء والانصار ، كما لاقت المعارضة من جانب الخصوم والاعداء ، وفي ذلـك يقول :

« فقد كان يبدو لنا ان آراء تحوم حول الآداب الغربية ولا تتقيد بالموروثات العربية هي اقل ان تجد انصارها بين قراء اللغات الاجنبية او من ينشأون على التربية التي نسميها بالعصرية . وهي احجى ان تجد المقاومة ممن لا يقرأون تلك

---

(١) الفصول — للعقاد ص ١٤٧ .

(٢) ساعات بين الكتب للعقاد ص ١٤٠ .

اللغات ولا ينشأون تلك النشأة . فأخطأ حسابنا في هذا وسمعنا من شبان الازهر ودار العلوم عدداً ليس باليسير يفهمنا فهما يسرنا ويرضينا ويستزيدنا من شرح الآراء وسرد الامثلة ، وكان عدد هؤلاء المغتبطين بالاطلاع على مقالات « الشعر في مصر » من طلاب الازهر ودار العلوم اكبر عدداً من اخوانهم في المدارس الاخرى واكثر رغبة فيها وحرصاً على استفسار ما غمض عليهم منها » .

ويتألق العقاد في شرح مذهبه الشعري الذي اختلف من اجله مع الشوقيين وما شابههم من اصحاب المدارس والدعوات ، فوصفه انه اقامة حد بين عهدين وانه مذهب مصري عربي انساني ، لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصاً من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية اخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصري لان دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية . وعربي لان لغته العربية . فهو بهذه المثابة اتم نهضة ادبية ظهرت في لغة العرب منذ وجدت ، إذ لم يكن ادبنا الموروث في اعم مظاهره إلا عربياً بحتاً ، يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة اصناماً عبدت قبلها ، وربما كان نقد ماليس صحيحاً اوجب من وضع القسطاس الصحيح وتعريفه في جميع حالاته . فلهذا اخترنا ان نقدم تحطيم الاصنام الباقية على تفاصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الاجزاء الاولى على هذا الغرض . وسنرد فيها بنماذج للادب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فان اصبنا الهدف وإلا فلا اسف [١] .

---

(١) قد يستغرب القارىء الحديث لتاريخ ادبنا المعاصر من حملة العقاد على تلك المدارس التي ارتبطت قيم الشعراء في مقاييسها بالالقاب ونظم التشريفات ولكن استغرابه يزول لو علم كيف كانت الصحافة ترتب مواهب الادباء والشعراء وكأنهم موظفون في البلاط . فمثلا في مجال الشعراء

وأوجز ما يقال في شعر شوقي في مقاييس العقاد ان شوقي ارتفع بشعر الصنعة إلى ذروته العليا ، وهبط بشعر الشخصية إلى حيث لا تتبين لمحة من الملامح ولا قسمة من القسمات التي يتميز بها انسان بين سائر الناس .

فلو قرأت شوقي كله وحاولت ان تستخرج من ثناياه انساناً اسمه شوقي يخالف الاناس الآخرين من ابناء طبقته وجيله لأعياك العثور عليه ، ولكنك قد تجد هنالك خلقاً تسميهم ما شئت من الاسماء وشوقي اسم واحد من سائر هذه الاسماء .

وليس هذا بشعر النفس الممتازة ولا بشعر النفس « الخاصة » وان اردنا ان نضيق معنى الامتياز ، وليس هو من اجل ذلك بالشعر الذي هو رسالة حياة ونموذج من نماذج الطبيعة ، وانما ذاك ضرب من المصنوعات غلا او رخص على هذا التسويم .

والفرق بينه وبين شعر « الشخصية » ان الشخصية تعطيك الطبيعة كما تحسها هي لا كما تنقلها بالسماع والمجاورة من افواه الآخرين . وهذه هي الطبيعة وعليها زيادة جديدة ، تطلبها أبداً لأن الحياة والفن على سواء موكلان بطلب « الفرد » الجديد او النموذج الحادث ، او موكلان بطلب « الخصوص » والامتياز لتعميمه وتثبيته والوصول منه الى خصوص بعد خصوص وامتياز بعد امتياز [1] .

وقد يفهم بعض الناس ان العقاد يعني بشعر الشخصية ان يتحدث الناظم

كانوا يقولون لك : « أول الشعراء محمود سامي البارودي لأنه باشا عتيق ، وثانيهم اسماعيل صبري لأنه احدث عهداً بالباشوية والوزارة ، وثالثهم احمد شوقي بك « لأنه بك متمايز » ورابعهم حافظ بك ابراهيم لأنه احرز الرتبة اخيراً » ويلي ذلك خليل افندي مطران لانه حامل نيشان ثم طائفة الافندية من الشعراء والمشايخ وهلم جرا وكأنهم – ايها القارىء العزيز يرتبونهم في ديوان التشريفات اي والله . وليس في ديوان الآداب . لذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا اسم شوقي مشفوعاً بأفخم الالقاب غارقاً في صيغ الاطناب والاعجاب .

(١) شعراء مصر – للعقاد صفحة ١٥٦ ، ١٥٧ .

عن شخصه ويسرد في كلامه تاريخ حياته ، لا ليس هذا ما قصد اليه العقاد، لأنه يطلب من الشاعر ان يعبر عن المرئيات وغيرها مما يقع في الحياة كما يحسها هو لا كما يحسها غيره ، ومن اجل هذا لا بد ان يمتاز شعره بمزية نتيجة لخواص الذوق والفهم والشعور التي لا يشبه فيها الاخرين ولا يشبهه الاخرون فيها وذلك لأنه شاعر .. والشاعر مطالب بامتياز الحس وخاصية الذوق اللتين تتجليان في القوة والرهافة او في العمق والمضاء . تلك الصفات التي تخرج به من عداد النسخ الادمية التي تتشابه في كل شيء كما تتشابه القوالب المصبوبة ، فاذا فقد الشاعر ذلك الاحساس الذي يمتاز به الشاعر الاصيل فانه في شعره لا يفعل سوى نقل الصور كما يراها الناس ويحسونها ، ويكون حينذاك لم يفعل سوى ما يفعله الانسان العادي في وصف المرئيات والاشياء .

وخلاصة القول في رأي العقاد ان الشاعر الذي لا يعبر عن شخصيته بكلامه ليس بشاعر موفور الحظ من الطبيعة .

لذلك كله كان شعر شوقي في مقياس العقاد معيباً لأنه ليس لشوقي شعر يدل على مزية نفسية او صفات شخصية ، لا يجاري فيها الآخرين او لا تتكرر في النسخ الآدمية الاخرى تكرر المنقولات والمحكيات والمصنوعات . وهذا نقص ظاهر في أبواب شعر شوقي كلها ،فلا فرق بين حديثه وقديمه ، وما بين الموضوعات العامة منه والخاصة ، ولو كانت مدائح او مراثي في اشخاص متعددين .

فالمتصفح لشعر شوقي على كثرة ما نظم في مدح الأمير عباس الثاني لا يعرف من هو الامير عباس الثاني من تلك المدائح الكثيرة ، ولا نستطيع ان نفهم نفس ممدوحه الأكبر من أوصافه المفروض فيها انها تصفه وتبينه وتعرفه للنفوس كما تعرفه للتاريخ .

يقول العقاد : « هذه مدائح عباس موجودة محفوظة من خالفنا في رأينا فليس ثم ما يمنعه ان يثبت منها ما يخالفنا او يؤلف لنا « شخصاً » منها يسمى

عباساً ويتميز بين سائر الممدوحين لو كانوا في مكانه »[1] .

وللعقاد رد صريح على الذين عابوا عليه حملته على شوقي كتبه في مجلة الرسالة قبل سنوات رأينا ان ننقله هنا حيث قال :

« .. أما ما قيل ولا يزال يقال عن الخصومة الادبية بيني وبين شوقي — رحمه الله — فبودي أن أقرأ كتاباً واحداً يقول : انك نقدت الشاعر في كذا فان كذا هذه خطأ اقيم عليه الدليل ، وهذا هو الدليل .

بودي أن أقرأ هذا لكاتب واحد من الذين يخالفونني في الرأي وينهجون في النقد غير المنهج الذي انتحيه .

ولكنهم جميعاً لا يزالون على الصياح والاستهوال ثم الصياح والاستهوال : يا خلق الله الحقونا .. يا خلق الله اسمعوا واعجبوا .. يا خلق الله تعالوا فانظروا من يقول ان شوقيا ليس بشاعر عظيم .

وهذا كل ما يقال ، وهذا كل ما يعاد ، ولا مناقشة لرأي ولا استشهاد بمثال .

ومنهم من يقولني ما لم أقل ويخرج صارخاً على خلق الله ليزعم انني عظمت الشعراء جميعاً إلا شوقياً فقد خصصته بقلة التعظيم .

أكذلك حصل ؟ لا . كذلك لم يحصل .

وكل ما هنالك انني يحق لي ان آكل الجميز الجيد وان اعيب التفاح الذي يعاب والجميز بعد ذلك هو الجميز ، والتفاح هو التفاح .

واعجب العجب ان يبلغ الادعاء بهؤلاء ان يغلقوا كل باب للرأي غير رأيهم فلا يخالفهم احد الا كان تأويل المخالفة الوحيدة ترة شخصية او قلة انصاف .

ولو انهم طلبوا الحقيقة لسهل عليهم ان يعرفوا ان طريقتنا تباين طريقة شوقي ، وان اختلاف المقاييس بيننا وبينه معقول وطبيعي ومردود الى اسبابه

---

(١) شعراء مصر — للعقاد ص ١٦٥ .

التي لا نغضي عنها لو اردنا الاغضاء .

وان ترة شخصية بيننا وبين شوقي لم تكن على حال من الاحوال . وليس في مقدور احد ان يذكر سبباً لها لو اتجهت ظنونه اليها .

فكل ما قلناه في ادب شوقي فهو رأينا الذي اعتقدناه ، ولا نحب ان يشير احد الى اللهجة التي قلناه بها ، فان بيان اسبابها وتسويغ موقعها لا يعسران علينا ، ولا يخفيان على من يعلم او يريد ان يعلم .. فالايجاز في هذه الاشارة اولى من الاضافة فيها .

وبعد فالخصومة الأدبية لها مذهبان : مذهب الايمان بالفضل واخفائه على عمد ، ومذهب الرأي الذي يتفق عليه الاصدقاء والخصوم وان اختلفا في لهجة الاداء وعبارة الثناء .

وهذا هو مذهبنا الذي ندين به ونجري عليه في كل ما اختصمنا فيه »[١] .

وقبل ان ننهي البحث في مسألة نقد العقاد لشوقي نتعرض لرأي صدر مؤخراً حول هذا الخلاف أورده الشاعر محمد مصطفى الماحي في الجزء الثاني من ديوان شعره حيث قال تحت عنوان : « فشل سفارة ادبية بين العقاد وشوقي » : وقد سمع الكاتب تفاصيل ما حدث من الاستاذ سيد ابراهيم المتفنن في الخط العربي ، ومن الأديب المعروف كامل كيلاني وهما من اصدقاء العقـــاد الذين صحبوه في شبابه ، وعرفوه ايام العسرة والمرض والكفاح ، كما كانا في الوقت نفسه على صلة وثيقة بالشاعر احمد شوقي ، وعلى اخوة متينة مع الشاعر احمد زكي ابو شادي منشىء جامعة أبولو للشعر ، التي تولى رياستها الفخرية احمد شوقي ، وخلفه عليها بعد وفاته خليل مطران .. وكان الاستاذ سيد ابراهيم وكامل كيلاني من اعضاء هذه الجماعة ايضاً ، وأراد الدكتور زكي ابو شادي ورفقاؤه ان تقيم جماعة أبولو

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٣٦١ في ١٩٤٠/٦/٣ مقال العقاد : الخصومة الادبية في الشرق .

مؤتمراً للشعراء ، ولكنهم وجدوا ان هجوم العقاد على شوقي وانتقاصه لادبه اشتد على صورة لا يتيسر معها جمعهما في صعيد واحد ، ويترتب على عدم دعوة العقاد تخلف من يتصل به من الشعراء وهم كثير ، فرأى ابو شادي وسيد ابراهيم ان يقضيا على هذا الموقف الحرج ، واتفقا على ان يجمعا بين شوقي والعقاد في جلسة اخوية تربط الصلة بينهما للنفس ، فيعدل العقاد عن مهاجمة شوقي او على الاقل يتخذ سبيلا أقل عنفاً واقوم قيلا ، ويصفح شوقي عن اساءة العقاد اليه ، وبذلك يتيسر عقد مؤتمر الشعراء ، وبدأا بالتحدث الى العقاد لما يعرفان فيه من تشدد وترفع وشموخ ، وكان سرورهما عظيما حين لقيا منه استجابة وقبولا ، ورضي بأن يذهب معهما لملاقاة شوقي في مكتبه الذي اتخذه بشارع جلال ، لتصفية الموقف على صورة تحفظ لكل منهما كرامته ، وذهب الاثنان الى شوقي وهما مغتبطان بما وصلا اليه من اقناع العقاد ، ليتفقا معه على الموعد الذي يتم فيه اللقاء المرتقب ، وكانا على ثقة بنجاح مسعاهما ، ولكن شوقي خيب أملهما ، ولم يجبهما الى طلبهما رغم إلحاحهما ، وأبى اباء شديداً ان يجتمع مع العقاد ، أو يمد يده لمصافحته . . وهكذا فشلت هذه السفارة الأدبية التي كان من شأنها — لو صاحبها التوفيق — ان تخمد هذه الحرب المتأججة (١) .

ونحن نشك في هذه الرواية التي نقلها الاستاذ الماحي ودليلنا نبسطه من معرفتنا بالعقاد وطول مصاحبتنا له ، فقد عرفناه حق عرفانه ، ولم نر منه انه سعى في حياته لخصم من خصومه كائناً من كان ، كما لم نعرف له الموقف الوسط المتميع في مثل هذه الأمور . فالمعروف عن العقاد انه لم يكن من اولئك الكتاب الذين يتراجعون عن آرائهم بغية الكسب الرخيص .. لأنه لو كان العقاد كذلك لما كان هو الذي آثر السجن عن كلمة اعتذار تقال كما تقال آلاف مثلها من بعض الناس في مثل تلك المواقف .

---

(١) ديوان الماحي ص ٥٠٦ .

وكل الذي نرجحه ونحن أمام تلك الرواية انه قد تكون مفاتحة صاحبيه للعقاد حدثت فعلا . اما ان يجيء رد العقاد استجابة وقبولا لملاقاة شوقي في مكتبه بشارع جلال فهذا ما نقطع حتما بعدم حدوثه . وقد يكون صاحباه قد حرفا في نقلهما رأي العقاد اليه ، وكل ما نعلمه من أمر شوقي حينما اراد ان يلتقي بالعقاد انه دعا لجنة الفنون الجميلة بالبرلمان الى حفلة شاي في بيته وارسل الاستاذ زكي طليمات ليدعو العقاد كعضو في هذه اللجنة . وذهب الاستاذ زكي طليمات ودعا العقاد نيابة عن شوقي ، فأجاب العقاد : ولماذا لا يدعوني بنفسه ورفض الدعوة . فاتصل به شوقي وحدد موعداً لزيارته بجريدة « كوكب الشرق » التي كان يرأس تحريرها في غياب صاحبها .

وهنا ندع احد تلاميذ العقاد يكمل لنا ما حدث في تلك المقابلة ، ونعني به الأديب محمد طاهر الجبلاوي ، فقد ذكر في كتابه « في صحبة العقاد » هذه الرواية : « وحضر – أي شوقي – في اليوم الذي حدده وكنت اجلس مع العقاد في ذلك اليوم فتلقاه واجلسه الى جواره ثم اتجه الى الأوراق التي كانت على مكتبه ولم ينطق بكلمة واحدة .

ودعاه شوقي إلى الحفل فقبل شاكراً ثم اتجه إلى الأوراق مرة ثانية

وكان الفرق بيناً في مظهر شوقي مع العقاد .. شوقي قصير القامة إلى حد بعيد والعقاد طويل القامة إلى حد أبعد . وكنت انظر اليهما ولا أدري مايدور بخلد كل منهما عن الآخر وهما صامتان .

وبدأ شوقي يسأل العقاد – لا أدري سر اعجابك بابن الرومي ؟ واخذ العقاد يتحدث عن ابن الرومي وملكاته الشعرية ومقدرته على الوصف والتصوير وما ناله من اغفال ونسيان في العصور الماضية ، واسهب العقاد في الكلام عن ابن الرومي حتى نظر اليه شوقي وقال له بالعامية الفصحى : (انت حتخليني اقرأه تاني) [١] .

---

(١) في صحبة العقاد – لمحمد طاهر الجبلاوي ص ٦٥–٦٦ .

نعود بعد ذلك الى تكملة رواية الاستاذ الماحي خلال حديثه عن العقاد ونقده لشوقي فنجد انه نقل فقرات مما قاله العقاد في مهرجان شوقي الذي اقامه المجلس الأعلى للفنون في سنة ١٩٥٨ حيث قال :

« اشار الى ما كان من خلاف بين مدرسة العقاد ومدرسة شوقي والى ان الفرق بين المنهجين كالفرق بين مصور ينقل النماذج الشائعة بمقاييسها التقليدية ، ومصور ينقل عن الطبيعة والحياة ، وان شعر النماذج وجد في شوقي رسوله المبين » [١] .

ويختم الاستاذ الماحي كلامه في هذا الصدد بقوله :

« وهذا هو رأيه – أي العقاد – الاول بعينه إلا ان البواعث اقتضت ان يسوقه في عبارة اخف وقعاً ، وألبسه لباساً ذا رونق ولكن يستر ما أراد أن يثبته في الأذهان .

ولسنا ندري ما هو المقياس الذي على اساسه صدق الاستاذ الماحي رواية صاحبيه مع ايمانه برأي العقاد في شوقي الذي يستغربه منه وهو يعيده ليثبته في الاذهان بعد وفاة شوقي بربع قرن من الزمان .

ولكن الذي نود ان نضيفه في ختام الحديث حول معركة العقاد وشوقي .. ولماذا اهتم الناس بما قاله العقاد في شوقي مع انه لم يكن وحده صاحب الرأي في ذلك !! فقد شاركه صاحباه المازني وشكري وغيرهما من الشعراء والادباء الذين كانت لهم مواقف معينة من شاعرية شوقي [٢] . ألأن رأي العقاد جاء في

---

(١) ديوان الماحي ص ٥٠٨ .

(٢) راجع ما كتبه الدكتور طه حسين في كتابه « حافظ وشوقي » حيث قال في صفحة ١٢ : « وقد قرأت مقدمة هيكل وكنت اظن انني سأظفر فيها بمذهب شوقي في الشعر . وانا اعلم ان هيكلا من اقدر الناس على التحليل وابرعهم فيه . قرأت له ما كتب عن جان جاك روسو واناتول فرانس وبيير لوتي ، فلم اشك في ان كثيراً من الناس يستطيعون ان يقنعوا بقراءة هؤلاء الكتاب أنفسهم . ولكني لم اكد اظفر بشيء صريح من العقيدة الشعرية لشوقي فيما كتب عنه هيكل . اترى ان مصدر ذلك ان ليس لشوقي عقيدة شعرية يستطيع هيكل ان يعرضها ؟ ام ترى مصدر

موعده ؟! أم لأنه فصل القول في شاعرية الشاعر فكشف عيوبها وجلاها للمخدوعين فيها ؟! ربما !! هذا ما نتركه لجيل النقاد المحدثين البعيدين عن التعصب لشوقي ومذهبه والمؤمنين بدعوات التجديد في الشعر العربي المعاصر ، وما أحدثته من اثر في الشكل والمضمون في هذا المضمار .

ذلك ان هيكلا قد عجز عن فهم شوقي ، ووفق الى فهم هؤلاء الكتاب الفرنسيين ؟ ام ترى ان هيكلا قد كتب مقدمته هذه عن طمع في الراحة وفراغ البال ؟ أم ترى ان كل هذه الاسباب قد اشتركت وتظاهرت فقصرت بقدرة هيكل عن ان تعرض العقيدة لامير الشعراء في شيء من الوضوح والجلاء .

والواقع اني لا اعرف لامير الشعراء عقيدة صريحة في الشعر ، وما أرى انه قد حاول أن يكون لنفسه هذه العقيدة وما أرى انه فكر في الشعر الا حين يقوله ، انما هو — كما يقول هيكل في شيء من الدهاء — مجدد حيناً ومقلد حيناً آخر ، وهو في تجديده وتقليده لا يصدر عن حقيقة فنية واضحة .

وراجع ما قاله الاستاذ محمود محمد شاكر في مجلة الكتاب عدد اكتوبر سنة ١٩٤٧ صفحة ١٥٧٥ حيث قال : كان شوقي رجلا طموحاً الى اشياء يعنيها اخذت عليه المسالك ان يكون شاعر الامير وان يظل شاعر الامير وان اختلفت الامراء . فمن اجل ذلك تراه لا يزال يخشى أن تتغير الحال بعد قليل فتتغير حاله فيؤثر ان يمسك لسانه ولا يسترسل مع اميره هذا الجريء . وكان هذا اول الداء العياء — هو الخوف آفة الاحرار .. ومن اعجب العجب ان شوقي الذي كان الى سنة ١٩٠٦ لا يدع شيئاً الا قال فيه ، قد اعتقل لسانه وسكن سكوناً حتى لا حراك به يوم وقعت كارثة دنشواي ، فلم يقل شيئاً إلا أبياتاً من أرذل الشعر قالها بعد عام مر على حادثة هذه القضية في سبيل طلب العفو عن سجنائها ، كما قال في ديباجتها ، وكان غاية ما قاله :

« نيرون » لو ادركت عهد « كرومر » لعرفت كيف تنفذ الاحكام

فمن شاء ان يرشدني كيف استطاع ان يملك نفسه ، فلا يذكر شيئاً عن احتلال بلاده وضياع استقلالها ، وعن هذه الكارثة الوحشية التي حركت الكاتب الايرلندي برنارد شو فليفعل مشكوراً اما انا فأرى ان القلب الذي سكن فلم يتحرك ولم يتمزق على هذين البلاءين الشديدين لا يستطيع البته ان ينفخ الحياة في شعر يقال لينفخ الروح في شعوب موات من وطأة الاستعمار والجهل والاستعباد قديمه وحديثه . وهذا هو جوهر الشعر الوطني القومي .

جميل صدقي الزهاوي

لا يذكر الإنسان شعراء العراق دون ما يقفز في ذهنه الرصافي والزهاوي فهما جناحا الشعر في المدرسة القديمة العراقية . واستطاع الشعر العراقي أن يرفرف بذينك الجناحين ردحاً من الزمان . ولا يزال ...

ومعركة العقاد والزهاوي من المساجلات الأدبية التي أثارت نقاشاً وحواراً لفترة طويلة .

ولشخصية الزهاوي عند العقاد مكانة التقدير والتجلة . كذلك بالنسبة لفكره وأدبه . وفي ذلك يقول العقاد :

« ترددت لأني أعلم أنني استطيع أن اتبسط في شرح كل رأي أراه في الأدب والشعر دون أن أعرض للاستاذ الزهاوي نقداً أو تحبيذاً وخلافاً أو وفاقاً ، ولأنني أوقر هذا الباحث الفاضل واعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغبنه بين قومه ، فلا أحب أن اقول فيه – لغير ضرورة من ضرورات البحث – مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندي من القدر والرعاية »

وان من عرف الزهاوي ، وقرأ له مؤلفاته وقصائده ، بعضها أو كلها ، ليس بمنته إلى رأي أصدق من هذا الرأي ، وليس بواضعه في مكانة خيراً من هذه المكانة التي وضعه فيها العقاد ، وفاء واجلالا وتقديراً لعلمه وفضله وفكره .

وتتلخص مساجلات العقاد وشاعر العراق الكبير في أن البريد حمل للعقاد رسالة من أديب تونسي يسأله فيها أن يبدي رأيه في أديب العراق الاستاذ جميل صدقي الزهاوي . ولم يكن العقاد إذ تلقى الرسالة يقدر انه بجوابه سيثير نقاشاً وحواراً بل وسيخوض معركة تطول .

ولكن الزهاوي لم يرق له ما كتبه عنه العقاد .. لم يعجبه أن يكون نصيبه من الملكة العلمية أكبر وأصلح من الملكة الفلسفية والملكة الشعرية – كما قال العقاد : فطالع الناس برد له على مقال العقاد في « السياسة الاسبوعية » قال فيه إنه فيلسوف وإنه شاعر لا يقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية ، وينتقد فيه العقاد نقداً خفيفاً أو غير ظاهر ، ولكنه لاذع بعض الشيء ..

وقد تلقى العقاد تلك الرسالة التي أثارت المعركة بينه وبين الزهاوي في عام ١٩٢٧ وعقب عليها بتاريخ ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٧ وضمنها مجموعة مقالاته التي نشرها بكتابه ساعات بين الكتب تحت عنوان « كلمة عن الاستاذ الزهاوي » جاء فيها :

جاءني الخطاب الآتي من صاحب الإمضاء بتونس . قال كاتبه الأديب بعد ديباجة التعارف : « أما الآن فبقيامكم ضد الثرثارين وتقويضكم لبناء ما كانوا يحسبونه آثاراً أدبية وإماطتكم اللثام عن كل من كنا نعدهم من الشعراء الفحول والكتاب المبرزين – قد أسفرت النتيجة عن تجدد حقيقي في اللغة والأدب إذ أدركوا ما ترمون اليه في انتقاداتكم فهبوا يتبارون فيه جاهدين قرائحهم وصارفين مهجهم نحو « الحياة » نحو « الجمال » نحو « المثل العليا » ، تلكم الكلمات الحية التي ما وجهت طرفي نحو أي سطر من فصولكم ومطالعاتكم ومراجعاتكم ونحو أية صفحة مما تكتبون إلا عثرت عليها ... ولصرف مهجتكم إلى هذه المطلب ، ونقدكم الصحيح الخالص من الأغراض، وسعيكم وراء الحقيقة،

رضي القوم أم غضبوا — أتيت أعرض عليكم كلمة في رفيق صباي ومربي روحي راجياً منكم التفضل بإبداء رأيكم فيه ولكم الشكر الجزيل سلفاً . لأن كل هاتيكم الخلال جعلتني كما جعلت غيري يعتبرون قولكم الفصل فيمن تكتبون له أو عليه .

ذلكم الرفيق يا سيدي هو فخر العراق كما تقولون جميل صدقي الزهاوي ، فقد عرفته منذ دخلت المدرسة وأولعت بديوانه حتى إنني كدت أن أحفظه نثراً ونظماً ، فمن نزعته في الشعر إلى قوله في القبر :

ولست بمسؤول إذا ما سكنته أكنت عبدت الله قبلاً أم اللاتا

إلى قوله في مهاجميه :

يا قوم مهلاً مسلم أنا مثلكم الله ثم الله في تكفير

وعندما أسأم استمرار قراءتي فيه أعمد بعد تحضير واجباتي المدرسية إلى مطالعة أحد الدواوين فأرى نفسي كأنني انتقلت من روضة حافلة بالأزهار من كل صنف زاهية بالماء الزلال الجاري و « الهزار » على أغصان اشجارها يشدو بنغماته العذبة الشجية إلى أرض قاحلة لا ماء فيها ولا شجر ولا هزار ، فلا ألبث أن أعود إلى ديواني الأول وشغفي به يزداد كلما رأيته سابقاً وغيره لاحقاً . وهكذا .

وما أقوله لكم في ديوانه أقوله لكم في مباحثه التي تنشر في الهلال حتى أنني إذا لم أجد فيه فصلا من فصول جميل انقبضت نفسي لذلكم كثيراً . وإذا رأيت فيه مبحثاً له قدمته على سائر الموضوعات فقرأته وأعدته المرار العديدة حتى تعلق بذهني جمل منه ، ومن الجمل أفكار ، ومن الأفكار مناقشة تنتهي بي إلى قضاء جزء كبير من أوقاتي معه . وصادى القول ان السيد جميل لهو أحق بالنقد من سواه وبمن يظهر آثاره الأدبية والفلسفية . وهذا لا يتصدى للبحث فيه إلا أمثالكم الذين يقدرون الأدب حق قدره . إذ من العار أن نبقى كما قال

فيلسوف العراق لا نعرف قيمة للأديب في قطرنا إلا بعد مماته :

من بعد ما في قبره أوصاله تتبعثر
ماذا من التكريم يرجو ميت لا يشعر

... هذا وإنني أعتذر إلى سيدي الاستاذ من تجرئي على مكاتبته إذ لست ممن يراسلون أمثاله . ولولا إعجابي بجميل صدقي الزهاوي وحبي لناقد خبير ينشر للقراء آراءه ويبين لهم فجها من ناضجها ما تسرعت في المراسلة أترجى ما يقال في فخر العراق وعنه » .

عبد القادر بن خليفة بن ميلاد

جاءني هذا الخطاب من شهر مضى وفيه غير ما نشرت هنا كلام مسهب في مثل هذا المعنى ولواحقه ، فتوسمت من لهجته وخلوص إعجابه أدباً جماً ونفساً مستشرفة إلى الحقيقة ، وهممت أن أجيبه إلى رغبته ولكنني ترددت لأنني أعلم أنني أستطيع أن أتبسط في شرح كل رأي أراه في الأدب والشعر دون أن أعرض للاستاذ الزهاوي نقداً أو تحبيذاً وخلافاً أو وفاقاً ، ولأنني أوقر هذا الباحث الفاصل وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجرأته في جهاده وغبنه بين قومه ، فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالاً لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ما له عندي من القدر والرعاية . ثم عن لي أن في الكلام عليه مجالاً لكلمة أُخرى تقال عن التفريق بين الملكة العلمية والملكة الشعرية ، وبين بديهة الفيلسوف وبديهة العالم ، لا ضير منها على أحد عامة ولا على الاستاذ الزهاوي ومن يعجبون به خاصة ، إذ هو ممن يقال فيهم قول حق لا يغضب الطبيعة القوية والنفس المروضة والضمير الواثق من قصده وعمله ، فكتبت هذا الفصل الموجز آملاً أن أجيء فيه بحقيقة تسوغ المساس برجل لا أحب أن أمسه بغير ما يرضيه .

* * *

أول كتاب قرأت للزهاوي كان كتاب « الكائنات » أو « رسالة الكائنات» لأنها عجالة مختصرة من القطع الصغير. وكان ذلك قبل عشرين سنة أو نحو ذلك وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة ومباحث الدين والفلسفة . فراقني من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ ووضوح التفكير والجرأة على العقائد الموروثة مع ما في ختام الرسالة من اعتذار لا يخفي ما وراءه ولا يغير رأي القارىء فيما تقدمه. وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقاً صحيحاً يذكر القارىء بإشارات ابن سينا و بـ « جيتي » ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب. ثم قرأت للزهاوي شعراً ونثراً وآراء في العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة إلى الثقة والابتكار ، وكان آخر ما قرأت له رسالة « المجمل مما أرى » ثم شعر ينشره في الصحف المصرية من حين إلى حين .

هل الزهاوي شاعر أو عالم أو فيلسوف ؟ إن آثاره في الشعر والنثر تدعوك إلى هذا السؤال ، فمباحثه مما يتناوله الفيلسوف والعالم ، ونظمه يسلكه بين طلاب المقاصد الشعرية ! وقد يختلف جواب الناس على السؤال الذي سألناه فيعده بعضهم من الفلاسفة وبعضهم من الشعراء ويميل به بعضهم إلى فريق العلماء. أما أنا فرأيي فيه أنه صاحب ملكة علمية تطرق الفلسفة وتنظم الشعر بأداة العلم ووسائل العلماء .

الشاعر صاحب خيال وعاطفة ، والفيلسوف صاحب بديهة وبصيرة وحساب مع المجهول ، والعالم صاحب منطق وتحليل وحساب مع هذه الأشياء التي يحسها ويدركها أو يمكن أن تحس وتدرك بالعيان وما يشبه العيان . فإذا قرأت مباحث الزهاوي برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ، ولمست في آرائه مواطن التحليل والتعليل . ولكنك تضل فيها الخيال كثيراً والعاطفة أحياناً ، وتلفت إلى البديهة فإذا هي محدودة في أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلي لها مطالع الأفق ولا مسارب الأغوار . فهو يريد أن يعيش أبداً في دنيا

تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار ولا تنطبق فيها الأجفان ولا تتناجى فيها الأحلام ، وليست دنيا الحقيقة كلها نهاراً وشمساً ولكنها كذلك ليل وغياهب لا تجدي فيها الكهرباء ! وقد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل أن يخلق العقل ثم جاء العقل ليتممها ويأخذ منها لا ليلغيها ويصم دونها أذنيه . فأما الزهاوي فهو يحاول أن يلغي الخيال والبداهة ويظن أن الإنسان لا يتصل بالكون إلا بعقله ولا يهتدي إلى الطريق المفطور إلا بعقله، وليس هذا بصحيح في حكم العقل نفسه إذا أنصف العقل ووفى لمنشأه الأول وقصارى مطمحه الأخير .

إن كل منطق لا يكون صحيحاً إذا دخل في حسابه أمران محيطان بنا متغلغلان فينا لا مهرب منها ولا روغان . نعني بهذين الأمرين « المجهول » أولاً و « العاطفة » ثانياً ، فهما راصدان لكل قضية منطقية يهدمانها هدماً ما لم يكن في زواياها مكان مقدور . فالعالم لا شأن له بالمجهول وليس له شأن كبير بالعاطفة كما يحسها الشعراء، وهو إذا أراد حصر نفسه في معمله خرج منه بنتيجة علمية لا غبار عليها من ناحية النقد والاستقراء ، ولكن الفيلسوف إذا خرج إلى دنيا لا مجهول فيها ولا عاطفة توحي إليها انما يخرج إلى دنيا غير دنيانا هذه وإنما يأتي لنا بفلسفة خليقة بعالم آخر غير عالمنا الذي يحيط بـه مجهوله وتعمل فيه عواطفه . وقد يصيب بمنطقه هذا في حقائق الأرقام ، والإحصاءات ولكنه لا يصيب به في معاني الشعور وأسرار الحياة ، إذ كيف يحسب حساباً لهذه المعاني والأسرار وهو لا يحسها ولا ينقاد لدافعها؟ وكيف يصيب في المباحث النفسية وهو لا يحسب حساباً لتلك المعاني والأسرار ؟

من منا يكون محباً معقولاً مطابقاً للمنطق إذا هو نظر إلى حبيبه بالعين التي يراه بها جميع الناس ؟ إن نظرك إليه قد يكون معقولاً مطابقاً للمنطق إذا نظرت اليه بتلك العين التي يراها بها من لا يحبونه ولا يؤثرونه على سواه ، ولكنك أنت نفسك – أنت الناظر – لا تكون « محباً منطقياً » موافقاً للمعقول

والمعلوم من شؤون المحبين حين تتساوى أنت وسائر الناس في الإعجاب بحبيبك، لأن المحب المعقول هو الذي يرى حبيبه بعين لا يراه بها الآخرون . وكذلك الحياة ، قدتكون أنت منطقياً إذا عرفتها بالعقل وحده كما يعرفها غير الأحياء لو كان غير الأحياء يعرفون الحياة . ولكنك لا تكون « حياً منطقياً » إذا أنت لم تعرفها كما يعرفها كل حي مخدوع بها غارق في غمرة عواطفها وأشجانها . فكن لنا حياً منطقياً أو أنت إذن إنسان لا يعنينا رأيه في الحياة . لأنه ليس منها بمكان قريب أو على اتصال وثيق .

والزهاوي تخونه الحقيقة حيث يسعى إليها على جناح من العقل لا يَعضُده جناح من الشعور ، فلم اغتبط بتعرض الشعور لتفكيره مثلما اغتبطت به وهو يحاول — بالمنطق — أن يثبت الرجعة إلى هذه الأرض بعد الممات أو إلى عالم آخر ينتقل إليه الإنسان ، فهو يقول في « المجمل مما أرى » إن « مظاهر الحياة من مظاهر المادة التي ليست في أصلها إلا قوة ، وإن هذا الفضاء الذي صرحت بأنه لا يتناهى يحتوي على عدد غير متناه من العوالم النجمية ، وإن في كثير من هذه العوالم نظاماً مثل نظامنا الشمسي ، وإن في ذلك النظام أرضاً مثل أرضنا وفي بعضها أرض تشبه أرضنا إلى زمن محدود ثم تختلف عنها ،وإن في كل أرض مشابهة لأرضنا إنساناً مثلي وآخرين مثل غيرنا من الناس قد ولدوا من آبائهم كما في أرضنا ، وقد جرى لآبائهم فيها ما جرى لهم في هذه تماماً .

« وبعض هذه الأرضين اليوم مثل أرضنا في حالتها الحاضرة وبعضها أخذت تهدم وبعضها في بداءة تألفها . فإذا مات الإنسان في أرضنا فهو يولد في غيرها من جديد من نفس آبائه الذين ولد في أرضه هذه منهم ، وإذ أن الأرضين لا تتناهى فكل فرد من الناس غير متناهي العدد . غير انه في كل أرض واحد يجهل ان له أمثالاً في هذا الكون اللامتناهي ، وأن الذي يشقى في هذه قد يسعد في التي تشبهها إلى زمن محدود ثم تخالفها فان عدد هذه المخالفات أيضاً غير

متناه ، والذي يسعد في هذه الفترة قد يشقى في تلك فالطبيعة عادلة قد قسمت السعادة والشقاء على السواء فان زيداً إذا كان هنا شقياً فهو في أخرى سعيد وإذا كان سعيداً فهو في تلك شقي . وأرضنا هذه بعد أن تصير إلى الأثير تتولد ثانية بعد ربوات الملايين من السنين فيجري عليها تطوراتها طبق ما جرت في دورها هذا ويتولد آباؤنا كما تولدوا ونتولد منهم كما تولدنا ، ونموت كما في هذه المرة ، وقد تكررنا من الأزل سوف نتكرر إلى الأبد ..

... ورب قائل : ما الفائدة من هذا التكرار وهو لا يتذكر ما مر به في أدواره الأولى ؟ فأجيب إن فائدة التذكر هي العلم فاذا حصل إلينا العلم بطريقة أخرى فهو مثل العلم بالذكر ، وكفى به نفعاً انه يطامن الإنسان أن موته موقت ليس أبديا . وهذه النظرية مبنية على أسس ثلاثة ؛ الأولى أن العالم بما فيه من الأجرام غير متناه ، والثاني أن لا شيء يذهب إلى العدم بل ينحل تركيبه وينحل إلى الأثير بعد تطورات متعددة، وهذا الأثير يتركب من جديد فيكون مادة بعد تطورات متعددة ثم ينحل ثم يتركب إلى ما لا يتناهى ، والثالث ان جواهر كل جرم من الأجرام متناهية العدد مهما كثر هذا العدد . وأقدارها كذلك متناهية ولا يمكن أن يوجد جرم واحد غير متناهي السعة . والأرض هذه تتألف في أزمنة غير متناهية على أشكال متناهية لأن جواهرها متناهية وشكلها الحاضر أحد تلك الأشكال غير المتناهية التي تتألف عليها وتدور من أحدها إلى الآخر فهو كغيره من الأشكال يتكرر إلى ما لا نهاية له والإنسان جزء متمم لشكلها الحاضر أيضاً يعود بشكله وعقله والا لم يكن الدور تاماً والعالم أجمع تابع لهذا الناموس الدوري الأعظم » .

هذه هي نظرية الدور كما أجملها الاستاذ الزهاوي في رسالته « المجمل مما أرى » .. فالمنطق هنا يتكلم ولكن حب الحياة هو الذي يحركه إلى الكلام ! على أنه بعدُ منطق لم يمتزج بالحياة في الصميم لأنه يتعزى بالعلم ، والحياة لا

يعزيها أن تعلم بأنها خالدة وإنما يعزيها ان تشعر بالخلود، وهو بعد هـذا وذاك منطق خاطىء لأنه يستلزم الدور ولا شيء يدعو إلى استلزامه . فما دامت الجواهر لا تتناهى والحركات لا تتناهى والفضاء لا يتناهى فالنتيجة أن تكون الاجرام بأشكالها لا تتناهى ولا حاجة إلى تكرارها وعودتها هي بعينها مرة بعد مرة إلى غير نهاية ،ويجب الآن ان نضرب صفحاً عن لا نهاية الزمان التي تخدعنا باحتمال هذا التكرار فيما يلي أو فيما سبق قبل الآن ،يجب أن نضرب صفحاً عن لانهاية الزمان لان لا نهاية الفضاء موجودة في هذه اللحظة، فأي شيء فيها يستلزم ان الأرض مكررة في مكان غير مكانها الذي هي فيه ؟ لا شيء ! وإذا لم يكن إنسانٌ مكرراً على هذه الأرض بعينها فلماذا نفرض ان كل إنسان مكرر في أرض تشبهها تمام الشبه في هذا الفضاء السحيق ؟

* * *

ثم إلى أين ننتهي من كل ذاك ؟ ننتهي إلى ان الاستاذ الزهاوي صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع ، وأنه يصيب في تفكيره ما طرق من المسائل التي يجتزأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر إلى البديهة والشعور ، فمن ينشده فلينشد عالماً ينظم أو يجنح إلى الفلسفة فهو قمين باصغاء إليه وإقبال عليه في هذا المجال ، وإن خير مكان له هو بين رجال العلوم ورادة القضايا المنطقية . فهو لا يبلغ بين الفلاسفة والشعراء مثل ذلك المكان(١) .

* * *

عقب مقال العقاد هذا خرج الزهاوي برده على ما جاء فيه على صفحات « السياسة الاسبوعية » لسان حال الاحرار الدستوريين بمصر.

ولم يدع العقاد رد الزهاوي يمر دون أن يعقب عليه فكتب مقالاً بعنوان « العقل والعاطفة ... حول رد الاستاذ الزهاوي » . وكان تاريخ نشره ٢٨

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد طبع دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٢٨٢ وما بعدها .

اكتوبر سنة ١٩٢٧ وقد انتصر العقاد في رده هذا للعاطفة التي اغفلها الزهاوي لاسيما حينما قال في رده على العقاد بالسياسة الاسبوعية :

« من طار بجناح العقل اخيراً لندبرغ وصل إلى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة فليخبرني الاستاذ إلى اين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟»

يقول العقاد في مقاله هذا :

قرأت في زميلتنا « السياسة الاسبوعية » رداً للاستاذ الزهاوي على مقال كتبته عنه مجيباً به الأديب التونسي الذي سألني إبداء رأيي فيـــه ، وكان فحوى ذلك المقال أن نصيب الاستاذ الزهاوي من الملكة العلمية أكبر وأصلح من نصيبه من الملكة الفلسفيـــة والملكة الشعرية ، ولم يرض الاستاذ عن هذا الرأي فكتب رده في السياسة الأسبوعية يناقشه ويناقض الأسباب التي بنيته عليها . فهو يحب أن يقول إنه فيلسوف وإنه شاعر لا يقل حظه من الفلسفة ومن الشعر عن حظه من الملكة العلمية . وليس يضيرني أنا أن يزيد عـــدد الفلاسفة والشعراء في الأرض واحداً أو أكثر ، فإنني لم أتكفل بهم ولا تحسب عـــلي أخطاؤهم أو يختلس مني صوابهم . ولست ممن يحبون الجدل في غير حقيقة تجلى أو رأي يستوضح ، فإن الجدل الذي يطول فيه الأخذ والرد لغير شيء من هذا هو لغو كلام وفضول بطالة . فاذا رجعت اليوم إلى الموضوع فليست رجعتي إليه لحرص على تقليل حظ الزهاوي من الفلسفة والشعر ولا لمطاولة في الجدل وإنما هي لاستخراج الحقيقة التي أردتها من رد الأستاذ نفسه وبيان المعنى الذي ذهبت اليه من طريقة الأستاذ في ملاحظة الأشياء وفهم أعمال الناس .

ليس للمجهول ولا للعاطفة حساب كبير في إدراك الأستاذ الزهاوي لأعمال الإنسان ، ولهذا هو يخطىء في تصورها والحكم عليها ومتابعتها إلى أسبابهـــا وغاياتها ، وفي رده أدلة كثيرة على حاجة الفيلسوف — فضلاً عن الشاعر — إلى حسبان ذلك الحساب ، وفهم الإنسان ومكانه في هذا الكون كما هو إنسان في

حقيقته لا يتصورة الذين يستهدون بالعقل وحده غير معتمدين على البديهة وعلى الشعور . واليك بعض هذه الأدلة مأخوذة من المقال :

(١) يقول الأستاذ الزهاوي : « من طار بجناح العقل أخيراً لندبرغ وصل إلى باريس من نيويورك في ٣٤ ساعة فليخبرني الأستاذ أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة ؟ » .

وأنا مخبره إلى أين وصل الذين طاروا بجناح العاطفة : أخبره أنهم وصلوا من نيويورك إلى باريس في ٣٤ ساعة ولعلهم يصلون غداً في أقل من هذه الساعات ، لأن لندبرغ لم يطر على المحيط الشاسع المخيف بجناح العقل بل بجناح العاطفة وحدها طار ، وعلى جناح العاطفة وحدها تلقته الجماهير التي هتفت له هتاف الحمد والإعجاب ولم يسبق لندبرغ طائر في الفضاء ولن يلحق به طائر مثله إلا كانت العاطفة هي محركه وهي جناحه وهي جزاؤه إذا نجح وعزاؤه إذا خاب ، وليس الطيران كله إلا حلماً من أحلام العواطف أجج الرغبة وألهب الخيال فجاء العقل كالخادم الأجير يحقق ما تعلقت به الأخيلة واتجهت اليه الرغبات .

وأي عقل يزين للندبرغ أن يخاطر بحياته بعد كارثة المفقودين في هذا المضمار القاتل ؟ وأي عقل يزين له أن يرفض المال الذي انثال عليه من شركات الصور وطلاب المحاضرات والمساجلات ؟ ليس العقل هو الذي أعطانا الطيارين وآلات الطيران وإنما هي دوافع الإحساس وبواعث الخيال وهي « العواطف » التي تحمل الإنسان على كل جناح إذا قعد به التفكير وحده في قرارة العجز والجمود .

ونتجاوز نحن هذا الحد إلى ما بعده فنقول إن الغربيين في هذا الزمان يسبقوننا في ميدان الكشف والاختراع لأنهم يطلبون من الحياة فوق ما نطلب لا لأنهم يحسنون ما لا نحسنه من الفهم والتفكير ، فكل مصنوع يصنعه

الغربيون نستطيع نحن الشرقيين أن نفهمه ونصنع على مثاله، ولكننا لا نستطيع البداءة لأنها وليدة البواعث وهي قاعدة عندنا ناهضة عندهم فالتفاوت بيننا وبينهم تفاوت في البواعث أي في الخلق والإحساس وليس تفاوتاً في العقل والتفكير، وطريقتنا نحن في الإحساس بالأمور هي التي ينبغي أن يتناولها الاصلاح وليست طريقتنا في فهم ما يحتاج إلى الفهم والتحصيل.

* * *

(٢) ويقول الأستاذ الزهاوي: «أنا مادي لا أرى لغير الحواس أبواباً للمعرفة مستثنياً من ذلك معرفة ذاتي، ولا آذن للخيال أو العاطفة أن يلجا باب الشعر إلا إذا اطمأننت إلى أنهما لا يفسدان وجه الحقيقة التى ما زلت أتغنى بها في شعري».

أما الذي أقوله أنا فهو أن الحياة هي خلقت الحواس وهي صقلتها وهذبتها وألهمتها أن تعي ما يتصل بها، وان الحياة لم تعلن إفلاسها بعد خلق الحواس ولا قبله. هي شيء أكبر من الحواس وهي على اتصال وثيق لا انفصام له بهذا الوجود قبل أن تفتح بينها وبينه نوافذ الآناف والأذواق والأسماع والأبصار. وأن الحواس تتفاضل بقدر ما فيها من الشعور والاستمداد من باطن النفس لا من ظواهر الأشياء. فالدنيا لا تتغير ولكن نظر الشاب إليها غير نظر الشيخ وإحساسه بها على الجملة غير إحساسه، لماذا؟ لأن الحواس تستمد شعورها من القوة الحية التي خلقتها ونوعتها وهي قادرة على تغيير الخلق والتنويع وليس بالمنطق الصحيح ذلك المنطق الذي يجهل ان الوظيفة تسبق العضو، وان القوة الحية تنشىء الحاسة وتزيدها وتهديها. فهذه القوة الحية تدرك ما هي فيه وان اختلف اسلوب إدراكها عن اسلوب الحواس في الإدراك، بل لولا هذه القوة الخالقة لما عملت حاسة في الجسم شيئاً، فلتكن للحواس إذن معرفتها المحدودة التي نعهدها في العلوم والصناعات، ولكن لا يغرب عنا أبداً ان وراء هذه الحواس

ينبوعاً لا ينفد من وسائل الإدراك ، وان كان إدراكاً لا حد له من الصيغ والتعريفات .

* * *

(٣) ويقول الأستاذ الزهاوي : « لو جعلنا الخيال والبداهة في المنزلة التي يضعها فيها الأستاذ الفيلسوف لوجب ان يكون الإنسان الابتدائي بل الحيوان أكبر فلاسفة الأرض لولا ما ينقصهما من البصيرة والحساب . اما الذي أعرفه أنا في الفيلسوف فهو تحريه للحقائق المستورة عن الأكثرين بنظره النافذ ليكشف أسرار الطبيعة ويستفيد من نواميسها ويفيد غيره . وما الفيلسوف ذاك الذي يرضي عواطفه وإلا كانت الحيوانات كلها فلاسفة كما سبق وكم جرح دارون الشهير عواطف الناس بنظريته في نشوء الإنسان من الحيوان ، وكم خالفه أهلها وكم مقتوه وعادوه وسبوه لأنه خالف عواطفهم ، ولكن في النهاية كان هو الفيلسوف ومعارضوه بقوا ذوي عواطف لا غير » .

هذا الذي يقوله الأستاذ الزهاوي !! ويدهشني منه أنه يتكلم عن العاطفة كما يتكلم عنها المغنون و « أولاد البلد » حين يتشاكون جرح العواطف ويتناشدون رعاية الإحساس ! فهم إذا قالوا : « فلان صاحب عواطف قصدوا بهذه الصفة انه لا يجرح عواطف الآخرين وأنه « حسيس » بالمعنى الذي يفهمونه ! وليس هذا ما نريد ، لأن العواطف قد تجرح العواطف كما تبقي عليها . فالحب عاطفة ولكنه يجرح نفوساً كثيرة ، والغضب والإعجاب والحماسة والغيرة عواطف كلها ولكنها قد تجرح من النفوس اكثر مما تواسيه ، وليس تقسيمنا الناس إلى اصحاب عقول واصحاب عواطف تقسيما لهم الى من يجرحون نفوس الآخرين ومن لا يجرحونها فان اصحاب العقول ربما عرفوا كيف يسوسون الناس فلا يغضبونهم فكانوا بذلك اقمن ألا « يجرحوا العواطف » بلغة المغنين و « أولاد البلد » المتظرفين .

وأدعى من هذا الى الدهشة أن يقول الأستاذ إن نصيب الحيوان والإنسان الأول من الخيال والبديهة أكبر من نصيب الإنسان الأخير . فالحقيقة ان الحيوان لا خيال له ولا بديهة وأن الإنسان الأول أقل نصيبا من الإنسان الأخير في هاتين الملكتين . وليس نصيبنا نحن من الفهم ما نعلم اننا نفهمه ، بل نحن نفهم اشياء شتى بالبديهة وبالخيال ولا نعلم بها وهي تعمل عملها في الإحساس والتفكير .

ولقد ذكر الأستاذ اسم دارون صاحب النشوء والارتقاء . فهل له أن يذكر أيضا ان الخيال كان اصدق من العقل ألوفا من السنين حين كان العقل يجزم بقيام كل نوع على انفراده وكان الخيال يقص علينا قصة ويجزم لنا بتقارب الأنواع وتلاقح الإنسان والحيوان ! نعم ان الخيال لم يفصل لنا « النظرية » العلمية لأن له شأنا غير هذا الشأن . ولكن ألم يعم العقل عن تلك النظرية كل العمى يوم أن كان الخيال يرسمها محرفة بعض التحريف من وراء الظلال والرموز؟ وهل للاستاذ أن يذكر أيضا أن دارون ما كان لينفذ بفطنته إلى تقارب الأنواع لولا روح العطف الذي كان يحس به خوالج الحيوان وتعبيراتها على الوجوه والأعضاء ؟ يمكن أن يؤلف كتاب التعبيرات الحيوانية ودلالاتها رجل لا يخالطه العطف العميق ولا يسري بينه وبين الأحياء سيال من الاحساس الدقيق؟ وما هو نصيب العقل بعد كل هذا في مذهب النشوء والارتقاء ؟ ما كان له من نصيب إلا ان يصحح أخطاءه هو لا أخطا الخيال ولا أخطاء الإحساس . فالحقائق التي استند إليها النشوئيون قائمة منذ الأبد والعقل هو الذي كان يداريها أو يضلل فيها الخيال والإحساس .

ويسألني الأستاذ : « لا أدري أي مناسبة للعاطفة بالمنطق »؟ وهذا الذي أقوله أنا .. وأقول معه إن مناسبة العاطفة أنها هي شيء موجود لا يصح المنطق إلا إذا حسب له حسابه ، فأي منطق يحق له أن يقول عن عمل من أعمال الناس

ينبغي ان يكون هكذا أو لا ينبغي أن يكون كذلك إن لم يكن يحسّ العاطفة الإنسانية ويستكنه مضامينها ويقيم لها وزنها؟ إن الأستاذ ينبئنا أن العقل أسعد الإنسان بالعلم فما هي السعادة .. ! إن لم تكن عاطفة فهي لا شيء ، وإن لم يكن العلم علم إنسان « عاطف » فلا حاجة به لإنسان .

* * *

نود أن يتأكد هذا في العقول لأننا على مرحلة يجهل فيها الشرقيون ما ينقصهم ، فيجب أن يعلموا أن الذي ينقصهم هو « الإحساس القويم » وأن سبيل خلاصهم هو سبيل العاطفة الحية والشعور الصادق الجميل . وأما نظرية الدور والتسلسل فهي لا تعنينا في هذا الصدد ، ولكني أرجو الأستاذ الزهاوي ان يسأل نفسه هذه الأسئلة وهي :

(١) ألا يمكن أن نقول إن عدد « الأشكال » لا نهاية له بنفس المعنى الذي نريده حين نقول إن عدد الأجرام والجواهر لا نهاية له في هذا الفضاء الذي لا يتناهى ؟

(٢) لماذا نشترط البعد في الزمان والمكان لظهور الشخصين المتماثلين كل التماثل؟ لماذا يتحتم أن يكون أحدهما في هذا الزمن والآخر على مسافة ملايين السنين أو ملايين الاميال؟ إن المقتضي للتماثل هو أن الاشكال تتناهى والجواهر لا تتناهى في قول أصحاب الدور والتسلسل . حسن ، فلا داعي إذن لاشتراط التباعد بين الشخصين المتماثلين في الزمان والمكان، بل يجب أن نرى اناسا كثيرين يتماثلون على سطح هذه الأرض في المدينة الواحدة وفي الوقت الواحد ، وإلا كان رأي أصحاب الدور والتسلسل باطلا يستند إلى دليل مشكوك فيه. أم تراهم يشترطون التباعد ليقولوا لنا إذا أنكرنا دعواهم : إذهبوا فطوفوا الفضاء الذي لاحد له ، وجوسوا في جوانب الزمان الذي لا بداية له ولا نهاية فإن لم تجدوا أناسا يتماثلون وأجراما تتماثل فنحن إذاً المخطئون وأنتم المصيبون ، وإن وجدتم فعودوا إلينا

إذن بالنبأ اليقين ؟ !

إن اللحظة الحاضرة من الزمان تشمل أشياء مختلفة مضت عليها أزمنة مختلفة وأوضاع مختلفة ، فهي بهذه المثابة ككل لحظة من الماضي أو المستقبل ، وأن هذا الوضع من المكان هو ككل موضع غيره في اقتضاء التماثل إن كان له اقتضاء ؛ فإذا وجب أن نرى شخصين أو أكثر من شخصين يتماثلون كل التماثل على كوكبين بعيدين في زمنين بعيدين فيجب لهذا السبب عينه — ألا يمتنع ظهور مثل هذين الشخصين في هذا المكان في الزمن الحاضر . وإلا فما هو المانع إن كان أصحاب الدور والتسلسل يمنعونه فيما يزعمون ؟

نرجو الاستاذ أن يسأل نفسه هذه الاسئلة ونحن نرجح أنه لا يجيب عنها أجوبة يسهل التوفيق بينها وبين القول بالدور والتسلسل ، وليعلم حفظه الله أنني لا أجد عزاء لنفسي في تكرار «العقاد» إلى غير نهاية بين أجواز الفضاء وأبديات الزمان ، فإذا ثبت له ثبوت اليقين أن في هذه اللحظة عقادين لاعداد لهم يكتبون مقالاتهم في بلاغاتهم الاسبوعية التي تصدر في قواهرهم وافريقاتهم للرد على الزهاويين الذين لا أول لهم يعرف ولا آخر لهم يوصف فرجائي إليه أن يكتم عني هذه الحقيقة فما في علمها إلا الشقاء بتضاعف الأشغال وتراكم الأعمال ، وما في ذلك ترفيه ولا عزاء .. ! »[1]

ثم تابع العقاد تعقيباته على الزهاوي فنشر مقالا ثانيا جعل عنوانه « قصة العقل والعاطفة » .

يقول العقاد :

« حكي أنه كان في بلد من البلدان في زمن من الأزمان رجل حكيم يوصف بالشعر والفلسفة معا ويأبى إلا أن يكون عالما وشاعراً وفيلسوفا في نفس واحد ،

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٣١٨ وما بعدها .

وكان يقال لذلك الحكيم: ما ملكة يحتاج إليها العالم دون الشاعر والفيلسوف؟ فيقول العقل .. ثم يقال له: ما ملكة يحتاج إليها الشاعر دون العالم والفيلسوف! فيقول العقل! ثم يقال له: ما ملكة يحتاج إليها الفيلسوف دون الشاعر والعالم! فيقول: العقل! وهكذا يرى الذي يسأله أن العلم والشعر والفلسفة شيء واحد وأن هذه الاوصاف ليست إلا اختلافا في اللفظ كاختلاف المترادفات في نطق اللسان!

وقيل له مرة: إن الاختراعات المبتكرة والعلوم الحديثة إنما ظهرت وتفشت في القرنين الأخيرين، وإنه لم يسبق لعصر في التاريخ أن كثرت فيه المخترعات كثرتها في هذين القرنين فما تعليل ذلك في رأي الحكيم العليم؟ فكان يقول والعهدة على الراوين: إن الناس كثرت اختراعاتهم في القرنين الاخيرين ولم تكثر في القرون الاولى — لان العقل خُلق لهم فجأة سنة سبعمائة وألف بعد الميلاد، ولم يكن في رؤوسهم قبل ذلك عقل ولا معقول ... فأثنوا عليه ودعوا له بالإفادة والزيادة.

وقيل له مرة: إن شكسبير كان شاعراً عظيما فكيف كان كذلك؟ فقال لانه كان عاقلا. فعجبوا من سعة العلم الذي يجمع بين الضدين النقيضين، وقالوا في لهجة التأمين والتسليم: يفتح الله على من يشاء كيف يشاء.

وقيلت له أشياء كثيرة من قبيل هذه الاشياء فكان يجيب عليها أجوبة كثيرة من قبيل هذه الاجوبة، وكان عن علمه وفلسفته وشعره جد راض وكانوا هم عن كل ما أوحي إليهم من العلم والفلسفة والشعر جد راضين.

* * *

أيها القارىء! لو أن راويا قص عليك القصة التي قدمناها لك لغلب على ظنك أن الفيلسوف المزعوم واحد من أولئك الاسطوريين الذين يتحدثون عنهم كما يتحدثون عن آلهة اليونان وربات الخيال وأبطال خرافة وأحياء ايثوب،

ولكنك إذا علمت أنه حقيقة من حقائق الحياة وأنه يعيش في هذا الزمان ويقول هذا الكلام ويجادل من يناقضه فيه أحر الجدال فلا ريب أنك تحسبه خبراً جديراً بالقصص وأعجوبة خليقة بالإظهار .

ومن شك في هذا الخبر أو من استعجب هذه الاعجوبة فليبين لنا ماذا يقول الاستاذ جميل صدقي الزهاوي في مقالاته التي يردّ بها علينا إن لم يكن يقول إن العالم كالشاعر وإن كليهما كالفيلسوف وإن كل ما يحتاج إليه هذا أو ذاك أو ذلك ملكة تعليل وسليقة تحليل لا يتطرق إليها خيال ولا تصغي إلى بديهة ولا ترجع إلا إلى المنظار والمشرط والإنبيق ؟ وماذا يقول الاستاذ إن لم يكن يقول إنه لا يحتاج في شعره إلى غير ملكات التعليل والتحليل وإنه مع ذلك شاعر إن شاء حينا وعالم إن شاء أحيانا وفيلسوف إن شاء في كل حين ، إن كان يقول إنه شاعر بفضل ملكة أخرى غير التعليل والتحليل فليبين ما اسم تلك الملكة وما مكانها في بيت واحد من شعره الكثير ! وإن كان يقول إنه شاعر أو فيلسوف بفضل ملكة التعليل والتحيلل دون غيرها فليبين لنا إذن ما الفرق عنده بين الشاعر والعالم وما الفرق عنده بين أحدهما والفيلسوف !

* * *

لقد أسلفت للأستاذ أنني لا أُعنى بإنكار فلسفته أو شعره ولكن أُعنى بتقرير حقيقة يكاد لا يعوزها الدليل وإن كانت محلاً للشك في رأي بعض الكتاب والدعاة — وتلك الحقيقة هي أن الإنسان لا يحيا بالعقل وحده ولا يفهم بالعقل وحده ، ولكنه يحيا بالحياة التي هي مجموعة من الحس والغريزة والعطف والبداهة والخيال والتفكير ، وكذلك يفهم بالحياة التي هي مجموعة من هذه الملكات كيفما تعددت فيها التسمية والتقسيم . فأنت إذا أردت أن « تفهم » إنسانا فليست كل وسائلك إلى فهمه أن تسلط عليه ملكة التعليل والتحليل ، بل أنت مشترك في فهمه بخيالك وحسك وغريزتك وتفكيرك وعطفك وجميع

أجزاء حياتك ، وشأنك في فهم الكون كشأنك في فهم الإنسان أو فهم أي شيء من الأشياء وخاطرة من الخواطر فقولك « تفهمها » مرادف لقولك تحسها وتتخيلها وتشملها بعاطفتك وبديهتك وفكرك ، ولان تحس ما ينبغي لك عمله دون أن تقوى على تعليل ذلك خير لك وألف خير من أن تعلل وتحلل وأنت عاجز عن العمل والإحساس .

يقول الاستاذ الزهاوي: « قد كانت للفرنسيين والالمان والإنجليز من الامم عواطفهم ألف عام فلم يكتشفوا أو يخترعوا يومئذ شيئا يذكر بل كان العرب في ذلك العصر سباقين إلى الاكتشاف أكثر منهم ، وليس ما قدم الاغريق في يوم ازدهار الحضارة والحكمة عندهم هو عواطفهم وما أخر غيرهم من الامم المعاصرة لهم هو عقلهم بل الذي قدم أولئك هو حرية الفكر وحرية القول والكتابة وكثرة المتضلعين من العلوم فيهم وعدمهما أو قلتهما عند هؤلاء يومئذ، ولا حاجة بنا إلى الرجوع إلى العصور الخالية فإن اليابان لم تتغير عواطفهم في مدة الخمسين سنة الاخيرة وهم اليوم يكتشفون ويخترعون ، ذلك لان المتعلمين فيهم اليوم يعدون بالملايين فلا غرو أن ظهر بينهم عدد غير قليل من المكتشفين والمخترعين » .

كذلك يقول الاستاذ فما أعجب أن يكون هذا دليله على مايزعم وحجته على بطلان ما نقول ، اليابان والصين — مثلاً — كانوا معا جهلاء جامدين فتقدمت اليابان وعلمت وظلت الصين في ربقة الجهل والجمود ، كيف كان ذلك؟ كان بالعلم ! وكيف كان العلم أيضا ؟ كان بالعلم ... ! فاليابان إذن كانت عالمة قبل أن تتعلم وناشطة من الجمود قبل أن تنشط من الجمود ! فما أصح هذا العقل وما أعجب هذا التدليل .. لو أننا قلنا إن البواعث النفسية تغيرت في اليابان فطلبت العلم ولم تتغير في الصين فظلت على جهلها لما كان هذا عجيبا في رأي المنطق ولا في رأي الإحساس والخيال ، أما أن نقول إن الناس تخلق لهم

عقول فجأة فيفهمون بها ما لم يكونوا يفهمون فهذا هو النبأ العجيب واللغز المريب والقول الذي لا يسلمه جاهل ولا لبيب .

ونذكر العرب كما ذكرهم الاستاذ فنقول انهم كانوا — كما قال الاستاذ — سباقين إلى العلم أكثر من الاوربيين ثم ركدت حركتهم وتقدم هؤلاء ، فلماذا كان هذا ؟ أين ذهبت العلوم والمعلومات والعقول والمعقولات ؟ أأصبحوا ذات نهار فإذا بالعلوم والعقول قد شدت رحالها في ظلام الليل فإذا هم يجهلون ما كانوا يعلمون وينسون ما كانوا يذكرون ! لا نظن الاستاذ يزعم هذا ، وإنما كانت هناك بواعث نفسية ثم هجعت وداخلها الفساد فلم ينفعهم العلم ولم يصلحهم التفكير ، وهذه البواعث النفسية هي التي تغيرت أيضا حين تبدلت حالة العرب من الجاهلية إلى الفتح والغلبة والحضارة ، وهي التي تغيرت أيضا حين تبدلت حالة العرب من السبق إلى التخلف ومن الابتكار إلى المحاكاة ، وقل مثل ذلك في الفرنسيين والالمان والانجليز من الامم قبل ألف عام وفيما هم عليه في هذه الايام ، فليس الفرق بين الامم الفتية والشائخة فرقا في العقل والتفكير ، إذ ربما كانت الامم الشائخة الهاوية أظهر تفكيراً وعقلاً من الامم الفتية الناهضة ، ولكنه هو الفرق في العواطف والبواعث النفسية وسائر ما ينتظم تحت كلمة الحياة ، وهذا الفرق هو الذي يميز بين الشعوب المتحضرة على اشتراكها في حصة العلم والاختراع فإن شعوب أوربا وأمريكا تتقاسم حصة العلوم الحديثة وميراث الحضارة والصناعة ولكنها ليست شرعا في التفوق والسيادة لانها ليست بشرع في العاطفة والحس والخيال ، وعلينا نحن أن نفهم هذا جيد الفهم فلا نبخس حق الفنون والاذواق والآداب كما يفعل المتعجلون منا ولا ننطلق مع أولئك الدعاة الذين يهتفون باسم العلم وهم يجهلون مكانه من حياة الاقدمين والمحدثين .

* * *

وأرى أن إيمان الاستاذ بالرجعة والدور والتسلسل قد تزعزع بعد مناقشتنا إياه في مقدماته وأسبابه ، فهو اليوم يشترط أن تظل مجاميع الكواكب منقسمة «في هذا الفضاء غير المتناهي إلى أجرام قد تباعد بعضها عن بعض فكان بينها مسافات شاسعة» ليجوز له أن يقول إن الاشكال متناهية وأنها لا بد على هذا أن تعود إلى ما كانت عليه كرة أخرى ، وليس أمام الاستاذ إلا خطوة أخرى لينكر الدور والتسلسل كما ننكره نحن ويكفر بدين لا يجدي على المؤمن به غير تكرار البلاء الذي نفر منه إلى الإيمان ، فإن أمامه أن يقول إن الجماهير لا يمنعها مانع أن تأبق من مجموعة الى مجموعة أخرى في الفضاء فتتغير عدد الجواهر وتتغير الأشكال ولا تعود الجواهر إلى أشكالها في حاضر ولا ماض — وهو سواء أقال ذلك أم لم يقله غير مستطيع أن يحجر على الجواهر أبداً أن تنتقل من مجموعة إلى مجموعة في طويل الآباد والأبعاد .

* * *

وبعد فما بال الأستاذ يدافع عن نظرية الدور والتسلسل كأنها نظريته التي استنبطها ولم يسبق إليها ؟ ألا يعلم أن الرجعة مذهب من مذاهب الهند الأقدمين ؟ بل ألا يعلم أن نيتشه قال بها في هذا العصر وتطرف فيها كما تطرف هو ، فانتظر أن يؤوب إلى الارض هومز والمسيح ونيتشه وكل حي وكل موجرد ؟ « فكل شيء يذهب وكل شيء يعود ودولاب الوجود أبداً يدور ، وكل شيء يموت وكل شيء يزهر كرة أخرى وفصول الوجود أبداً في تكرير ، وكل شيء يتحطم وكل شيء يلتئم وبيت الوجود أبداً يبني نفسه من جديد ، وكل شيء ينفصل وكل شيء يرجع إلى اللقاء وحلقة الوجود أبداً على عهدها المعهود » هكذا يقول زرادشت أو هكذا يقول نيتشه في أسلوب الانبياء والكهان .

ولم يكن نيتشه في حاجة إلى كبير عقل ليهتدي إلى نظرية الدور والتسلسل ،

فالاستاذ يعلم أنه كان عبقريا ملتاث الفكر وربما علم أنه كان على وشك الجنون يوم اهتدى إلى هذه النظرية التي لا تستريح إليها العقول ، بارك الله في عقل الاستاذ وصرف عنه السوء وأكثر من أمثاله وإن كان هو يزعم أن أمثاله كثيرون يعدون بالملايين في عوالم هذا الفضاء[1] » .

تابع قراء العقاد مساجلاته مع الزهاوي .. تلك المساجلات التي احتدم النقاش حولها بين الشاعرين الكبيرين وكادت المعركة أن تنهى كما انتهت كل المعارك التي خاضها العقاد بقلمه الجبار لولا أن وصلت للعقاد بعد شهور رسالة من أحد قرائه بالعراق ، يقول له فيها أن مجلة « لغة العرب » التي يصدرها « الأب أنستاس الكرملي » قد نشرت ثماني صفحات تهاجم فيها ديوان العقاد الذي أصدره مؤخراً ، وأنهناك من يعتقد أن ما كتب من نقد عنيف للديوان ، لم يكن من وحي « الأب الكرملي » صاحب « لغة العرب » بل من وحي وبقلم الزهاوي .

وكان لابد أن يرد العقاد كعادته بما يتناسب مع ما ورد في ذلك المقال من نقد خاطىء ، وتهجم مرير ، منهياً رده بقوله :

« إن الرجل – يقصد الكرملي – لعدو نفسه ، ولو لم يكن عدواً لها لما تورط بها في نقد يكشف للناس حقيقة منه لعلها كانت خافية عليهم وستظل خافية إلى زمن بعيد ، فقد أعلمهم من حيث لا يعلم انه جاهل بالنحو على هذا الجهل المعيب بعد اشتغاله به سنين عدة ، وانها لفضيحة منكرة ما كان أغناه عنها لولا التجهم والادعاء » .

ونضيف للقارىء أن ذلك المقال الذي نشر « بلغة العرب » لم يكن موقعاً عليه من كاتبه . فما كان من العقاد إلا اسناده إلى صاحب المجلة المكتوب اسمه على غلافها وذلك لأن النقد هو الذي يعنيه – على حد قوله – وليس الكاتب

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي ببيروت صفحة ٣٤٢ وما بعدها.

ولا من أوعز إليه ، ويقول العقاد :

« وقد صدر النقد في مجلة لم تنسبه إلى أحد فهو لها إذن راضية عنه موافقة عليه » .

يقول العقاد في رده الذي جعل له عنوانا « نقد غريب » ما يلي :

نقد غريب

« جاءتني رسالة من بغداد بتوقيع (أكرم أحمد) يقول فيها إن إناساً في المدينة يمشون بالدسيسة بيني وبين الأستاذ الزهاوي من جديد ، لأنهم كتبوا إلي يزعمون أن ما نشرته «لغة العرب» في نقد ديواني إنما كتبه الأستاذ الزهاوي انتقاماً لنفسه مما كتبته عنه في البلاغ الأسبوعي قبل أشهر .. ويقول صاحب الرسالة إنهم كاذبون فيما زعموا وإن الأب انستاس الكرملي صاحب « لغة العرب » ليس بالرجل الذي يدعي لنفسه كلام الآخرين . وأن أناساً اقترحوا على الأستاذ الزهاوي أن ينقد ديواني فأبى مخافة أن يجيء نقده على غير ما يريد من النزاهة والإنصاف . فحبذا لو أعرضت عن هذه الوشايات وقابلتها بفصل أو فصول أكتبها عن « اللباب » ديوان الزهاوي الجديد ويتبعها الزهاوي بفصول يكتبها عن ديواني فينقطع بذلك القال والقيل ، ولأكن البادىء بالكتابة عن اللباب لأنني أنا البادىء بالتحامل على صاحب اللباب كما يقول كاتب الرسالة الأديب .

هذه خلاصة الرسالة التي جاءتني من بغداد ولم أكن قد اطلعت على « لغة العرب » ولا رأيت عـدداً من أعدادها إلى ذلك الحـين ، فبعثت في طلبها ممن عسى أن ترد إليه فإذا هي مجلة تطبع بالحرف الدقيق وإذا فيها فصل يقع في زهاء ثماني صفحات نقداً لديواني مستهلاً بهذه العبارة : « الأستاذ العقاد كاتب كبير ، و كنا نعتقد أنه كذلك شاعر كبير حتى جاءنا ديوانه الجديد حافلاً بما نظمه قديماً وحديثاً ، فإذا هو دون ما أكبره تصورنا وإذا هو مشحون

بالأغلاط والضرورات القبيحة ، وإذا هو قبر للألفاظ الميتة دارس فيه كثير من العظام البالية ، وإذا هو تافه المعاني في الأكثر ، وإذا هو في كثير من قصيده يخرج عن الموضوع فلا تبقى فيه الوحدة المتوخاة منه ، وإذا هو يبالغ أو يغرق في كثير من أبياته . وإذا هو يقلد القدماء فليس فيه ما يمت إلى الشعور بواشجة إلا أبياتاً قليلة متفرقة هنا وهناك . وكنا نراه قبل نشره ديوانه يطعن في مواهب كبار الشعراء بل كان ينال من كل شاعر عربي تقريباً مصرياً كان أو شامياً أو عراقياً ؛ فما كنا نفهم علة ذلك بعد سكوته الطويل عن الشعر والشعراء حتى ظهر ديوانه العجيب فأدركنا السر إلخ . إلخ » .

هذه غريبة في النقد النزيه . ! وليس من شأني أنا أن أُعزو هذا الكلام إلى أحد غير صاحب المجلة المكتوب اسمه على غلافها ، فإن النقد هو الذي يعنيني وليس الكاتب ولا من أوعز إليه ، وقد صدر النقد في مجلة لم تنسبه إلى أَحد فهو لها إذا وهي راضية عنه موافقة عليه . غير أني أَعجب والله لصدور نقد كهذا من مجلة يقال عن صاحبها إنه كثير الاشتغال بالعربية واسع الاطلاع على قواعدها النحوية والصرفية ، فإن في نقده لغلطاً لا يقع فيه من له إلمام بهذه القواعد واطلاع عليها ولو كاطلاع التلاميذ المبتدئين . ولست أَعرف معرفة اليقين ما الأب « انستاس ماري الكرملي » صاحب المجلة المكتوب اسمه على غلافها ، ولكنني كنت سمعت من صاحب لي أديب أنه راهب أَدمن الأشتغال باللغة العربية حتى تريب رؤساؤه به لهذا فنفوه إلى دير ينقطع فيه عن خدمة هذه اللغة زمناً لا أدري ما قدره . فإن صح ما رواه صاحبي الأديب فهم قد أَطلقوه الآن لأنهم رجعوا إلى الصواب في أمره وعرفوا أَن البلية على اللغة العربية في اشتغاله بها لا في انصرافه عنها وتركها وشأنها .

وقد يلذ القراء أَن يروا مبلغ علم « اللغويين » الذين يتفيهقون باللغة حين يتصدون لنقد أَحد من كتاب الجديد أَو شعرائه ! يتهجمون في التخطئة بغير روية فيجردون أَنفسهم من كل شيء حتى النحو والصرف وسائر القواعد التي

يظن الناس بهم علمها إذا استكثروا عليهم علم ما وراءها مما يحتاج إلى نفاذ البصيرة وذكاء الفطنة . ولا ضير علينا أن نسقط دعواهم هذه ونكشف عن جهلهم بما يدعون لأننا قلنا كثيراً إن هؤلاء الذين يهتفون باسم العربية هم أضعف الناس وجهاً في إدعاء الغيرة عليها وأجهلهم بآدابها وأسرار قواعدها وسنبدأ بالنقد اللغوي لأنه النقد الذي إذا قرأه بعض الناس في مجلة « كلغة العرب » خيل إليهم أنه صادر من معدنه أو ممن يملك الكلام في موضوعه ، أما النقد المعنوي فقد نهمله وقد نعود إليه للتفكهة وضرب الأمثال بهذه العجائب والمضحكات .

نقدت المجلة أول بيت في الديوان وهو :

قطب السفين وقبلة الربان   يا ليت نورك نافع وجداني

فقالت : « إن كان يريد فرضة خاصة فهذه ليست قطب جميع السفن وقبلة كل ربان كما يفهم من الإطلاق » .

وأنا بعد أن أعجب عجبي من هذه اللوذعية التي لا تريد أن تترك بيتاً واحداً في مطلع الديوان بغير نقد وتخطئة ، أسأل صاحب لغة العرب : من الذي قال إن الفرضة من الفرض يجب أن تدخلها كل سفينة في الأرض ليصح أن يقال فيها إنها قطب السفين ؟ ! أو ما كشفت يا مولانا عن تفسيرها في معجم بين يديك ؟ فقد تجد تفسيرها في كل معجم أنها هي مكان ترسو فيه « السفن » بالألف واللام ... ولم تخطىء المعاجم في هذا ولا يفهم منه بالبداهة أن كل فرضة يجب أن تدخلها كل سفينة حتى تسمى فرضة . ونحن نقول إن الكعبة مكان يحج إليه المسلمون وإن بيت المقدس مكان يحج إليه النصارى وليس كل المسلمين يحجون إلى الكعبة ولا كل النصارى يحجون إلى بيت المقدس ! فأين الخطأ في البيت ؟ وأين الفهم لمعنى أل في أوائل الأسماء ؟

وتنقد (لغة العرب) قولي :

يزجى منارك بالضياء كأنه   أرق يقلب مقلتي ولهان

لأن « يزجى » يتعدى بنفسه لا بالباء . !

وأنا لا أجهل أن « يزجى » يتعدى بنفسه وكان يجب على الناقد أن يعلم ذلك لأنه نقل لي بيتاً آخر أقول فيه :

وإن شئت أزجيت الجبان فأقدما   ووسوست في قلب الجريء فأحجما

ولكن صاحب لغة العرب هو الذي جهل ونسي لأنه لم يراجع باب التضمين من كتب النحو على ما يظهر فغاب عنه أن « يزجى » هنا مضمنة معنى « يدفع » وأنه كما يصح أن يقال دفعه ودفع به يصح كذلك على هذا النحو أن يقال أزجاه وأزجى به ، فإن أنكر الأب التضمين فليقل لنا ذلك لنملي عليه من أوجز الكتب في لغة العرب درساً تحتاج إليه « لغة العرب » في هذا الزمن العجيب !

وتقول المجلة : « ثم قال :

أمسيت أحداق السفائن شرع   صور إليك من البحار روان

ولو نصب شرع على الحالية لخلا البيت من تتابع الأخبار » .

لا يا مولانا هداك الله وعلمك العربية وعلمك قدر نفسك . إن مجيء الحال من المبتدأ لا يجوز إلا في أضعف الأقوال ، فتكرار الأخبار لو كان محظوراً لكان أهون من المجيء بالحال على وضع ينكره جلة النحاة . فكيف وتتابع الأخبار لا حظر عليه ولا منافاة للفصاحة؟ أليس القرآن يقول : « هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ؟ » أليس القرآن يقول : « وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد ؟ » فإن لم تؤمن بتنزيل القرآن من السماء فلتؤمن بأنه كتاب عربي مبين يستشهد به حين لا يستشهد بكلامك السقيم .

وتقول المجلة : « قال :

يشكو من الدنيا الألى لولاهم   ما كانت الدنيا تحب وترغب

ورغب فعل لازم لا يبنى منه المجهول إلا بحرف الجر ورغب لا يحذف

منه حرف الجر لأنه يتعدى بحرفين مختلفين « فيه وعنه » ويختلف معناه بموجبهما » .

لا يا مولانا : إن حرف الجرف يحذف من رغب ومشتقاتها كما جاء في القرآن « وترغبون أن تنكحوهن » وكما جاء في الشعر الذي استشهد به ابن هشام :

ويرغب أن يبني المعالي خالد ويرغب أن يرضى صنيع الألائم

وكما جاء في قول يونس حين سئل عن الشعراء : « امرؤ القيس إذا غضب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب » وكما جاء في قول الشريف :

طواك إلى غيرك المعتفي وجاوز أبوابك الراغب

وكما جاء في قول البحتري :

تولته أسرار الصدور وأقبلت إليه القلوب من محب وراغب

وكما يعلم الأب لو أنه يقرأ كتب النحو فضلاً عن الدواوين وأقوال الأدباء .

وانتقد الأب قولي : « عسوفاً إذا ما الخوف قد كان أحزماً » لأن الشرط والتحقيق لا يجتمعان ! فنحن نقول له أصبت يا مولانا لولا أن « إذا » تستعمل للشرط في حالة التحقيق بخلاف « إن » التي تستعمل للشرط في حالة التشكيك .

وتزعم المجلة أن قولنا « ألا ولنفرق والداً عن وليده » غير فصيح لأن اللام لأمر الغائب فلا يدخلها الفصحاء على المخاطب ... وحسبنا نحن أن نقول له إن النحاة لم يجدوا لهم سنداً أفصح من قول الشاعر :

إذا جن جنح الليل فلتأت ولتكن خطاك خفافاً إن حراسنا أسداً

ليستدلوا به على جواز نصب خبر « إن » ... وحسبنا أن نورد له أن القرآن الكريم يقول في قراءة أبي : « فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون » .

وأخذت علي المجلة قولي :

دهر بدور صباحه ومساؤه   متعاقبان على مدى الأيام

قالت : والأولى جعل « صباحه » فاعلاً ليدور ونصب « متعاقبان » على الحالية . ونحن نقول ليس هذا هو الأولى، بل الأولى ما ذكرناه إذ جعلنا صباحه مبتدأ ، فما دليلك أصلح الله حالك يا هذا المغرم المعني بالأحوال ؟ !

وخطأتنا « لغة العرب » لأننا نقول :

يرفلن في الحسن القشيب كأنما   ألبسنه يبقى على الأعوام

لأن الصواب في رأيها أن نقول « كأن ما » ليعود ضمير يبقى إلى « ما » فهل رأى القراء « عالماً » باللغة العربية يجهل « ما » بعد « كأن » تكون كافة عن العمل ولا تكون موصولة في حيثما ترد ؟

وخطأتنا لغة العرب أيضاً في قولنا :

وتسلبني نوراً أراك بوحيه   فأظهر ما أخفى سواد الدياجر

لأن الصواب في رأيها أن نقول « كنت أراك بوحيه » ... فهل يدري أحد لماذا أجاز لنا صاحب لغة العرب أن نقول « تسلبني » عن الماضي ولم يجز لنا أن نقول أراك بدلاً من « كنت أراك ؟ »

وخطأتنا « لغة العرب » لأننا نقول :

يهم ويعييه النهوض فيجثم   ويعزم إلا ريشه ليس يعزم

لأن الصحيح في زعمها أن نقول :

« إلا ريشه فهو ليس يعزم أو إلا أن ريشه ليس يعزم ، فإن ريشه مستثنى منصوب فلا يصح أن يخبر عنه بقوله ليس يعزم » .

أهكذا يا عالم العربية ؟ ألا يجوز أن تكون « إلا » بمعنى لكن وأن يكون ما بعدها جملة مركبة من مبتدأ وخبر ؟ إعلم يا هذا أن هناك شيئاً يسمى الاستثناء المنقطع ، وراجع باب الاستثناء إلى آخره يفتح الله عليك الأبواب ... !

وأنكر علينا مولانا أن نقول :

لقد رنق الصرصور وهو على الثرى مكب وقد صاح القطا وهو أبكم

لأن رنق بمعنى خفق بجناحيه ورفرف ولم يطر ، لا كما شرحناه بقولنا طار طيراناً خفيفاً. فليقرأ إذن مولانا ما جاء في لسان العرب في مادة رنق حيث يقول اللسان : « الترنيق كسر الطائر جناحيه من داء أو رمي حتى يسقط وهو مرنق الجناح وأنشد « فيهوي صحيحاً أو يرنق طائره » وترنيق الطائر على وجهين: أحدهما صف جناحيه في الهواء لا يحركهما، والآخر أن يخفق بجناحيه، ومنه قول ذي الرمة :

إذا ضربتنا الريح رنق فوقنا على حد قوسينا كما خفق النسر

« ورنق الطائر رفرف فلم يسقط ولم يبرح »... هكذا يفهم العرب الترنيق فما قول « لغة العرب » لآخر الزمان في لغة العرب من أول الزمان ؟

وتقول المجلة في قولنا :

أكان للمرء أيما أرب في الصبر لولا كوارث الزمن

« ليس من الصواب جعل أيما وهي للاستفهام إسماً لكان المصدر كذلك بهمزة الاستفهام ثم إن « أي » لها صدر الكلام فلا يجوز من هذا الوجه أيضاً جعله اسماً لكان » .

هذا قول « لغة العرب ... » ونحن نسألها : ما رأي « لغة العرب » في قولنا لها : « لم نر أي خطأ فيما انتقدت ولم يزعم أي أحد ما تزعمين » . أهذا كلام صحيح أو غير صحيح ؟ فإن كان صحيحاً فلماذا لا يصح كذلك أن تكون « أي » اسماً لكان و « ما » زائدة كما قد ترد زائدة بعد « أي » في غير موضع الاستفهام ؟

وتنكر علينا المجلة قولنا « لست على الصبر مزريا » لان « أزرى » يتعدى على الفصيح بالباء .. ولم نعرف أحداً غيرها يجترىء هذا الاجتراء وينكر تعديه أزرى بعلى ، وهي في كل كتب اللغة تتعدى بها كما تتعدى بالباء

إن الرجل لعدو نفسه ، ولو لم يكن عدواً لها لما تورط بهـا في نقد يكشف للناس حقيقة منـه لعلها كانت خافية عليهم وستظل خافية إلى زمـن بعيد . فقد أعلمهم من حيث لا يعلم أنه جاهل بالنحو هـذا الجهل المعيب بعد اشتغاله به سنين عدة . وإنها لفضيحة منكرة ما كان أغناه عنها لولا التهجم والادعاء[1] » .

* * *

عقب ذلك المقـال الذي نشره العقاد بالبلاغ الاسبوعي والت المجلة نقدها وتهجمها . وهنا نرى العقاد قد تصدى لذلك النقد المتجني وغير الصحيح ، باسلوب التنديد والتفنيد الذي لا يخلو من السخرية والتهكم . ذلك الاسلوب اللاذع العنيف الذي عرف عن العقاد عندما يهاجم أو يتصدى للدفاع عن قضية حقة أو رأى صحيح .

... ولقد قيل وبحق ما معناه « ان من يظهر طرف السلاح للعقاد ، إما قاتل أو مقتول » فبعد أن يفيد العقاد ، مزاعم الناقد المتهجم مثبتاً خطأه الفاضح مورداً كل ما يمكن ايراده من شواهد من الشعر القديم والحديث ، بل ومشيراً عليه بالرجوع الى صفحات معاجم اللغة العربية وكتب النحو والصرف يحددها له بالارقام والسطور ، ينصحه أن يطلع على كلام العرب وكتب الادب قبل أن ينقد ويهاجم الشعر والشعراء والادب والادباء ، وقبل أن يقدم على تخطئة « من له من التلاميذ أناس يعرفون ما تجهله أنت من مبادىء العربية والآداب... ومن لو رأى تلميذاً في غباوتك أيام اشتغاله بتدريس النحو والادب لالقى به الى خارج الحجرة لا يعود إليها إلا اذا عاد بعقل جديد !..»

نشر الاب الكرملي مقاله الذي يهاجم فيه العقاد بالجزء السادس من مجلته .

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٤٩٣ ومـا بعدها . ويراجع البلاغ الإسبوعي الصادر ١٥ يوليه سنة ١٩٢٨

فانبرى له العقاد بالود تحت عنوان « مثال من النقد « جاء فيه :

« جاءني الجزء السادس من السنة السادسة لمجلة لغة العرب التي يصدرها في بغداد الاب « انستاس ماري الكرملي » الذي رأى القراء مثالاً من نقده للشعر فيما كتبناه عنه بالبلاغ الأسبوعي وفي هذا الجزء السادس مثال آخر من نقده يدل كما دل سابقه على جهل مطبق بقواعد اللغة وفهم ضيق للأدب ومعاني الشعر لم نر له مشابهاً بين جهلاء النقدة وأدعياء اللغة وهم غير قليلين . وفي ردنا على نقد هذه المجلة لديواننا فائدة قيمة غير فائدة التصحيح وإظهار الأخطاء التي وقع فيها الناقد المغرور ، وهي الكشف عن حقيقة الشهرة التي تنال أحياناً في بلادنا الشرقية . فقد تذيع عن بعض الناس سمعة العلم بالعربية ، وهم يجهلون عن أولياتها وأصولها ما يفرض علمه في صغار الشداة المبتدئين ، وترى هؤلاء « المشهورين » يبيحون أنفسهم مقام الإفتاء والتحليل والتحريم في لغة العرب وهم لا بفقهون منها جائزاً ولا ممنوعاً ولا يقيمون فهم عبارات منها قلما تخفى على سواد الناس .

وفي طليعة هؤلاء صاحب مجلة « لغة العرب » الذي لا تقرأ له فصلاً إلا رأيته يجزم بتحريم هذا واستهجان ذاك ، ويقول في ثقة الحجة العليم بالدقائق والجلائل : هذا يقال وهذا لا يقال وهذا حسن وهذا غير حسن .. ولو راجع أشيع كتب النحو والصرف ، وفهم أبسط القواعد اللغوية لعرف خطأه وترك مجلس الاستاذ الناقد الى مجلس التلميذ المتعلم المشكوك في فلاحه وإن طال عليه زمان الدراسة والتلقين . فالكشف عن حقيقة هذه الشهرة الزائفة باب من أبواب العبرة خليق أن يقصد لذاته ويتخذ مثالا لغيره من ضروب السمعة التي لا تقوم على أساس .

يشتمل نقدهذا الأعجمي الذي يرىأن ديواننا قبر للمعاني البالية والسخافات والأغلاط » على مآخذ معنوية ومآخذ لغوية . فأما المعنوية فهذا نموذج منها وفي إيراده الكفاية :

قلنا :

قد كنت تبلغ ما تروم وتشتهي ... لو أن للأيام عينا ترقب
لا يذهبن بك القنوط فربما ... عاد الصباح وأنت لاه تطرب

وأنكر المعنى فقال : « كيف يؤمل له أن يلهو ويطرب بعد ما أحال أن ينال ما يروم ويشتهي ؟ ... »

وقلنا في قصيدة حمام البحر :

لا بل منيت بفتنة خلعت ... جلبابها للكر والفر
والغيد أنفذ ما رمين إذا ... جردن عن زرد وعن ستر

ونقده العلامة الفهامة فقال : « أي علاقة لحسناء تستحم بالكر والفر ! »

وقلنا نخاطب الزهرة :

فريدة الأفق أسعديني ... وخالسي النجم وارمقيني

والعلامة الفهامة يقول : « إذا كانت الزهرة كما يتوهم الاستاذ ربة الحب ، فمن أي نجم تخاف ليأمرها بقوله وخالسي النجم وارمقيني ! »

وقلنا في وصف البحر :

لم أبصر الآذي فيه كأنه ... خيل الطراد تسوقهن صباه
إلا وددت بأن أراه فلا أرى ... أفقاً يصد الطرف دون مداه

والعلامة الفهامة يقول في نقد القصيدة : « من العجيب أن يود رؤية البحر من يبصره ، والقصيدة برمتها سخيفة ... ! »

وقلنا في الشمس :

لقد طال عمر الليل حتى حسبتها ... توارت من الغرب المعصفر في رمس

والعلامة الفهامة يقول : « خلاصة البيت أن الليل قد طال فحسب أن الشمس قد توارت في رمس هو المغرب المعصفر . والغرب يكون معصفراً بعد تواري الشمس بقليل ، ولكن هذه العصفرة لا تشاهد إذا طال الليل » .

هذا نموذج من فهم العلامة الفهامة لمعاني الشعر ونقده . وما أظن هذا الهراء يحتاج الى رد أكثر من إيراده بحرفه ، فليكن ردنا عليه أننا نشير اليه .

* * *

أما المآخذ اللغوية فقد علم القراء آنفاً ما انطوت عليه من جهل هذا الناقد الاعجمي بأصول النحو والصرف جهلاً يدفع به الى تخطئة ما لا شك في صوابه ، وما قد وردت النصوص باستحسانه أو بوجوبه ، وسيرون في بقية فقده عجباً كذلك العجب وغباء لا غباء مثله في فهم لغة العرب من صاحب « لغة العرب ... »

جاء في المجلة ص ٤٦٨ : (وقال : « خياشيمه م القيظ يبضضن بالدم » والميم في « م القيظ » مخففة من « من » الجارة وهذا التخفيف ذميم ، وإن ارتكبه بعض الجاهليين) .

وهكذا يقول العلامة الفهامة ... والعلامات الفهامات يجب عليهم ان يعلموا ويفهموا أن أبا حيان يقول في هذا الحذف إنه حسن وكثير فهو إذن ليس بذميم ولا قليل.

وجاء في المجلة ص ٤٦٨ : « وقال في قصيدة ليلة الوداع :

تطلع لا يثني عن البدر طرفه ... فقلت حياء ما أرى أم تغاضيا

« وأنت تعلم أن مقول القول لا يكون الا جملة ، فما وجه نصب حياء والمعطوف عليه تغاضيا !» .

هكذا يقول العلامة الفهامة . والعلامات الفهامات يجب أن يعلموا ويفهموا أن المفاعيل في العربية خمسة وليست مفعولاً واحداً هو ذاك الذي يأخذ علامتنا وفهامتنا بخناقه .. فحياء منصوبة هنا لأنها مفعول له أو مفعول لأجله . والمعنى كما يفهم كل قارىء هو : « هل للحياء تفعل ما أرى أو للتغاضي ! » أما الذي يخطر له أن حياء هنا لا بد أن تكون مفعولا به ولا بد أن تكون خطأ لانها

آتيـة بعد القول فذلك هو الببغاء الذي يحفظ أسماء المنصوبات ولا يدري أين تكون مواقعها من الكلام .

وجاء في المجلة ص ٤٦٨ « وقال :

كأن فؤادي طائر عاد إلفه   اليه فأمسى آخر الليل شاديا

(يريد فشدا آخر الليل . وقوله : « فأمسى آخر الليل شاديا » كمن يقول أمسى فلان مغنياً عوض « غنى فلان » والفرق بين المعنيين ظاهر) .

هكذا فهم صاحب لغـــة العرب ... ولكن العرب الذين لا يفهم لغتهم صاحب لغة العرب يقولون : « لا أكلمك آخر الزمان ... ونحن هنـــا نقول أمسى آخر الليل أي أمسى الى آخر الليل ... وهبنا قلنا أمسى فلان مغنياً فنحن على هذا نريد أنه قضى المساء كله في الغناء فأي خطأ في ذلك وما وجه الاعتراض عليه . !

وجاء في المجلة ص ٤٦٨ : وقال :

وأشكوه ما يجنى فينفر غاضباً   وأعطفه نحوي فيعطف راضيا

(يريد أن أشكو اليه ما يجني و « أشكو » لا يتعدى الى مفعولين) .

رجعنا الى المفعول به كأنـــه هو كل بضاعة صاحبنا العلامة الفهامة من المنصوبات ..؟ و « ما » هنا ليست مفعولا ثانياً ، وانما هي بدل اشتمال في محل نصب على البدلية من مفعول « أشكو » ... فهل لم يرد باب البدل على العلامة الفهامة ؟ أو هو ورد عليه ولم يفهمه ولم يعرف تطبيقه ؟ ومع هذا لو أننا عدينا « أشكو » الى مفعولين لما كان في ذلك خطأ كما سيرد بيانه .

وجاء في المجلة ص ٤٦٨ : « وقال :

أسلمت كفي كفه فأعادها   وقلبي فهلا أرجع القلب ثانيا

« أراد أسلمت الى كفه كفي فأعادها ، وأسلمت قلبي ولم ترجعه فلم يفصح، ثم ان أسلم لا يتعدى الى مفعولين » .

وجاء في المجلة ص ٤٦٩ : « انا نؤجله الحساب الى الغد » وأجل لا تتعدى

الى مفعولين » . المفعول به أيضاً ..! لكأن اللغة العربية لا تشتمل على غير المفعول به ، أو كأن الافعال لا عمل لها الا التعدية .! ويخيل اليك أن الرجل لكثرة ترديده هذا المفعول قد حفظه واستقصى بابه فلا يفوته حكم من أحكامه ولا موقع من مواقعه ، ولكن أتراه قرأ باب الحذف والإيصال في تعدية الافعال ؟ بل أتراه قرأ شرح الالفية لابن ناظمها وهي من أوليات الكتب النحوية ؟ لو أنه قرأه لرأى فيه صفحة ١٢٧ من طبعة دمشق . « يحذف حرف الجر وينصب مجروره توسعاً في الفعل وإجراء له مجرى المتعدي ... وقد يفعل نحو هذا بالمتعدي الى واحد فيصير متعدياً الى اثنين كقولهم في كلت لزيد طعامه ووزنت له مالي تقديره : كلت زيداً طعامه ووزنته مالي » . فلا خطأ في قولنا « أشكوه ما يجني » ولا في قولنا « أسلمت كفي كفه » ولا في قولنا « نؤجله الحساب » وإنما الخطأ والجهل في تخطئة هذا الصواب المجمع عليه وهو قاعدة من القواعد المحفوظة المدونة في أمهات الكتب النحوية . ولعمري إن الرجل الذي يجهل مواقع البدل والمفعول لاجله ويجهل حكم المفعول به وهو لا يفتأ يعيد ذكره ويكرر إعادته لحقيق أن يتعلم النحو في المكاتب الاولية ، لا أن يتصدى بالتخطئة لاناس يعلمون النحو من هم أعلم به من هذا الاعجمي المأفون .

وجاء في المجلة ص ٤٨٩ : « وقال من قصيدة المنظار المقرب:

أنت عين من زجاج موقها   يجذب الانوار من كل سماء

« شرح الموق فقال هو الحدق ، والموق طرف العين مما يلي الانف وهو مجرى الدمع ولا دخل له بالرؤية ، فلا يصح قوله : يجذب الانوار من كل سماء ... » .

ذلك قصارى ما يلحنه العلامة الفهامة من لغة العرب ... ولكن العرب يطلقون الجفن ويريدون العين . ويذكرون الجزء ويعنون الكل ... والموق بعد غير متفق على أنه طرف العين مما يلي الانف كما يقول هذا المتعسف الجهول ،

لان الموق يطلق على مؤخر العين ومقدمها معاً ، كما جاء في لسان العرب وغيره من المعاجم . وفي المجلة يستشهد الشاعر : « والخيل تطمن شزراً في مآقيها» ولا أظن عقلاً غير عقل علامتنا الكليل يفهم أن الطعن موجه الى أطراف العيون مما يلي الانف ، دون سائر الاحداق ... !

وجاء في المجلة : « قال :

ما للأماني يستضحكن لي غرراً وقد سلوت ويستحدثن لي غزلا

« واستضحك بمعنى ضحك فهي لا يتعدى الى المفعول . . »

المفعول مرة أخرى والتعدي مرات ومرات ، فأما وقد أعلمناك — يا علامة — أن في اللغة شيئاً يسمى المفعول لاجله فاعلم يا هذا أن « غرراً » هنا مفعول لاجله .

وجاء في المجلة : (وقال : « فاحتلن لاستدراجي الحيلا » واحتال فعل لازم لا يتعدى فالعبارة خطأ إلا إذا تكلفنا فجعلنا الحيل مفعولاً مطلقاً لاحتلن) .

ونحن لا ندري ما التكلف هنا وليس المفعول المطلق كما يعلم التلميذ الصغير إلا المصدر المنتصب توكيداً لعامله أو بياناً لنوعه ! هبه أراد أن يجي، بالمفعول المطلق في هذه الجملة بغير تكلف فكيف تراه كان يجيء به « أم امتنع المفعول المطلق من الكلام لئلا يكون في اللغة غير مفعوله الحبيب إليه ؟

وجاء في المجلة : (وقال من قصيدة الشتاء في أسوان :

ما طب جالينوس قيس بطبه إلا غرور

(وقيس حال من « طب جالينوس » وإذا وقع الماضي حالا وجب تصديره بالواو وقد أو بقد أو الواو وحدها . نعم ورد مثل « كما انتفض العصفور بلله القطر » ولكن هذا لا يقاس عليه)!.

لا يا جاهل . يقاس عليه ويقاس ويقاس ! ففي القرآن . « وجاءوكم حصرت

صدورهم » ... ومن الشواهد التي نذكرها لك ونتحرى ألا تكون إلا من كلام أقحاح العرب قول المثلم بن رياح :

تصيح الردينيات فينا وفيهم ... صياح بنات الماء أصبحن جوعا

وقول المرقش الاكبر :

وتصبح كالدوداة ناط زمامها ... الى شعب فيها الجواري العوانس

وقوله :

قلقت إذا انحدر الطريق لها ... قلق المحالة ضمها الدعم

وقوله :

هل تعرف الدار بجنبي خيم ... غيرها بعدك صوب الديم

أمست خلاء بعد سكانها ... مقفرة ما أن بها من أرم

إلا من العين ترعى بها ... كالفارسيين مشوا في الكمم

وقول صخر بن عمرو بن الحارث بن الشريد أخي الخنساء :

لنعم الفتى أدى ابن صرمة بزه ... إذا راح فحل الشول أحدب عاريا

وقول سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تمنح المرآة وجهاً واضحاً ... مثل قرن الشمس في الضحو ارتفع

وقول طرفة :

وكري إذا نادى المضاف مجنبا ... كذئب الغضا نبهته المتورد

وقول كعب بن زهير :

سح السقاة عليها ماء محنية ... من ماء أبطح أضحى وهو مشمول

فهل يكفيك هذا أو نزيد ؟

وجاء في المجلة : (وقال :

أبداً نحوط به ودا ... ئعها بسور خلف سور

(ونحوط فعل متعد بمعنى تحفظ وإنما أراد تحيط به فلم يحسن التعبير).

يا لهذا المفعول المسكين . ! يا ابن آدم نحن نقول لك إن الفعل متعد حقاً،

وإننا أوردناه كذلك وجعلنا ودائعها مفعولاً له ، ولكنك أنت الذي تقرأ ولا تفهم . أما الفاعل فهو الضمير عائداً على الطبيعة التي تقدم ذكرها في بيت سابق :

بلد تجود له الطبيـ عة بالصغير وبالكبير

وجاء في المجلة : « وقال :

ما كان أول مغرب شهدت على مر العصور

« والمغرب مذكر لا يحسن وصفه بشهدت »

ومن واجب هذا الدعي أن يعقل قبل أن ينقد . فإن التأنيث هنا للشمس التي يعود إليها الكلام كله في الأبيات السابقة وأولها :

والشمس شاخصة تكا د تنوء من جهد المسير

على أن المغرب تؤنث وتذكر ، مؤنثة في كتب الفقه واللغة التي فات صاحب « لغة العرب » أن يطلع عليها .

وجاء في المجلة : « وقال من قصيدة البدر والصحراء :

إيها أبا النور أطربنا فكم لك من لحن على البيد لم يطرب له أحد

« قال أطربنا فهو يريد الإطراب فلا معنى لإيها فانها للإسكات » .

أخطأت وجهلت يا علامة ! راجع لسان العرب تعلم أن إيها ترد « بمعنى التصديق والرضى بالشيء » كما ترد بمعنى الإسكات .

وجاء في المجلة : (وقال « ليست شآبيبك الحفلى بمغنية » ولم استحسن الحفلى ... »

ونقول له : « ونحن لا نحفل باستحسانك ! »

وجاء في المجلة : « وقال :

أراك تغوينني بوحي إلى السماوات يزدهيني

« لا يقال أغواني إلى الشيء ... » نعم ! ولكن يقال بوحي إلى السماوات ، وهذا هو الذي قلناه . فافهم !

جاء في المجلة : (وقال :

يا طالما تخدع الدراري لواحظ الشاعرِ الحزين

(وتخدع مضارع فهو للحال أو المستقبل والمستقبل لم يجيء بعد والحال أقصر من أن يطول فضلاً عن كونه لم يطل في الماضي . نعم يجوز أن تقول طالما خدعت ولكن لا يجوز « طالما تخدع) .

هكذا يعقل العربية هذا العلامة ..! ولو كان يتهجى النحو لعلم أن « ما » المصدرية تدخل على المضارع أكثر من دخولها على الماضي . وأن المضارع يكون للاستمرار ، ولا يجوز هنا أن تقول طالما خدعتنا الدراري لأنها تخدعنا ولا تزال تخدعنا في كل حين فلم ينقطع الخداع بانقطاع زمن مضى كما يتصور هذا اللغوي العجيب .

وجاء في المجلة : « ثم قال : (كفاكم نومة المنون » وهو يريد تكفيكم فانهم لم يموتوا بعد) .

ولو أن هذا الأعجمي يقيم فهم الجمل العربية كما يفهمها السوقة والصبيان على الأقل لفهم أن العرب تقول « هداك الله وعلمك العربية وكفاك شر الإدعاء » وهم إنما يعنون يهديك ويعلمك ويكفيك ...

وجاء في المجلة : (وقال من قصيدة ليلة الأربعاء :

يمن الله سعيه من رسول يطرق الأرض وافداً من ذكاء

(والضمير في سعيه راجع الى القمر و « يمن » لا يتعدى بنفسه) .

لا يا أيها الدعي المتعسف ! بل يتعدى بنفسه ، ولهذا يجيء منه اسم المفعول على ميمون ويذكر بغير حرف الجر .

وجاء في المجلة :(وقال : « أذكرتني بك الكواكب » والصواب « أذكرتنا إياك فان أذكر يتعدى بنفسه إلى مفعولين) عدنا ما أدري للمرة كم الى التعدية والمفعولات ... وليس أعجب من جهل صاحب « لغة العرب » إلا إقدامه على المنع بصيغة الجزم الذي لا مراجعة فيه . فليعلم إذن أن «الذكر» مجرداً ومزيداً

يتعدى بالباء كما جاء في القرآن الحكيم : (ولقد أرسلنا موسى أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) .

وليعلم – وأجرنا في تعليمه على الله الذي خلقه – أن الباء لا تكون للتعدية وحدها ولكنها تأتي لاثني عشر معنى ، وتدخل في بعض هذه المعاني على الاسم الذي يتبع الفعل المتعدي كما جاء في قول الراعي وهو عربي قح :

هن الحرائر لا ربات أجمرة سود المحاجر لايقرأن بالسور

و « يقرأ » يتعدى بنفسه كما كان يقول علامتنا الجهالة لو حضر الراعي في أيامه .

وكما جاء في قول امرىء القيس « هصرت بغصن » وهو يتعدى بنفسه .

وكما جاء في قول الأعشى : « ضمنت برزق عيالنا أرماحنا » وضمن يتعدى بنفسه ...

أيضاً ، وكما جاء في القرآن : (ولا تـأخذ بلحيتي ولا برأسي) وأخذ يتعدى بنفسه ...

وكما جاء كذلك في القرآن : (وهزي إليك بجذع النخلة) وهز يتعدى بنفسه ...

وكما جاء كذلك في القرآن : (فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون) وأبصر يتعدى بنفسه ...

وكما جاء كذلك في القرآن: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) ويلقي يتعدى بنفسه الى آخر ما ورد في فقه اللغة وأدب الكاتب في هذا الباب .

فقبل أن تحفظ كلمة التعدية يا هذا الدعي الجهول احفظ مواضعها وأحكامها وتتبع شواهدها في كلام العرب وكتب الأدب ثم أقدم على تخطئة من له من التلاميذ أناس يعرفون ما تجهله أنت من مبـادىء العربية والآداب .. ومن لو رأى تلميذاً فيغباوتك أيام اشتغاله بتدريس النحو والأدب لألقى به إلى خارج الحجرة لا يعود اليها إلا إذا عاد بعقل جديد .

ولقد أضعنا الوقت وأطلنا في مناقشة جاهل بلغ من جهله ما يراه القراء ، فلا لوم علينا لأننا لانعد من ضياع الوقت أن نكشف لقراء العربية كيف يشتهر مثل انستاس الكرملي هذه الشهرة «باللغة» وهو من علم اللغة بهذا المكان الحقير، فان في ذلك كما قلنا لعبرة وإن فيه لتصحيحاً لمقاييس الناس وفتحاً لأعينهم على حقائق الدعاوى والإشاعات[1] » .

ولم يكن أمام الأب « انستاس الكرملي » إلا التوقف عن الادعاء والمبادرة بالقاء سلاح التهجم على كل انتاج أدبي رفيع .

وهكذا انتهت معركة من معارك العقاد الأدبية قد يحلو لقراء مصر والعراق على وجه خاص متابعتها والتمتع بما حوته من مناقشات أدبية ولغوية .

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٥٠١ وما بعدها ويراجع البلاغ الاسبوعي الصادر بتاريخ ٢٥ يوليه سنة ١٩٢٨

طه حسين

العقاد وطه حسين صديقان لدودان .. هذه هي أقرب الصفات التي يمكننا أن نطلقها على الأديبين الكبيرين . فهما بلا شك يقفان في قمة جبل من الأدباء ، ولكل منهما مذهبه ومنحاه كما أن لكل منهما أهدافه ومرماه من وراء رسالته في عالم الفكر والثقافة .

ولقد عاصر المفكران الكبيران أعنف الأزمات التي مرت بتاريـــخ مصر السياسي والفكري في منتصف القرن العشرين ، وكان لكل منهما وجهة نظره . ومع تباين وجهـــات النظر التي كادت تصل الى حد الخصومة كانا يلتقيان عند هدف واحد وهو الحرص على اعزاز دولة الأدب ورفع رايته العالية . وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين في رثائه للعقاد :

« ما أشد ما كان بينك وبيني من خصام في السياسة أحياناً وفي الأدب أحياناً أخرى وما أحلى ما كان بينك وبيني على ذلك من مودة واخاء ووفاء .. أنت أيها الأخ الكريم والصديق الحميم والزميل العزيز ملأت الدنيا حقاً وشغلت الناس حقاً وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم في حياتك[1] » .

ومعارك العقاد النقدية مع الدكتور طه حسين ترجع الى زمن بعيد موغل في القدم .. فقد حدث أن كتب العقاد سنة ١٩١٦ في مجلة المقتطف « نظرات في

---

(١) صحيفة الجمهورية في ١٣ / ٣ / ١٩٦٤ مقال وداع للدكتور طه حسين .

فلسفة المعري » وختمها يومذاك بمآخذ أخذها على دراسة الدكتور طه حسين للمعري .

وإذا عبرنا صفحات السنين لنقف أمام ١٩٣٩ نجد أن الدكتور طه حسين يرد على مقال للعقاد هذه المرة كان موضوعه عن الترجمة وعلاقاتها بتعارف الشعوب .

وخلاصة ما قاله العقاد في مقاله يومذاك أن الترجمة تكثر بعد الحروب بين الأمم المتحاربة لعناية كل أمة منها باستطلاع أحوال الأمم الأخرى ، واستقصاء ما عندها من بواعث النصر والهزيمة ، وفي الوقت نفسه لم يرد العقاد أن يحصى أسباب الترجمة كلها ، أو يردها الى المنافسات الحربية ورغبة الاستطلاع وإنما أراد أن يلاحظ تلك الملاحظة من الوقائع التي صاحبت الحرب العالمية الأولى والحروب القريبة التي تقدمتها[١] .

على أن العقاد لم يجعل المنافسة أصل المعرفة في جميع أحوالها، بل يذهب الى أن الأمر في ذلك مرجعه الى شعور القلق والحذر الذي يحرض على رغبة المعرفة في النفوس ، ويرسم لها الميول والوجهات. كما ذهب في موضع آخر من تلك المقالة الى أن رغبة المعرفة الفكرية لا تحتاج عندهم الى تحريض كثير من دواعي المنافسة وبواعث الخصومة ، وهو صريح في أن المنافسة تحرض ولا توجد ، وتكون سبباً للرغبة في المعرفة ولا تنحصر فيها جميع الأسباب .

ولكننا نرى الدكتور طه حسين يذهب في رده على العقاد قائلا ان العلة الحقيقية الأولى لكل ترجمة ونقل إنما هي الطبيعة الإنسانية التي تجعل الإنسان حيوانا اجتماعياً كما يقول « ارسطاليس » في السياسة ، وحيواناً مفكراً كما يقول « ارسطاليس » في المنطق ، فطبيعته الاجتماعية تضطره الى أن يتصل بغيره من الأفراد والجماعات ، ويشاركهم فيما يفكرون ويشعرون ويتحدثون ،

---

(١) ساعات بين الكتب – للعقاد صفحة ٥٤١ .

وطبيعتـه المفكرة تضطره الى أن يبحث ويستقصي ويتعرف حقائق الأشياء.

وقد اتخذت تلك المناقشة بين الأديبين الكبيرين دروبا من الفهم ، وأنماطا من التفكير . والذي يهمنا من تلك المعركة منهج كل من المفكرين في النظر الى الأشياء .

فالدكتور طه حسين ينظر الى الأشياء نظرة المحقق الذي يرى أنه يتقيد بمناهج البحث العلمي ، وعلى هذا يرجع الخلاف بينه وبين العقاد الى اختلافهما في المنهج ، ويقول في هذا الصدد :

« ربما كان مصدر هذا الاختلاف أن العقاد ينظر الى الأشياء الخاصة والظواهر العامة نظرة الفيلسوف ، بينما أنظر اليها أنا نظرة المؤرخ ، أو بعبارة أدق المحقق الذي يتقيد بمناهج البحث العلمي ، ولا يحلق في هذه السماء الجميلة المزدانـة ، سماء الفلسفة » .

لم يشأ العقاد أن يترك طه حسين فيما يختص بالمنهج في النظر الى الأشياء الخاصة والظواهر العامة ، لأن المنهج العلمي في البحث الذي يتقيد به طه حسين لا يسلح استخدامه إلا في مجال الوقائع العلمية التي يدرسها العلماء ، كأصول الدراسة الكيميائية والطبيعية وماإليها ، ولا يدخل في مجال الوقائع العلمية تعارف الشعوب ولا يستطيع العلم أن يستقل بالبحث في هذا الموضوع ، لأنه في مجال الرأي ، وإذا تقدمنا في هذا الموضوع خطوة فلا بد لنا أن نتقدم فيه بمعونـة الفلسفة والخيال معاً ، لأنه موضوع نفسيات في نطاق اجتماعي في تصور كل ما اختلف من الحالات وتسهيل الخروج بالباحث مـن وضـع واحد الى جملة أوضاع .

وبنظرة فاحصة يتضح لنا أن طه حسين يقصد بالمنهج العلمي المنهج الاجتماعي الذي ينظر الى الإنسان على أنه حيوان اجتماعي ، ومن هنا يعول طه حسين على دراسة البيئة والعصر ولا يدرس البواعث النفسية للاديب التي تحفزه الى نوع من

السلوك دون نوع آخر .

ومعنى هذا أن قوله بأن المنهج منهج علمي فيه تعميم وجمع بين المنهج الاجتماعي في الدراسات الإنسانية والمنهج العلمي في الدراسات التجريبية ، ومن هنا قصر العقاد رده على المنهج العلمي في الدراسات التجريبية بناء على تعميم طه حسين :

« وعلى الرغم من أن رد العقاد يفيد بأن المنهج العلمي التجريبي مجاله أصول الدراسة الكيميائية والطبيعية فانه قد استخدمه فيما بعد في الدراسات الإنسانية ، كدراسته لامرىء القيس والكواكبي وجمال الدين الأفغاني وابن الرومي في سبب وفاته[1] .. »

ثم تنشب بعد ذلك معركة بين الأديبين الكبيرين عقب تأليف العقاد كتابه « رجعة أبي العلاء » إذ كتب الدكتور مقالا في مجلة الثقافة الغراء جاء فيه : « ... جرى على لسان التلميذ وعلى لسان الشيخ كلام أهمل فيه النحو بعض الاهمال ، وما أظن أن أبا العلاء كان ينصب أو يجر حيث يجب الرفع ، وما أظن أنه كان يقبل من تلميذه أن يضع « من » مكان « ما » وما أشك في أن هذا من خطأ المطبعة ولكنه خليق ان ينتبه اليه .. وفي الكتاب ذكر لحيرة المنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، وما أعرف أن المنبت حائر ، وإنما المنبت مشرف في الاسراع يعرض قلبه للعطب فلا يغني عنه اسرافه في السرعة شيئاً فلا حيرة هناك ولا حائر ».

ويومها رد العقاد قائلا: « رجعنا الى الصفحة الـ ١٨٩ التي أشار إليها الدكتور فلم نجد فيها منصوباً يجب رفعه وإنما وجدنا المعري يسأل : « والمساكين والمستضعفين »؟ دون أن يسبق الكلمتين عامل مذكور ، والقاعدة النحوية في هذه الحالة أن يرجع الى التقدير كقول الشاعر في البيت المشهور الذي

---

(١) العقاد ناقداً — للدكتور عبد الحي دياب ٦٦٥ .

يعرفه النحاة :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساع الى الهيجاء بغير سلاح

فالشاعر هنا لم يقل «أخوك أخوك» لأن الكلمة واقعة في الابتداء ولكنه قال أخاك أخاك لأن التقدير « اذكر أخاك » أو استعن أخاك » أو ما شابه هذه التقديرات .

وكذلك كلمتا « المساكين والمستضعفين » تجران لأن التقدير « ما شأن المستضعفين» أو ما بال المستضعفين أو انني أسأل عن المستضعفين .. وليس هناك ما يوجب الرفع على الاطلاق. أما «من» في موضع «ما» فقد رجعنا الى الصفحة ٢٢٣ التي أشار اليها الدكتور فاذا هو يشير الى قولنا : « لو أن الأستاذ قد شهد أسراب الطير وهي تعبر المحيط كل عام فيغرق منها من يغرق ويسلم منها من يسلم ثم تعود الى الهجرة ولا تخاف الموت ولا تعرف ما هو لحسبت أنه يعني هذه الشجاعة حين يذكر شجاعة الغريزة وشجاعة الحيوان » .

وأبو العلاء ولا ريب يقبل تلميذه أن يضع «من» في هذا الوضع لأن « من » تستعمل للعاقل ولغير العاقل في أفصح الكلام ، وفيه :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي الى من قد هويت أطير

ومنه في شعر امريء القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي وهل يعمن «من» كان في العصر الخالى
وهل يعمن « من » كان اقرب عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال

ومنه في القرآن الكريم والكلام عن الأصنام : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله « من » لا يستجيب له الى يوم القيامة .. »

وفي القرآن الكريم أيضاً : « ... ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع » .

وهذا عدا الشواهد التي لا تحصى لخطاب غير العاقل بضمير العاقل ، في القرآن وفي كتب النحو والأدب وفي دواوين الشعراء .

أما المتبت فلماذا لا يحار وقد اتلف دابته وانقطع عن صحبه ولم يصل الى غايته ؟ ومن الذي يحاران كان مثل هذا لا يحار ! ما أظن ان الحيرة مشروطة في كتب اللغة او كتب الأمثال بأسباب لا تعدوها ، وما اظن احداً ينفرد ويعدم المركب ولا يبلغ نهاية الطريق الا وهو حائر فيما يصنع وان لم يسمح له الدكتور طه حسين بالحيرة ! فاذا حرم عليه الدكتور الحيرة فهو وحده الذي يحرمها عليه .. لا علم اللغة ولا علم النفس ولا قوانين العرف ولا قوانين التشريع .. الخ » .

وبعد تلك المعركة تنشب معركة أخرى بين الأديبين الكبيرين كان موضوعها الوحدة العضوية ولكن العقاد لم يرد فيها لان الدكتور انبرى للمعركة دون ان يقدم من الأدلة او المبادىء النقدية ما ينقض تلك الدعوة .

ويصدر للعقاد بعد ذلك كتاب عن « ابي نواس » فينقده الدكتور طه حسين على صفحات جريدة الجمهورية[1] ، واخذ في المقال على العقاد انه اسرف في استخدام علم النفس في دراسته ، وان المذهب الذي ذهب إليه العقاد في كتابه قديم جديد في وقت واحد ، وكان القدماء يسمونه الاعتداد بالنفس ، ثم اخذ بعض الأدباء الأوربيين يسمونه النرجسية .

ويرى طه حسين في نقده لكتاب العقاد انه غالى في حديثه عن «النرجسية» غلوا شديداً في تعمقها على مذهب المحللين النفسانيين ، فذكر من مذاهبهم وتجاربهم فنونا توشك ان تلحق كتاب العقاد بكتب العلماء لولا انه ليس له معمل او مستشفى يجري فيهما التجارب كما يجريها العلماء ، وليس امامه مرضى احياء يجري عليهم هذه التجارب كما يجريها العلماء .

واضاف طه حسين قائلا : ان ابا نواس لم يعتد بنفسه اكثر مما اعتد شعراء كثيرون في امم كثيرة بأنفسهم ، وهذا الاعتداد شرط اساسي للتجويد الفني ،

---

(١) اشترك في هذا النقاش مع الدكتور طه الاستاذ سلامه موسى وقد اشرنا الى ذلك في بداية القسم الخاص بمعارك العقاد مع سلامة موسى .

لأنه لولم يعتد بنفسه وفنه ، لم يحفل بالشعر ولم يتأنق فيه ، ولم يحسن الحكم عليه .

ويومها تناول العقاد مقال طه حسين بالرد والتفنيد على صفحات الأخبار بدأه بالتهكم والسخرية ، وذلك أنه وجه في بدايته مشورة إلى الدكتور بأن يقرأ كتب التحليل النفساني وأن يعيد قراءتها مرة بعد مرة ، وهو على يقين أنه سيعدل عن رأيه — بعد قراءتها — في علاقة الأدب بهذا التحليل وهذه مشورة ميسورة الاتباع .

ويومها نرى العقاد يتساءل عما يريده طه حسين « أتراه يقول إن البواعث النفسية شيء لا علاقة له بدراسة الأدب والأدباء ؟ إذا قال ذلك فمن يتابعه على هذا الرأي ، ومن يعمل به فيكتب ما يستحق أن يقرأ في هذا الزمن . أتراه يقول ان الأطباء هم المختصون بالنقد الأدبي دون غيرهم ، لأنهم هم المختصون بالدراسات النفسية ، إذا قال ذلك فأين المثل الواحد الذي يدعم به هذا الرأي ؟ واين الطبيب أو الأديب الذي يقره عليه[1] ؟ »

ويرى العقاد أن أدوات الدراسات النفسانية ميسورة للاديب ، وأنها غير محرمة عليه ولا هي مقصورة على الطبيب ، وأن هناك أدباء خبراء يرجع اليهم الاطباء كلما اتصل الأمر بالتعبير وتدبر معانيه ، او بالخيال وتصور رموزه .

على أن كل ما يرجوه العقاد في هذا الصدد هو تحصيل أدوات الدراسات النفسانية للانتفاع بها في دراسة الأدباء وغيرهم .

وينصح العقاد الدكتور طه حسين بأن هناك بحوثا لا غنى عنها وهي البحوث التي تفرق بين الأعتداد بالنفس عند أبي نواس وعند المعري وعند أبي الطيب وبشار .

وختم العقاد يومذاك مقاله في الرد على الدكتور مقرراً أنه ينتهج الدراسات

---

(١) اخبار اليوم في ٢٧ / ٢ / ١٩٥٢

النفسانية في دراساته الأدبية وفيما يكتبه ويقرره ويرجو من يطلع على خطأ فيه من المختصين — لا من الأدباء مثل طه حسين — أن يعلنه بأسبابه وهو مشكور » .

لم تقف معارك الخلاف بين الأديبين الكبيرين ، لأنها حينما تقف على صفحات « الجرائد » او المجلات لا تخبو في المجمع اللغوي او المجلس الأعلى لرعاية الفنون بين الشيخين والأديبين العظيمين.

فمما نذكره من أمثال تلك المعارك المجمعية أن لقاء جمعهما في لجنة علم « الجيولوجيا » التي عقدت لتعريب مصطلحات هذا العلم .. ويومها احتدم النقاش بين العقاد وطه حسين . وسبب ذلك أن العقاد ذكر في الجلسة رأياً لأحد علماء الجيولوجيا فاذا بالدكتور طه حسين يهز رأسه تيهاً قاصداً احراج العقاد فقال له : « من أين لك بهذا الرأي يا أستاذ ؟ « فغضب العقاد وفاجأ المجتمعين بقوله ردا على الدكتورطه» : « هو يا سيدي لرجل ستسمع به أنت لأول مرة ولا أخال الجامعة ستسمع به بعد بضع سنين » .

وفي الجلسة التالية عقب العقاد ببحث تلاه على اللجنة مؤداه أنه حينما أطلقت اللجنة علم طبقات الأرض كمقابل لـكلمة جيولوجيا «لم يجانبها الصواب» لأننا ماذا نقول عن العالم الجيولوجي ؟ إننا لا نعرفه إذا قلنا إنه عالم أرضي او عالم الطبقات الأرضية .. ولهذا — ولما ذكرته في جلسة المجلس — أرى أن كلمة علم طبقات الأرض أفضل ترجمة لـكلمة الجيولوجية وأن علم الأرض كلمة عامة لا تؤدي معنى من المعاني المحدودة[1] » .

وذكر الأستاذ زكي المهندس في جلسة المجمع المنعقدة في ١٨ ابريل سنة ١٩٦٤ بقاعة الجمعيه المصرية للاقتصاد السياسي بالقاهرة وهو يبدأ حفل تأبين المجمع للعقاد قائلا :

« ما زلنا نذكر الجدال العنيف الذي كان يقوم أحياناً بينه — أي العقاد —

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية — الجزء الرابع عشر صفحة ١٦٥ — ١٧٢

وبين خبراء المجمع المتخصصين في مسائل علمية بحتة . وكثيرا ما كان العقاد يخرج من هذا الجدل العلمي ظافراً منتصراً[1] » .

وطه حسين نفسه يذكر خلافات العقاد معه بالمجمع حينما أدلى بحديث صحفي له عن العقاد لصحيفة الاهرام . فقد سأله محررها الأستاذ كمال الملاح عن تلك الخلافات التي كانت بينه وبين العقاد في المجمع اللغوي فقال له :

« أيوه . أنا كنت طالع في حاجة . كل ما يجيبوا مصطلح جديد .. كنت أقول لهم عاوزين التعريف . الأصل . فإذا العقاد ينفجر في مرة ليقول : يا أخي خوتنا انت متبطلش كلام في التعريف ، قلت له : عاوز أفهم ؟

قال العقاد: .. تفهم ايه.. إذاكنت مش فاهم الحاجات دي حتفهم التعريف؟

« الاهرام في ١٦ / ٣ / ١٩٦٤ »

ومما نذكره من معارك الخلاف الأخيرة بين طه حسين والعقاد هي أن العقاد رد على كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين كله في السنوات الأخيرة من حياته في كتابيه « مطلع النور ، واللغة الشاعرة » فناقش في هذين الكتابين بالحجة الدامغة تلك الفكرة التي نادى الدكتور طه حسين بها في كتابه « الشعر الجاهلي » حينما شك في الشعر الجاهلي وشعراء ذلك العصر . فقد تناول العقاد هذه القضية في كتابه مطلع النور تحت عنوان « تزوير الأدب الجاهلي مستحيل » حيث قال :

« أما المستحيل ، او شبه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ في جملته بالصبغة التي تشمله على تباين القائلين والشعراء ، فاذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله في ديوان واحد فمن المستحيل او شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين او كلام الأمويين المتأخرين . وإذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الأموي الأول والشعر الجاهلي فتلك آية على صحة العلامات التي تميز الشعر الجاهلي وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر

---

(١) نفس المرجع السابق صفحة ١٦٣

الذي لم يفترق عنه افتراقاً بعيداً بزمانه وثقافة قائليـه وبيئاتهم في المعيشة ومناسبات التعبير . فلا يتشابه الشعر الجاهلي والشعر المخضرم ، ان لم يكن بينهما ميزان مشترك ، مـع انتمائـه إلى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين[1] » .

ثم نراه – أي العقاد – يرجع ما دفع المستشرقين الذين نقل عنهم طه حسين تلك الدعوة إلى أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية ، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين او سياسة المبشرين المحترفـين أو ينظرون في بحوثهم نظرة الغربي الذي ينظر إلى الشرقي نظرة المتعالى عليه في حاضره وماضيه . غير أنهم ما عـدا القليل منهم محدودون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون في النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التي يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع .

وهناك مواقف خالدة للعقاد حفظها التاريخ له بصدد الدفاع عن طه حسين ومنها موقفه من كتاب « الشعر الجاهلي » الذي صدر في سنة ١٩٢٦ . فقـد أحدث هذا الكتاب ضجة كبيرة ، الأمر الذي حدا برجل كالشيخ مصطفى الغاياتي عضو مجلس النواب أن يقول : « ما كان المظنون أن يوجد بين المسلمين في مصر من يجرؤ على الدين إلى هذا الحد الذي بلغه الشيخ طه حسين .. قبائح متعددة ، ما بين تكذيب لصحيح التاريخ ، وتكذيب لنص القرآن ونسبة التحايل إلى الله ، وإلى النبي محمد ، وإلى موسى عليه السلام » .

القى الشيخ الغاياتي بهذه الكلمات بمجلس النواب الذي كان منعقداً برياسة سعد زغلول وقد أعرب أغلبية الأعضاء عن رغبتهم في معاقبـة الدكتور طه حسين مؤلف الكتاب ، عدا أقليـة ضئيلة آثرت الصمت لإنتمائها إلى حزب الأحرار الدستوريين .

---

(١) مطلع النور – للعقاد طبعة اولى ٧٣ – ٧٤

وقـد تسبب هذا الكتاب في وقوع مشادة بين سعد زغلول وعبد الخالق ثروت رئيس مجلس الوزراء وصلت إلى أن رئيس الوزراء قد هدد بالاستقالة .

وانتهى الأمر في مشكلة كتاب الشعر الجاهلي بأن تقدم النائب عبد الحميد البنان ببلاغ إلى النيابة ضدالدكتور طه حسين كما وصلت إلى النيابة عدة بلاغات عن بعض علماء الأزهر ، وتوالت البرقيات من جميع الهيئات الاسلامية في مصر والعالم الاسلامي ، وكلها تطالب – في الحاح – بمعاقبـة الدكتور طه حسين بطريقة رادعة فعالة .

فكيف كان موقف العقاد ازاء تلك الزوبعـة الموجهة إلى الدكتور طه حسين ؟ !

لقد وقف العقاد يوم ذاك تحت قبة البرلمان في مجلس الشيوخ[1] وسط بلبلة عاصفة لا تعرف مغبتها .. وقف يدافع عن حرية الرأي ، وحرية البحث العلمي وعن حرية الإنسان.. ولما كان العقاد قويا – وهذه سنته فيمثل هذه المواقف – لم يبال شأنه دائماً شأن الرجل النبيل المتحلي بمكارم الأخلاق ، فلم يدخل العلاقات الشخصية أو الفكرية بينه وبين طه حسين بل إرتفع على الخصومات والمودات واختار الطريق اللائقة به وهي طريق الحق وكلمة الحق وان كانت تلك الطريق من الوعورة بمكان .

والدكتور طه حسين نفسه ما زال يذكر للعقاد تلك الوقفة الخالدة التي وقفها بجواره يدافع عن حرية الفكر وحرية البحث : وقـد صرح بذلك عقب وفاة العقاد في حديث صحفي له حيث قال : « ان الذي لا أنساه ولن أنساه ، ولا يمكن أن أنساه عن العقاد .. هو موقفه في أزمة كتاب » الشعر الجاهلي « عندما ثار مجلس النواب عليّ أكثر من مرة في أيام الوفديين . مرة كان رئيس اللجنة ويصا واصف ، كلهم كانوا ثائرين. لكن العقاد النائب الوفدي حينئذ قام ودافع

---

(١) مضبطة الجلسة الخامسة لمجلس النواب والشيوخ يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦ .

عني دفاعاً حسناً ، وكان وفدياً صميماً.

وأيام محاولة اخراجي من الجامعة قام العقاد يقول لهم .. على مهلكم فأنتم إذا أخرجتم فلاناً من الجامعة فلن تجدوا من يستحق أن يجلس مكانه[1] » .

لقد كان العقاد يقر بما لطه حسين من مكانة في الأدب الحديث . ويتضح ذلك بجلاء عندما طالبت مجلة الاثنين كلا الأديبين الكبيرين أن يكتب خلاصة رأيه في صاحبه ويومها كتب العقاد عن طه قائلا :

« أما طه حسين فهو على الترتيب : كاتب قصة ، ومؤرخ للقصة الأدبية ، وناقد للآداب والفنون ، أما أسلوبه الفني فهو أسلوبه المطبوع الذي يلائم الافضاء بأفكاره وأحاسيسه لأنه أسلوب الاملاء الموقع الذي يجعل السكوت والابتداء فواصل ونغمات . ولم تخل حياته قط من الترتيل منذ تعلم القرآن إلى أن أدمن الاصغاء إلى الموسيقى الأوروبية ، فهو يفكر ليملي ، ويملي ليزاوج بين فواصل كما يزاوج بين الفترات الموسيقية .

وليست هذه هي النقيصة الوحيدة في هذا الأسلوب . فهناك النقيصة الظاهرة بين الجزم والتشكيك وان أحصبت ألفاظ الشك في كلامه من أمثال : أزعم ، وقد أزعم ، ولعله يكون ، ولعله لا يكون ، وربما ضحكت وربما بكيت ، وربما ضحكت وبكيت في وقت واحد . فقد تحسبه من الشك لا يستقر على شيء . ولكنك حين تقرأه ترى له عبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين .

ونقيصه ثالثة حين يكتب المقالات ، انه يقتصد في العنوان حتى لا يجاوز كلمة واحدة ، وأنه يسهب في المقال حتى يفيض بالأنهار .

---

(١) صحيفة الإهرام العدد ٢٨٢٢ الصادر في ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ بعنوان : « أول حديث لطه حسين عن العقاد » .

ويأتي طه حسين الناقد بعد طه المؤرخ وطه صاحب القصة لأن المدار في النقد كله على مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية وليس نصيب الدكتور طه في هذه المقاييس بأوفى نصيب .

ولاذ طه بالصمت فلم يلب دعوة المجلة في أن يكتب اليها برأيه في العقاد وربما كان مرجع ذلك حرص الدكتور على نفسه من دخول معركة أدبية مع العقاد لا تحمد عقباها.

ونضيف في نهاية هذه السطور أن الدكتور قد أهدى كتابه « دعاء الكروان » لصديقه العقاد[1] . وأنه — أي الدكتور — كان قد نادى بالعقاد أميراً للشعراء بعد شوقي .

ولا يفوتنا أن نذكر أن العقاد سبق أن تناول بعض مؤلفات الدكتور طه حسين بالنقد على صفحات المجلات الأدبية التي كانت تصدر بالقاهرة . وكان الدكتور يهدي اليه تلك المؤلفات بمجرد ظهورها .

---

(١) ويومها قال الدكتور في الإهداء : اذنت اقمت للكروان ديواناً فخماً في الشعر العربي الحديث ، فهل تأذن في أن أتخذ له عشاً متواضعاً في النثر العربي الحديث ، وأن أهدي اليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص » . فأجاب العقاد شاكراً على صفحات الرسالة بتاريخ ٢٦ يناير سنة ١٩٤٢ قائلا : « يا دعاء الكروان ! موعدنا معك الفضاء الرحيب كلما اوغلت بنا الذكرى في أغوار ينقطع ما بينها وبين الفضاء الرحيب . ومن دعا لك انك جذبتنا خمسا وعشرين سنة او جذبت الينا تلك السنين الخمس والعشرين . وانك اوحيت الى طه ما يوحى ، فإذا به يفتح لنا فضاء الليل وما فيه من اصداء واشباح ، ويفتح لنا فضاء النفس الانسانية وما فيها من اصداء واشباح ، واذا به يلقى بعاصم في الفضاءين من ذلك الحبل السريع الخاطف ، ففيه لياذ بالنجاة .

ثم ختم العقاد مقاله هذا بقوله : واني لا احب وأنا اتقبل الهدية شاكراً أن « الكروان » سيأوي الى العش الذي سماه صديقنا متواضعاً لانه يرتضي العش وان اغريناه بالدواوين وحسبنا منه ان يدعونا وندعوه واننا واياه نلبي الدعاء » .

ومن أمثلة ذلك النقد والعرض ما عرض له العقاد عندما أصدر الدكتور كتابيه « على هامش السيرة ومع المتنبي » فقد تناولهما العقاد بالدراسة والنقد حيث قال :

« قصة ممتعة موحية ، يتابعها القارىء بشوق وينتهي منها إلى فائدة .

وهي ممتعة لأنها تنقل الشخوص والأسماء من عالم التاريخ والخبر إلى عالم الحياة والشعور فالشخوص فيها آباء وأمهات وأزواج وأحباب، وليسوا بعناوين مسطورة كعناوين المعالم المدثورة في الصحائف المهجورة ، والعلاقة بينهم علاقة حب ورحمة أو بغض ونقمة أو إخلاص وغيرة ، أو طمع وخديعة ، وليست علاقة كلام بكلام أو أشياء بأشياء .

وتزيدنا البساطة فيها شغفاً بها وعطفاً عليها ، فهي قد نقلت إلينا الحياة الجاهلية والحياة في أوائل ظهور الإسلام كما كان يألفها أصحابها لا كما نألفها نحن ، أو كما فهموها بالبداهة والفطرة لا كما نفهمها نحن بالتحليل والتعليل ، فأسباب انتشار اليهودية في اليمن – مثلاً – هي أسباب المعجزة والكهانة والأسرار الغيبية، وليست هي الأسباب التي نعقلها نحن بعد أن نعرضها على الفكر ونقابل بينها وبين النظائر والأشباه،وإنكار الكاهن اليوناني لأساطير الوثنية هو إنكار الإلهام والرؤيا وليس بإنكار التمحيص والتنفيذ ، وكذلك كل ما في القصة من أسباب ومن إيمان ومن إنكار ، قال قائل من اللاغطين بالنقد على غير بصيرة : ما أحسب إلا أن الدكتور طه حسين قد شبع من إغضاب الجامدين فهو يتصدى هنا لإغضاب المحدثين ، وما أحسب إلا أنه يكتب ليثير ويستثير ! فمرة تقع النوبة على أهل الجمود ومرة أخرى تقع النوبة على أهل التجديد .

قلت : بل أنا أحسب غير ذلك ولا أرى في الأمر شيئاً من قصد الإثارة والإغضاب .

أحسب أن الدكتور طه قد ملىء إعجاباً بالنسق الهومري في تمثيل وقائع الأبطال وأنباء العصور ، فأراد أن يخرج لنا إلياذة نثرية عربية ، يشترك فيها

عالم الشعر البليغ وعالم التاريخ الصادق ، وتجري حوادثها في آفاق الزمان الغابر الذي لا حدود فيه بين الغيب والشهادة وأسرار الخيال والحقيقة ، فنحن نفهم الإلياذة ولا نجهلها أو ننكرها لأنها قد أفرغت في ذلك القالب وانتظمت على ذلك الأسلوب ، ثم نحن نفهم « هامش السيرة » ولا نجهله أو ننكره لأنه نقل الينا الجاهليين كما كانوا في حياتهم وعقائدهم وأفكارهم ، ولم ينقلهم الينا كما نكون نحن لو أننا انتقلنا بزماننا إلى زمانهم ، فهل أصاب الدكتور أو أخطأ ، وهل أحسن من ناحية القصص أو لم يحسن ؟ أما أنا فأرى أن أسلوب التحليل لا يزداد شيئاً كثيراً لو أننا جعلنا الجاهليين عصريين يعيشون في القرن العشرين ، ولكن أسلوب القصص يخسر كثيراً من البساطة والتخيل لو أننا سردنا القصة معللين محللين.

وأقل ما يقال في هذا المعرض أن شفاعة الدكتور فيما اختار من أسلوب ليست بالشفاعة الضعيفة ولا المردودة ، وأن حجة الناقدين عليه ليست بأقوى من حجته عليهم . بل لا حجة عليه للناقدين ولا حجة هنا للقوة والضعف في الاحتجاج . إنما كانوا يزنون كتاب الدكتور بميزان العلم العصري لو أنه كان يقصد إلى العلم العصري فيما كتب ثم أخطأ في التطبيق أو أساء في التفسير . فأما وهو لم يقصد إلى ذلك ولم يحاوله ولم يرنا قط أنه حاوله فأي معنى للاعتراض عليه غير حب الاعتراض ؟ ذاك كمن يحمل إليك الآنية الأثرية فتقول له إن آنيتك ليست من طراز الأواني التي نراها اليوم على الموائد . نعم ؛ ومن قال لك إنها كذاك ؛ إنما جمالها في وضعها الأثري ومعانيها الأثرية ، فإن قبلتها فقد فهمتها ، وإن لم تفهمها فليس الذنب على الأثريين !

لكننا لا نريد بما تقدم أن قارىء « الهامش » لن يفهم الوقائع الجاهلية ولا البيئة التي ظهر فيها النبي (عليه السلام) على الوجه الصحيح والوضع المعقول المستقيم .

كلا ! بل هو يفهمها صحيحة مستقيمة من موضعين اثنين بدلاً من موضع

واحد .

يفهمها كما كانت في أعين الجاهليين ، ثم يفهمهـــا إذا شاء واستطاع كما تبدو في أعـــين المحدثين ، فيجمع بـــين زمانين ويرى الصورة المرسومة في نورين مختلفين .

ولا نظن أن مستنيراً يطلع على « هامش السيرة » حتى الاطلاع إلا وهو مستطيع أن يعرف المقدمات والبشائر التي هيأت البيئة لظهور النبي وظهور الإسلام .

فهنا قبيلة نبيلة قـــد استأثرت بمناسك البيت الحرام واستقلت بأعباء السدانة .

وهنا رجل من تلك القبيلة يعرف الهواتف الغيبيـــة ويبلغ من تقواه أن يعرض عن كنوز الذهب والسلاح وهو فقير أعزل . وأن ينذر من أبنائه للآلهة فلا يعدل عن التضحية به إلا أن تحله الآلهة أو يحله الكهان .

ذلك الرجل هو عبد المطلب جد النبي عليه السلام .

هنا فتى وسيم وضيء محبوب يتقدم إلى الموت راضياً إذ دعاه إليه أبوه وكان في الموت إيفاء بنذر البيت الحرام .

ذلك الفتى هو عبد الله أبو النبي عليه السلام .

وهنا طفل يولد ، فكأنما لم تخلق قبيلته ولا آباؤه إلا لتكون وسيلة إلى ظهوره .

يحمل به فيتم أجل أبيه .

ويدرج ويترعرع فيتم أجل أمه .

ويشب قليلاً فيتم أجل جده وكفيله .

فكل شيء يهيء له المكان ويمهد له الطريق ، وكل ما عدا هذه التهيئة وذلك التمهيد فضول .

واقرأ خلائق آبائه وآله تعلم كيف استحقوا أن يورثوه ما ورث من فطرة

وقنوت وفطنة ، وكيف كان أعلاهم كعباً وأوفاهم نصيباً وأعظمهم شأناً ولكنه كان سليل ذلك الشرف ووريث ذلك البيت لا مراء .

وفي خلال ذلك أي رحمة وأي مروءة وأي خليقة إنسانية أطهر وأبر وأدنى إلى القلب مما اشتملت عليه السيرة في مختلف الأعمار والأطوار ؟

يتيم يعطف على اليتامى ، وربيب أمة ضعيفة يحض على بر الإماء الضعاف ، وفقير يوطىء أكناف العيش للفقراء ، وتقي من معشر أتقياء يغض من كبرياء السروات وهو في الذروة بين السروات، وصاحب دين لا تأخذه في الدين هوادة ولا ينحرف عنه إلا رحم أو قرابة . وكل أولئك في صورة إنسانية محببة قريبة إلى الفكر والبداهة فهي صورة ممتعة وموحية وهي خليقة من أجل ذلك أن تشوق وأن تفيد .

* * *

قرأت « هامش السيرة » فلم أنكر سياقها في موضع من المواضع ولم أتمن لها قط أن تكون على غير ما اختار المؤلف أن تكون .

وغاية ما عندي من النقد لها أنني وددت لو ضمت من الصور الشخصية التي لازمت طفولة النبي فوق ما ضمت . لأن صورة الخلق الجاهلي أو صورة البعثة النبوية لن تتم بغير مثال من جحود الجاهلية وسورة العصبية ، وهل كان تمثيل أبي لهب هنا بعيداً من الموضع أو بعيداً من الزمان ؟ لقد كان لزاماً أن نعرف الجاهلية التي لقيت النبي بالغطرسة والعرام ، وكانت صورة أبي لهب من ألزم الصور إلى جانب عبد الله في هذا المقام ، ولا سيما بعد أن ساومته خديجة على شراء « ثويبة » التي أرضعت النبي لكي تعتقها وترفه عنها بأمره ، فأبى أبو لهب واستكبر ، وهل يكمل تصوير الجاهلية بغير مثل جاف هـذا الجفاء ، غليظ هذه الغلظة . عتل لا يعي شيئاً غـير الصلف والتجبر على الضعفاء والفخر الجهول والكبرياء بالأجداد والآباء ووفرة الثراء ؟ وهل من صورة أقرب إلى هذا المقام وأشبه بتمثيل الجانب الخشن فيه من أبي لهب ؟ إن

مكانه لمفقود في هامش السيرة ، وإن الجاهلية لن تبدو لنا في جانبها الذي استوجب ظهور الإسلام وشتى به المسلمون أول الأمر إلا على صورة من هذا الغرار .

* * *

وبعد ففي « الهامش » عبارات يقف عندها القارىء لأنه يجزم بنبوها في كلام أهل الزمان .

مثال ذلك ما أجراه المؤلف على لسان الأمة « ناصعة » وهي تخاطب سيدتها فتقول : « مهلاً يا سيدتي ارفقي بنفسك ولا تذهبي بها في الخيال كل مذهب » .

ولم يكن الإماء ولا غير الإماء يفهمن الخيال بالمعنى الذي نفهمه الآن .

ومن أمثلته أيضاً قول فاطمة الخثعمية لعبد الله : « إن خير ما في الأمكنة والدور أنها ثابتة باقية لا تتحول ولا تزول إلا في بطء ، وإن شر ما في الزمان أنه لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار » وهذا الكلام عن الزمان والمكان أدنى إلى كلام المتفلسفة في القرن الثالث والرابع منه إلى كلام النساء فيما قبل البعثة النبوية .

وإنها لهفوات لا يتجاوز عنها في نقد « هامش السيرة » إذ كانت شفاعته الكبرى أنه يحكي زمانه أبسط الحكاية في العقيدة والإدراك والتعبير .

لكنه طابع العصر أبى إلا أن يتراءى في كتاب أوشك أن ينقل إلى عصره كل شيء ولم يكد يذكرنا المؤلف فيه بنفسه إلا مرة أومرتين[١] » .

* * *

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٧١٤ وما بعدها

وعندما أصدر الدكتور طه كتابه « مع المتنبي » تناوله العقاد بالدراسة والنقد قائلا :

« الشاعر الذي لا نعرفه بشعره لا يستحق أن يعرف .

لأن كلام الشاعر هو الصلة الكبرى بيننا وبينه ، وإن لم يكن هذا الكلام معبراً عن نفسه واصفاً لها ممثلاً لشعورها فليس هو بطائل ، وإن كان معبراً عن النفس مستجمعاً لصفاتها وأطوارها فهو حسبنا من معرفة بالشاعر وترجمة لحياته ، لا يزيد عليها التاريخ إلا ما هو من قبيل التفصيل والتفسير ، أو من قبيل الحشو والفضول .

لهذا نعتقد أن صديقنا الدكتور طه حسين قد اعتمد على خير معتمد حين شرع في الكتابة على المتنبي وليس معه غير ديوانه ، فإننا إذا عرفنا المتنبي كما هو مائل أمامنا في قصائده وأقواله لم يبق وراء ذلك من حقيقة الرجل إلا ما يتشابه بينه وبين سائر الناس . وقد يجوز أن يقيم أناس في حلب كما أقام فيها أبو الطيب ، وأن يرحلوا إلى مصر كما رحل إليها ، وأن تتوارى أنسابهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم كما توارى كل ذلك في ترجمة حياته . ولكن الذي لا يجوز أن يتشابه فيه صاحبنا وغيره من الناس قديماً وحديثاً هو هذا الديوان أو هو أجزاء هذا الديوان متفرقات أو مجتمعات .

قال الدكتور في ختام الكتاب : « وأكثر من هذا أني أخذت أرى رأياً ما أظن أن كثيراً من الناس سيضيقون به ولعلهم أن ينكروه علي ، وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسي . ولكني لم أزدد إلا إمعاناً فيه واطمئناناً إليه وتعجباً من أني قد انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة قبل أن أفطن له ، أو أطيل التفكير فيه ، وهو أن شعر المتنبي لا يصور المتنبي ، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً يمكننا من أن نأخذهم منه أخذاً مهما نبحث ومهما نجد في التحقيق ، وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك ، ولا أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التي يسلكها الفلاسفة والعلماء

والأدباء أيضاً ، وإنما أريد أن ألفتك إلى شيء يسير ، وهو إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي ، كما أن هذا الكتاب الذي بين يديك إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياتي أنا لا أكثر ولا أقل ».

وهذا كله صحيح ...

ولكنه ينتهي إلى نتيجة غير التي انتهى إليها الدكتور.

ديوان المتنبي وديوان من شئنا من الشعراء لا يصور إلا لحظات من حياتهم، نعم ، ولكنها اللحظات التي تعنينا ، واللحظات التي نعرفهم بها ، واللحظات التي لا شأن لنا بغيرها.

كذلك وجه الإنسان لا يمثل لنا إلا جزءاً يسيراً منه لا يبلغ نصف معشاره، ولكنه هو الجزء الذي نعرفه به بين عشرات الملايين ممن عاشوا أو يعيشون على هذه الغبراء ، ولحظات الحياة التي يمثلها شعر الشاعر إنما هي اللحظات التي تعرفنا به أكمل تعريف مستطاع فإن هي لم تفلح في تعريفنا به فليس شيء غيرها بمفلح على الإطلاق ، ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك يعرفه الإنسان عن الإنسان.

وعلى هذا يحق للدكتور أن يطمئن إلى رأيه فلا يضيق به ولا يخشى أن يضيق به الناس ، فنحن لا نبغي من المتنبي ولا من غيره إلا هذه اللحظات المعدودات . ولو أننا عرفنا لحظات حياته منذ استهل مولوداً إلى أن لفظ النفس الأخير مقضياً عليه ، لما زادتنا كثيراً عن هذا الجزء المحدود الذي حصره لنا الديوان ، ولوجدنا بعد أن جمعنا ملايين الملايين من اللحظات أننا لم نعرف بها المتنبي كما نريد أن نعرفه ، بل عرفنا تارة حيواناً يهضم الطعام كما يهضمه سائر الحيوان ، وتارة أخرى عروقاً تنبض كما تنبض سائر العروق ، وتارة غير هذه وتلك رئتين تتنفسان كما تتنفس سائر الرئات ، وقس على ذلك جميع التارات وجميع اللحظات ، أما المتنبي الذي نبغيه فسيظل هو المتنبي المعووف في ديوانه بلا زيادة ولا نقصان ، أو بزيادة عرضية ونقصان ليس بذي بال.

نعم إن الشاعر قد يغالط في بعض كلامه ، بل قد يغالط في جميع كلامه . ولكن المغالطة تكشفه ولا تخفيه ، وتعين على معرفته أضعاف ما تعين على جهله : تكشفه على الأقل إنساناً مغالطاً وتكشف لنا بعد ذلك طريقته في المغالطة وفي حيلها وأساليبها أغراضها ؛ وتبدي لنا منه صورة يتميز بها بين الصور جهد ما يستطاع التمييز .

فصحيح إذن أن شعر المتنبي إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياته ، ولكن صحيح كذلك أنه إذا صور لنا هذه اللحظات فقد صور لنا كل ما نبغيه وأوفى ما يبلغه التصوير .

ويقول الدكتور طه في صدر الكتاب : « لا أريد أن أدرس المتنبي ، إذن فالذين يقرأون هذه الفصول لا ينبغي أن يقرأوها على أنها علم ولا على أنها نقد ؛ ولا ينبغي أن ينتظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد ، وإنما هي خواطر مرسلة تثيرها في نفسي قراءة المتنبي في قرية من قرى الألب في فرنسا قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم ، إنما هي قراءة متقطعة متفرقة ... » .

والذي أعتقده أن الدكتور لو تعمد « العلم والنقد » واصطحب المطولات والحواشي والتعليقات لما أضاف في دراسة المتنبي شيئاً هو خير من هذه الخواطر المتفرقة والفروض المحتملة ، وأرى أنه قد رجع إلى بعض الكتب المفصلة بعد أن شرع في كتابه على نية غير نية الدراسة العلمية والنقد الممحص الدقيق ولكنه أحسن بفروضه أكثر من إحسانه بمنقولاته ومروياته ، وألمع في هذه الفروض إلى آراء شتى خليقة بالتأمل والمتابعة إلى أقصى وجوهها ، ولا سيما كلامه في صلة المتنبي بالقرامطة ، وحقيقة الدعوة الدينية والإجتماعية التي كان يدعو إليها ، فهذه وأمثالها فروض لم يرسلها الدكتور على أنها وقائع ولا على أنها ترجيحات ولم يعطها من القيمة في معرض الدرس أكثر مما تعطاه الخواطر المحتملة ، إلا أنها مع هذا خواطر هادية ليست بالخواطر المضللة ، أو هي ظنون في الطريق

المؤدي إلى الغاية وليست ظنوناً في الطريق المنقطع عن تلك الغاية ، وهذه هي الإضافة المشكورة إلى ذخيرة الفهم والأدب والتفكير ، وهي بهذه المثابة أنفس من إحصاء المعلومات واستعراض الآراء من هنا وهناك .

* * *

ويطول بي القول إن أنا سردت في هذا المقال ما نتفق فيه بعض الاتفاق أو كل الاتفاق ، فالرأي إذن أن ألم بمواضع الخلاف وهي غير قليلة في الكتاب ، وأكتفي بالإشارة إلى نماذج منها معظمها في الحكم على صناعة المتنبي أو في الحكم على ذوقه وطبعه ، فهي من ثم بمعزل عن جانب الفرض والتاريخ .

روى الدكتور هذين البيتين من شعر المتنبي في صباه :

بأبي من وددته فافترقنا ... وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولاً فلما التقينا ... كان تسليمه علي وداعا

ثم قال : « أعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه وأن يصل إليه فتكلف لذلك بيتاً ونصف بيت ، وأنت ترى مظهر التكلف في قوله : « بأبي من وددته فافترقنا » .. فكلمة وددته هنا نابية قلقة مكرهة على الاستقرار في مكانها الذي هي فيه ، وأراد الصبي أن يقول أحببته فلم يستقم له الوزن ، فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا وددته هذه ... » .

والخلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جد بعيد ، فنحن نرى من جهة أن أبا الطيب لو أراد أن يقول : « أحببته » بدلاً من « وددته » لاستقام له الوزن مع بعض التجوز الكثير في الشعر المقبول في العروض ، وترى من جهة ثانية أن أبا الطيب كان مستطيعاً أن يستخدم هنا « حببته » الثلاثية بدلاً من أحببته الرباعية كما استخدمها في قوله وهو شاعر كبير :

حببتك قلبي قبل حبك من نأي ... وقد كان غداراً فكن أنت وافيا

فلا ضرورة في الوزن ولا استكراه . وفضلاً عن هذا لا نظن كثيرين

يحسبون مع الدكتور أن « وددته » في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيح الذي لاتعبر عنه كلمة غيرها ، فالمودة هي الكلمة العربية التي تقابل كلمة « Tendresse » في الفرنسية. وتطابق معناها تمام المطابقة ، وهو ذلك الحب الرفيق الذي فيه حنو وشوق وليس فيه عنف ولا اعتلاج ، وليست في اللغة العربية كلمة هي أصلح لهذا المعنى من « وددته » التي اختارها الشاعر ، وليجرب الدكتور أن يغيرها في كلام منثور فسيعلم أن هذه الكلمة في نظم المتنبي الصبي هي أشبه الكلام بنظم المتنبي الكبير .

ومن المحقق أن « المودة » ومشتقاتها ليست من الكلمات التي يلجأ إليها شاعرنا اضطراراً أو لعجزفي الوزنوالصياغة ، فهي مألوفة في قصائده العديدة وتكاد تكون لازمة له في التعبير عن الحب بشتى معانيه ، ونذكر أمثلة على ذلك منها قوله:

وما الخل إلا من أود بقلبه	وأرى بطرف لايرى بسوائه
وقوله: وكل وداد لايدوم على الأذى	دوام ودادي للحسين ضعيف
« : وإن بليت بود مثل ودكم	فإنني بفراق مثله قمن
« : ولما صار ود الناس خبا	جزيت على ابتسام بابتسام
« : إذا لم تجزهم دار قوم مودة	أجاز القنا ، والخوف خير من الود
« : ولقدمنحت أبا الحسين مودة	جودي بها لعدوه تبذير
« : مالي لا أمدح الحسين ولا	أبذل مثل الود الذي بذله
« : ولاتطمعن من حاسد في مودة	وإن كنت تبديها له وتنيل
« : منع الود والرعاية والسؤد	د أن تبلغا إلى الأحقاد
« : أود من الأيام ما لا توده	وأشكو إليها بيننا وهي جنده
« : هو الوفي ولكني ذكرت له	مودة فهو يبلوها ويمتحن
« : سقاني الخمر قولك لي بحقي	وود لم تشبه لي بمذق
« : اقصر فلست بزائدي ودا	بلغ المدى وتجاوز الحدا

وقوله: صار ما أوضع المحبون فيه من عتاب زيادة في الوداد

« : فما تركوا الإمارة لاختيار ولا انتحلوا ودادك من وداد

ومثل هذا التكرير لهذه الكلمة جدير بالتسجيل لأنه ذو دلالة نفسية فوق دلالته الصناعية أو اللغوية ، فهو يدل على افتقار الشاعر طول حياته إلى الود والأوداء حتى قنع بالتزييف والطلاء كما قال :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقاً فأعيى ، أو عدواً مداجيا

وهي ظاهرة لا نظير لها في عامة الشعراء.

وعاب الدكتور هذه الشطرة : « أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني » فقال : « إن أسفا هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الوزن ، ونبوها عن موضعها أظهر من أن يدل عليه » .

وعندنا أن الطريقة المثلى لتحقيق الكلام الذي تجيء به ضرورة الوزن أن نحذف الكلمة وننثر البيت وننظر بعد ذلك إلى قوة المعنى وقوة الأثر . فإن بقيت للمعنى قوته وبقي له أثره فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير إقامة العروض . فهل « أسفاً » في الشطرة التي عابها الدكتور من الكلمات التي يصدق عليها هذا القياس ؟ لا نظن . بل هي كلمة تتعلق بها كل قوة البيت كما تتعلق بها نغمته الموسيقية ودلالته في الشعور بسبب البلى يوم النوى وهو الاسف والحسرة .

وأنكر الدكتور على المتنبي قوله :

حاشا لمثلك أن تكون بخيلة ولمثل وجهك أن يكون عبوسا

ولمثل وصلك أن يكون ممنعاً ولمثل نيلك أن يكون خسيسا

فقال : « ولست أدري بأي امرأة أراد المتنبي أن يشبب في هذين البيتين ؟ وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء . فالمرأة التي

ترتفع عن البخل ويرتفع وصلها عن التمنع ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها » .

وأنا لا أبرىء المتنبي من « قلة الذوق » في كثير من شعره ، ولكنني لا أحسب هذين البيتين بين الشواهد على قلة ذوقه ، لأنه قد بين فيهما أن نيل صاحبته غير خسيس فهو إذن ليس بالنيل المبذول لجميع الناس ، ومتى كان كذلك وكان نيلاً موقوفاً على صاحبها فأي ضير على هذا الصاحب أن يلومها على البخل ويطمع منها في المزيد ؟

والدكتور يعتقد أن المتنبي دخل في طور جديد من نظمه بقصيدته التي أولها :

أزائر يا خيال أم عائد   أم عند مولاك أنني راقد

لأنه كما قال : « يصرع في القصيدة الواحدة مرة أو مرتين . أما في هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات » .

ولو رجع الدكتور إلى البائية التي مطلعها :

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

لوجد فيها غير المطلع خمسة أبيات مصرعة ، وهي مما نظم في عهد الشباب.

والدكتور يرى أن المتنبي كان يشير إلى اعتقال كافور إياه في مصر حين قال يمدح أبا شجاع :

وإن تكن محكمات الشكل تمنعني   ظهور جري فلي فيهن تصهال

فهو كما قال الدكتور : « لم يستطع أن يخفي تأذيه بهذا السجن الذي يمسكه في الفسطاط » وهذا هو « الشكل المحكم » الذي عناه في البيت المتقدم .

وعندنا أن التفسير الشائع لذلك البيت أصح وأدل على ما عناه الشاعر : وهو أنه لم يستطع من جراء أبي شجاع إلا أن يمدحه بالكلام ، إذ لم يكن لديه جزاء المال والحطام ، وكأنه في هذه الحالة جواد مقيد لا يملك غير الصهيل

ولو أنه يقصد حبس كافور إياه لكان معنى البيت أنه يصهل ويمدح أبا شجاع لأنه لم يستطع الجري من سجن كافور !! وليس المدح بمستقيم على هذا المعنى .

* * *

أما أخلاق الشاعر فموضع الخلاف عليها بيني وبين الدكتور أنني أقرب إلى جانب العذر وأن الدكتور أقرب إلى جانب الملام ، فهو لم يتهم الرجل بخلق ليس فيه ، ولكنه لم يطلب له العذر حيث تتضح معاذيره ، ولم يزل يشيد في تفنيده ويجتهد في اتهامه حيث يكون الاضطرار أغلب على الرجل من الاختيار .

وما من شك في تهور المتنبي وطمعه فهما خليقتان من خلائقه المشهورة . بيد أن الشك كل الشك في استحقاقه اللوم لأنه ترك سيف الدولة ورحل إلى كافور ، وما أنصفه الدكتور ولا استوضح عذره حين قال : « إن الذين يقرأون شعر المتنبي وهذه الحكم البالغة والأمثال السائرة التي يرسلها إرسالاً ويكيلها كيلا يخدعون عن الشاعر فيظنون به الفطنة والحكمة والذكاء ، ولكن الذين يتدبرون سيرته ، ويقرؤون فخره ومدحه وهجاءه . يعرفون طبيعة الشاعر ويردونه إلى مكانه الحقيقي من خصال الرجل الذكي اللبق .. وإلا فكيف نفهم أن ينفق المتنبي تسعة أعوام يمدح فيها الأمير الحمداني ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق . ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يعدونه صادقين ويبذلون له الآمال وهم يأخذون أنفسهم بالوفاء له والاطمئنان إليه . مهما يكن من شيء فقد انخدع المتنبي لكافور وأقبل مستسلماً له متكالباً عليه واثقاً به » .

ولو شاء الدكتور لما حار في فهم هذا أقل حيرة ، ولفهم أن صاحبنا مكره لا حيلة له فيما صنع ، وأنه لم يكن له بد من قصد كافور بعد أن هموا بقتله في جوار سيف الدولة مرة وبعد أن رخص سيف الدولة في قتله مرة أخرى ، وبعد أن شجوا رأسه بمحضر الأمير مرة ثالثة ، وبعد أن علم أن ذهابه إلى بغداد أو

الكوفة غير مأمون ولا مأمول فليكن بعد ذلك كله أحكم الحكماء وأصدق الطامعين ، فما هو إلا مدفوع على الرغم منـــه كما قال « ومدفوع إلى السقم السقيم » .

وما من شك كذلك في بخل الرجل وحرصه الشديد على المال ، ولكننا نجور عليه ولا شك إذا زعمنا أنه بلغ بالبخل حد الإجرام والاستهانة بالنفس البشرية وأن الشيء الخطير حقاً كما قال الدكتور « هو إقدام المتنبي على القتل في سبيل ما كان يسرق هذا العبد من متاعة. فذلك لا يصور بخله وحرصه على المال فحسب ، وإنما يصور ما هو شر من هـــذا . يصور استهانته بالحياة الإنسانية ، واستباحته الدم الإنساني في سبيل متاع يقوم بالدراهم والدنانير ، وأقل ما يوصف به هذا الإثم أنه لا يصور نفساً شاعرة متحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة فضلاً عن الدين الذي لا يبيـح دماء الناس في مثل هذه الصغائر ، ولو أن حياة المتنبي كلها خلت من النقائص والعيب لكانت هذه الحادثة وحدها خليقة أن تسبـغ عليها لوناً أحمر قانياً يبغضها ويبغض صاحبها إلى الناس » .

كلا ! إن المتنبي لا يستحق كل هذا ، وإنه لم يقتل ذلك العبد بخلاً وحرصاً على دراهم ودنانير، وإنما قتله خوفاً على حياته وخشية من تمادي الشر واجتراء عبيده على اغتياله بعد اجترائهم على سرقة ماله ، وأي مناص للمتنبي من هذه الفعلة وهو هارب من السلطان متفرد في البوادي متعرض للانتقاض ، ولا حارس له ولا مطالب بدمه غير أولئك العبيد الذين بدأوا يطمعون في ماله وأحتاجوا أسرع الحاجة إلى الزجر والصرامة والتخويف ؟ ؟ إنما الوجه أن نلتمس حادثاً آخر أقدم فيه المتنبي على القتل وهو آمن مستقر في سربه خشية على الدراهم والدنانير . أما فعلته هذه ففعلة الناجي بنفسه الخائف من سطوة لصوصه ، ولا ملامة على من يفعلها مكرهاً في شرع القانون ولا في شرع الأخلاق .

ولقد اطلنا ولا حد للكلام في نقائض المتنبي ونقائض الآراء في شعره وطباعه . فلنقل موجزين أنه رجل ذو فضائل وذو عيوب ، وأنه شقي بفضائله في ذلك الزمن الموبوء أكثر من شقائه بعيوبه وما من أحد يسمع قوله بل صرخته :

أما في هذه الدنيا كريم   تزول به عن القلب الهموم
أما في هذه الدنيا مكان   يسر بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبدى   علينا والموالي والصميم
وما أدري أذا داء حديث   أصاب الناس أم داء قديم

إلا رأى من ورائها بليته بالناس أعظم من بليتهم به ، وظلمه للناس دون ظلمهم إياه واستحقاقه للعذر أكبر من استحقاقه للملام[١] »

ولكنه عاد قبل سنوات فكتب مقالا بجريدة الجمهورية أنكر فيه تلك البيعة .

وقد روى لنا العقاد أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة أن طه حسين كان يجامله مجاملة ملحوظة لدرجة أن تلك المجاملات من الدكتور كانت تحرج العقاد .

وهناك قصة لا يمكننا أن نغفلها وقد رواها لي العقاد قبيل وفاته . وهي تجمع في دلالتها بين كرم خلق العقاد واعزازه لصديق حياته طه حسين .

فقد حدث أن كان العقاد باحدى جلسات مجمع اللغة وكان طه حسين حاضراً .. وخلال الجلسة وفجأة وقع طه حسين من كرسيه نتيجة لحالة اغماء مفاجئة .. ففزع المجمعيون وظنوا أن الدكتور قد فارق الحياة وهو يؤدي

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد منشورات دار الكتاب العربي بيروت صفحة ٧٢٠ وما بعدها .

رسالته على مسرح الفكر والثقافة، وسارع الأطباء من أعضاء المجمع إلى اسعافه ثم نقل إلى منزله بالهرم حتى يستريح بضعة أيام.

ويومها حضر العقاد إلى منزله وكنت في انتظاره كالعادة، ولكني رأيته تعلو وجهه علامات أسف شديد، فسألته لعل في الأمر شيئاً .. ويومها قصّ العقاد علي ما حدث في جلسة المجمع في أسف شديد. وهو يروي انه ظن ان الدكتور طه حسين قد فارق الحياة ولكن الله مد في حياته الكريمة، ومما اذكره انه قال لي في ختام حديثه يومذاك: « انني يا مولانا لا أتمنى من الله ان يطيل حياتي بعد الدكتور .. لأن في ذلك مشقة وتعباً لا اقوى عليه .. »

وادركت يومذاك مكانة الدكتور في نفس العقاد وتحقق للعقاد ما تمناه .. فقد ودع حياة الجسد قبل الدكتور — امد الله في عمر الدكتور .. ومتعه بالصحة.

* * *

سلامه موسى

وقد دخل الأستاذ سلامة موسى في المعركة التي دارت بين العقاد وطه حسين حول كتاب « أبو نواس » .

وقد قال سلامة موسى في تعقيبه على المعركة يومذاك « ان أبا نواس من الشخصيات « السيكوباتية » لأنه لو عاش في مجتمع يختلط فيه الرجال بالنساء ، ولو تعلم الرقص لما وقع واستسلم لشهواته الشاذة. وذلك لأن الشاب الذي يراقص الفتيات وينظر إلى وجوههن ويشم شعورهن ويضع ذراعه في خصورهن لا يمكنه أن يفكر حين يحب إلا في الجنس الآخر . وهذا هو العيب الأصيل في المجتمع الذي عاش فيه أبو نواس من شعراء العرب الذين تغزلوا بالصبيان[١] .

ورد العقاد على سلامة موسى يومذاك هذا الزعم ذاهباً إلى أنه إذا كانت شخصية أبي نواس سيكوباتية شاذة فمعنى ذلك أنه مخالف في تكوينه للمجتمع الذي عاش فيه ، وأنه لا يشبه الملايين الذين عاشوا في ذلك المجتمع .

وإذا كانت آفة المجتمع العربي قلة الرقص ، فمن اللازم أن يتشابه أبو نواس وملايين الخلق في هذه الآفة العامة ، فلا شذوذ في هذه الحالة ولا سيكوباتية » .

---

(١) أخبار اليوم ٦ / ٢ / ١٩٥٤ العدد ٤٨٨ ويراجع العقاد ناقداً للدكتور عبد الحي دياب ص ٦٧٢ .

وأضاف العقاد إلى ذلك أن سلامة موسى يعلم أن مجتمعات الغرب العصرية لا تشكو قلة الرقص ، بل لعلها تشكو افراطة وتهافت الشبان والشابات عليه في الأنديةوالبيوت، بل في الميادين والساحات،فلماذا أصيب أربعة في المائة بالشذوذ الجنسي مدى الحياة ، عدا المصابين به في أطوار دون أطوار وأن هـذه النسبة مثبتـة في تقرير « كنسي » Kinssey وزملائه عن العلاقـات الجنسي ، وقد كتبه العلماء والخبراء عن مجتمع عصري ليس أكثر من اختلاط جفسية في كل مكان[١].

وتهكم العقاد يومذاك على سلامة موسى حينما ذهب إلى أنه لا يجهل هـذا التقرير ، أو يجهل الكتيب الذي خصص لموضوعه من مؤلفات الأطباء النفسانيين، ومنهم من يرتفع بالنسبة إلى أحد عشر في المائة ، أو يزعم مع كبيرهم « فرويد » أنها أخطر من ذاك .

وتساءل العقاد من ناحية أخرى عن خطب « أوسكار وايلد » ، ان كان ذلك خطب أبي نواس ، ان « أوسكار وايلد » لم يلده مجتمع كمجتمع أبي نواس ، بل ولد في عصر الرقص والاختلاط ونشأ في بيئة الترف وتزوج من بيئته وولد له أبناء . ومن ثم لماذا ينفرد مجتمع شعراء العرب بالآفة لأنه محروم من الرقص والاختلاط بين الجنسين .

على أن أبا نواس — في تصور العقاد — لم يعتزل قط معاشرة المرأة،بل قضى حياته بين القيان والغواني اللاهيات ونظم الغزل في أكثر من عشر حسان معروفات بأسمائهن ومنهن خبان، ودنانير، ومنى ، وعنان ، وعريب ومكنون وهؤلاء غير الصويحبات اللواتي لم يذكرن بالأسماء فلا ذنب للمجتمع العربي ، ولا عصمة للمجتمعات الأوربية أو الأمريكية التي تمتليء بالمراقص ، ويختلط فيها الجنسان، ولا معنى للسيكوباتية مع تعليل الشذوذ بقلة الرقص أو قلة الاختلاط،

---

(١) المرجع السابق .

وليست هنالك قلة اختلاط في حالة أبي نواس على الخصوص » .

وختم العقاد رده يومذاك بقوله « ان سلامة موسى قد جمع من متناقضات العلم مالا يفوقه فيه إنسان في هذا الصدد » .

ولم تكن هذه هي أولى معارك العقاد الأدبية مع سلامة موسى ، بل هناك معارك سابقة عليها ، كان البادىء فيها دائماً هو سلامة موسى .

فقد كتب سلامة موسى على صفحات الأخبار في عام ١٩٥٦ كلمة بعنوان « الشعبية والملوكية » رأى فيها أن العقاد أديب لا يمت إلى الشعب بصلة ولكنه مع بعض زملائه من أمثال طه حسين وهيكل والحكيم وشوقي والجارم بطانة ملوكية اقطاعية ساعدت على الظلم والطغيان . وأنه هو — أي سلامة موسى — الأديب الوحيد الذي يكتب للشعب وأن من عداه حاشية ملكية اقطاعية .. إلى آخر ما قال .

وقد نبه العقاد إلى ذلك المقال ما كتبه تلميذه أنيس منصور على صفحات الاخبار بعد ذلك بيومين تحت عنوان « معنى الشعبية والملوكية عند سلامة موسى » :

ويومها رد العقاد قائلا ومعقباً على ما أشار إليه أنيس منصور :

« .. والأستاذ أنيس منصور لم يتابع كلام الأستاذ سلامة موسى من بداءة عهده ولم يفته شيء فيما نعتقد ولا كان يفوته شيء لو أنه لم يقرأ تلك الصفحات التي نقل عنها خلاصة الرأي السلامي الموسوي في الملوكية والشعبية ، ولكنه لو قرأ ما كتبه سلامة قبل عشرين سنة لعلم أن كلامه اليوم رأى جديد لم يكن يراه بالأمس ، بل كان يرى ما يناقضه مناقضة القطبين ، إذ كان يرى أن الثورة الحقيقية إنما تأتي من جانب الملوك والأمراء ، وأن الزعيم الثائر يكفي أن ينتسب إلى الشعب ليخيب ويستحق سخط الناقد الاديب اللبيب الأريب العجيب !

قال الأستاذ سلامة موسى في فصل عن مبادىء الثورة : « ان أكبر ثائر قام في مصر في العصور الحديثة هو في اعتقادي اسماعيل باشا . فقد حاول أن يجعل مصر الشرقية الآسيوية المستكينة النائمة أمة غربية حديثة يلبس أهلها لباس الغربيين لهم حكومة برلمانية مثل الحكومات الأوربية يأكلون ويشربون ويسلكون في سائر شئونهم مثل الأوربيين ، بل لقد بلغت ثورته في ذلك أنه حض المصريين على التزوج من الغربيات ، وذلك لكي يجعل بيوتنا وعاداتنا المنزلية غربية .. وقد وفق اسماعيل باشا إلى شيء كثير مما أراد ، ويجب ألا ننسى أن أول يد حركت الثورة العرابية كانت يده ولكن عرابي كان من العامة فلم يفلح في ثورته وانعكست على يده الغاية منها . وهذا ما نريد اثباته وهو أكبر أصل من أصول الثورة أن يكون القائمون بها من الخاصة سادة الأمة لا من العوام الصاخبين » .

وهذا الكلام منقول عن الصفحتين الخامسة والخمسين والسادسة والخمسين من مجموعة مقالاته « في الحياة والأدب » التي أصدرها من مطبعة المجلة الجديدة .

وليس كلامه هذا فلتة عرضية لم تتكرر في غير هذا الموضع، بل رأي مقرر أثبته في الصفحة الثلاثين بعد المائتين من كتاب « اليوم والغد » إذ يقول : « ثم استمررنا نتراوح بين الشرق والغرب حتى زمن اسماعيل حين رأى بنافذ بصيرته أنه لابد لنا من أن ننفرج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا .. »

وقال قبل ذلك عن محمد علي : « ولكنه مع كل هذه الأعمال كان يؤمن بالحضارة الغربية فأسس المصانع على النمط الأوربي وأوجد في الأهلين روح العمل بعد أن كانت طبائع الاستعداد الشرقية قد طبعت في الناس حب الخمول والدعة .. »

وهذه الآراء المقررة – المكررة – صريحة في معنى الشعبية السلامية الموسوية، فهي شعبية لا تفلح حتى في الثورة على سادتها ما لم يكن لها من أولئك

السادة معين أو معينون، ولم يفرط أحد في تقديس الملوك كافراط هذا الكاتب الشعبي الوحيد الفريد الجديد، في القريب والبعيد.

ثم قال العقاد موجهاً كلامه للاستاذ أنيس منصور :

« فالأستاذ أنيس منصور يجد كثيراً حين يحاسب الأستاذ سلامه موسى هذا الحساب. لأن الآراء السلامية الموسوية تدور على لوالب كثيرة لا تستقر على حال، وربما استفاد منا الأستاذ أنيس فائدة تذكر بمقدار ما تذكر أية فائدة تتعلق بالأستاذ سلامة بن موسى، وهي فائدة يفهم منها كيف يتكون رأي صاحبنا في شأن من الشئون خلافاً أو وفاقاً لما كان يراه قبل حين.

يكفي أن يذم كاتب هذه السطور — عباس محمود العقاد — في صفحة من كتاب ليطير سلامة بن موسى على الأبراج والهضاب منادياً من يسمع ومن لا يسمع : « الحق أنت وهو » .. طيروا يا خلق .. اركبوا القطارات والسيارات والدراجات والطيارات لتدركوا نسخة من هذا الكتاب .. فإن لم تدركوها فاستعيروها، فإن لم تستعيروها فتوسلوا بكل الوسائل إلى نقلها وحفظها وترتيلها كل صباح وكل مساء.

وأكاد أقول انني أستطيع أن أجعل صاحبنا يعدل عن آرائه واحداً واحداً لو أنني أعلنت الايمان بها وتأييدها، بل أكاد أقول انني لو مدحت سلامة بن موسى اليوم لأصبح سلامة بن موسى غداً وقد غير رأيه في سلامة بن موسى وجعله غير ما أقول ونقيض ما أقول، ولو خالف كل منقول ومقول ومعقول !! »

لا عليك إذن يا سيد أنيس من الجد في متابعة هذه الآراء وهذه المذاهب وهذه الدعوات.

إن صاحبنا سلامه بن موسى لا يعينها ولا يلبث ان يتحول عنها إذا تحولت دواعيها، ولا إخاله يفهم معنى ما يقول ساعة يقوله. لأن بواعث القول عنده

غير الفهم وغير التفكير وغير الدراسة ، وكلها تنبعث مما يطويه لهذا أو ذاك أو لهؤلاء وأولئك من خفايا الشعور[١] » .

وهناك معارك أدبية بين الأديبين الكبيرين موغلة في القدم سبقت هذه المعارك الحديثة . فالمتصفح لمعارك العقاد الأدبية في بطون الصحف والمجلات يجد للعقاد مقالا على صفحات الرسالة الصادرة في ٩ يوليو سنة ١٩٣٥ يرد فيه على بعض الآراء التي نشرها سلامه موسى . جاء في بعض فقرات هذه المقالة للعقاد ما يلي :

« ... الكاتب الذي يكتب ليحقد ويحقد ليكتب ويدين بالمذاهب ليربح منها ولا يتكلف لها الكلفة في العمل أو في المال .. وانه — أي سلامة موسى — يشتري الأرض ويتجر بتربية الخنازير ويسخر العمال، ويتكلم عن الاشتراكية التي تحرم الملك وتحارب سلطان رأس المال، وهو يعيش من التقتير عيشة القرون الوسطى في الأحياء العتيقة ، ويتكلم عن التجديد والمعيشة العصرية ، وهو ينعي الحضارة الآسيوية ، وانه لفي طواياه يذكرنا بخلائق البدو والمغول في البراري السيبيرية » .

وقد ذكر الاستاذ محمود الشرقاوي أن تلك المقالة من العقاد قد تركت في نفس سلامة موسى أثراً بالغاً لفترة طويلة[٢].

وعلى أية حال فقد كان العقاد — رغم تلك المعارك الأدبية التي كانت بينه وبين سلامة موسى من أول المنصفين له عندما كتب عنه عقب وفاته في عام ١٩٥٨ فقال عنه ٠

« صفتان يستوفيها الكاتب فيذكر ويستحق ان يذكر ، وتفوتانه فلاحق له في غير النسيان ، وان كان من المذكورين : أن يكون صاحب رسالة، وان

---

(١) أخبار اليوم ٢٨ / ٤ / ١٩٥٦ ويوميات العقاد ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) « سلامة موسى المفكر والإنسان « لمحمود الشرقاوي دار العلم للملايين ص ٧٧ .

يكون في رسالته رائداً متقدماً على نحو من الأنحاء. وقد كان «سلامة موسى» على حظ موفور من هاتين الصفتين.

كانت له رسالة أداها في نشر الثقافة العلمية وتبسيطها، وكان رائداً متقدماً في أداء هذه الرسالة، لأنه كان يتجه إلى حرية الفكر يوم كانت حرية التفكير جرأة لا يقدر عليها كثيرون. وكان مع اتجاهه إلى الحرية الفكرية موهوباً في صياغة أفكاره وابتداع مصطلحاته، فقلما استعار مصطلحاً من السابقين له في تبسيط العلم ونشره، إلا ان يكون ذلك المصطلح قد عم وشاع واصبح في عداد «الملكيات العامة».

ويذكر العقاد بعض آرائه المعروفة في منهج سلامة موسى ثم يعود إلى ذكره فيقول:

«كل هذا يذهب وينطوي، بل قد ذهب وانطوى في حينه، ثم يبقي اللباب من رسالة الكاتب الرائد جديراً بالحمد والتوبه، جديراً بالثناء الصريح لأنه ثناء على الصريح الخالص من دعوة الحرية وحب التجديد والسبق وإلى التعميم والتبسيط في وقت كان فيه تعميم الفهم جناية وتبسيط الفكر مشقة، وارتياد السبق اقتحاماً يضير المقتحم ويعرقل مسعاه.

عوض الله الأدب العربي في الزميل الراحل خير العوض، وجزاه في دار البقاء على ما افاد واجاد احسن الجزاء[1]».

* * *

---

(١) «سلامة موسى المفكر والإنسان» لمحمود الشرقاوي ص ٨٢ .

الدكتور

محمد مندور

الدكتور مندور من رواد أدبنا المعاصر في مجال النقد الحديث .. فقد بدأ يكتب داعياً إلى التجديد الأدبي منذ عام ١٩٣٩ . وخصوماته ومعاركه حول دعوته إلى الشعر المهموس ليست بعيدة عن أفكار القراء . فقد كان يرى فيها عودة إلى المنبع الوحيد الأصيل لكل أدب عظيم .

« ولم يكن مندور ناقداً أدبياً فقط، بل كان مفكراً تتميز نظرته إلى الأمور بالعمق والشمول والحرارة .. فلم يستطع أن يفرض على نفسه العزلة والبعد عن مشاكل الناس والتفرغ للبحث والرهبنة في ميدان الدراسات الأدبية[1] » . لذلك كله كان لابد أن يدخل الدكتور مندور والعقاد في أكثر من خصومة شهدتها الحياة الأدبية منذ عام ١٩٤٣ عقب عودة مندور من فرنسا . فقد قرأ كتاب « المطالعات في الكتب والحياة » الذي صدر للعقاد في عام ١٩٢٤ والذي حوى مجموعة المقالات الأدبية التي كان العقاد يكتبها في البلاغ في عام ١٩٢٣ وقد كان ضمن هذه المجموعة مقالات عن المتنبي وولعه بالتصغير . وقد أقام العقاد علاقة نفسية بين تصغير المتنبي وتكبره . فلم يرفض مندور في نقده الذي نشره بمجلة « الثقافة » هذا الإتجاه الذي سلكه العقاد حينما تناول هذا الجانب

(١) مقدمة كتابات لم تنشر للدكتور محمد مندور كتاب الهلال ١٧٥ اكتوبر سنة ١٩٦٥.

في المتنبي وان ادعى أنه من طغيان النفسيات على الأدب لأن أصحابها يريدون أن يعطوها صفة العلم بما يستتبع ذلك من تعميم قوانين لا يمكن أن تنطبق على الأدب الذي هو في رأيه مفارقات دقيقة تحتاج في إدراكها إلى ما يسميه « بسكال » لطافة الحس أكثر من احتياجها إلى التفكير الهندسي .

ومضى الدكتور مندور في نقده هذا فوصف كلام العقاد بأنه ظاهر الوجاهة فالمتنبي لانزاع في أنه متكبر، كما لانزاع في أنه قد هجا (الشويعر) و (كويفير) و (الخويدم) و (الأحيمق) والتصغير في رأي النحاة كثيراً ما يكون للتحقير. واذن فالمتنبي يريد بالتصغير أن يحقر خصومه ،وهو يحقرهم لأنه متكبر، و«هنا يتسلل الخطأ إلى التفكير النفسي ، ولا يظن مندور ان التصغير في شعر المتنبي كان لتكبره ، وإنما هو أداة من أدوات الهجاء يعرفها كافة الشعراء . وهذا الفن في الأدب العربي وفي غيره من الآداب أداة لصيقة بفن أدبي بذاته لا وليد لطبيعة نفسية عند من يستخدمها ، وليست هناك رابطة تلازم بين التكبر والتصغير ، حتى ولا في شعر المتنبي نفسه[1] .

وعاود الدكتور مندور الكتابة في نقد العقاد ومنهجه وان كان السبب في هذه المرة هو ما كتبه العقاد وغيره عن رسالة الغفران لأبي العلاء المعري .. وقد اختلف طه حسين والعقاد من قبل بسبب المعري – أيضاً – وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الخاص بمعاركه مع الدكتور طه .

كتب الدكتور مندور مقالاً بعنوان «أبو العلاء والنقاد» عرض فيه مذهب العقاد حيث قال : « .. فها هو الأستاذ العقاد يقحم النظريات الفلسفية التي تقوم كمذاهب ذات أساس نظرية عميقة شاملة في ميدان الأدب ، فيكتب فصولا طويلة ليدلل على أن أبا العلاء قال بالاشتراكية أو ببقاء الاصلح وما إلى ذلك مما قد يدل على براعة الناقد ، ولكنه لا يغني شيئاً من فهمنا لنفسية أبي العلاء

---

(١) يراجع العقاد ناقداً للدكتور عبد الحي دياب الطبعة الأولى ص ٦٨٤ .

ومأساته التي صدر عنها في كل ما كتب من شعر احساس أو فكرة[١] ..» ثم قال مندور أيضاً : « .. والعقاد يبدأ فيؤكد – فيما يعلم – أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة إلى العالم الأخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية .. وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب ، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها .. ففكرة الرحلة إلى العالم الآخر قديمة قدم الإنسانية ، عرفها اليونان قبل لوسيان وعرفها العرب قبل أبي العلاء . والكل يعلم ما في أساطير اليونان من وصف لنزول أورفيوس إلى العالم الاخر ليسترد منه زوجته أوريديس ، والكل يعلم وصف هوميروس لحركة أوليس ، ووصف فرجيلوس شاعر الأنبيادة لرحلة انيوس بذلك العالم ، كما نعلم جميعاً أشعار المتصوفة في أحلام يقظتهم ونومهم . ومن تلك الرحلات الرائع الجميل ، كوصف الحارث بن أسد المحاسبي في « التوهم » الذي نشره المستشرق الدكتور أربرى ، وصدر له الأستاذ أحمد أمين. وفي عصر مقارب لعصر أبي العلاء كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع المنشورة بكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ج ١ ص ١١٠ وهي شديدة الشبه برسالة الغفران . ومع ذلك يؤكد العقاد أن فكرة رسالة الغفران لم يسبق أبا العلاء إليها غير لوسيان ؟ وهو يخلص من ذلك إلى الحكم على الرسالة بأنها « نمط وحدها في آدابنا العربية ، وأسلوب شائق ، وفن طريف وفكرة لبقة وفذلكة جامعة لأشتات من نكات النحو واللغة . وأما أن ينظر إليها كأنها نفحة من نفحات الوحي الشعري على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التي يفتن في تمثيلها الشعراء والقصص التي يخترعونها اختراعاً[٢] .. الخ ما قال .

ثم يواصل الدكتور مندور مقالته هذه قائلا :

---

(١) في الميزان الجديد للدكتور مندور الطبعة الثالثة ص ١٣٣ ، ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٠

« وكذلك الأمر في مشكلتي » تشاؤم أبي العلاء » و « سخرية أبي العلاء » ففي مطالعات الاستاذ العقاد عدة مقالات عن المعري ، ولكن موضع الداء هو دائماً ما ذكرت من اقحام كتابنا لآراء كونوها من مطالعاتهم في الكتب الأوربية على أدبنا اقحاماً ، بدلاً من الخضوع لذلك الأدب والصبر على فهمه واستخلاص ما به في تواضع واخلاص . فالعقاد يبدأ بتقرير تشاؤم أبي العلاء ص ٧٠ وما بعدها مع أن هذا التشاؤم هو ما نريد أن نعلم لونه ونتائجه ... وكذلك أمر السخرية فقد تحدث عنها العقاد كما ذكر الدكتور طه حسين أنه أول من لفت الأنظار إليها في رسالة الغفران . ولكنا لا نخرج من حديثها بفهم واضح لتلك السخرية أو تميز لها عما يشابهها من اتجاهات النفس . وعلة ذلك فيما أَحسب هي إفتقارنا إلى المفارقات الدقيقة[1] » .

بعد أيام من كتابة مندور لهذه التعقيبات كتب العقاد في مجلة الرسالة بعددها رقم ٤٦٧ تحت عنوان « مساجلات رداً على مندور » قال فيه :

« .. ومن المساجلات التي نبهت إليها كلمة لأديب قال فيهـا عني في صدد الكلام على أبي العلاء ورسالة الغفران :

« .. والعقاد يبدأ فيؤكد — فيما نعلم — أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة الى العالم الاخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته في الأولمب والهاوية . وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب ، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها ، ففكرة الرحلة إلى العالم الاخر قديمة قدم الإنسانية ، عرفها اليونان قبل لوسيان ، وعرفها العرب قبل أبي العلاء » .

لا يا شيخ

العالم الآخر قديم قبل لوسيان ، والجنة والنار قديمتان قبل أبي العلاء !

سبحان الله ! كنا نظن غير هذا .. كنا نظن أن الجنة والنار خلقتا بعد المعري

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢

بثلاث أوأربع سنوات ! وأن لوسيان ظهر على الأرض فظهر معه الجحيم السفلي الذي تحدث به اليونان .

أما وصاحبنا المدهوش من جرأتنا يؤكد لنا أن الأمر على غير ذلك فلنرجع إذن عن توكيداتنا الجريئة ، ولنعلن التوبة بين يديه لنقول له : صحيح . صحيح والله ... الجنة والنار كانتا معروفتين قبل أبي العلاء ، والعالم السفلي كان معروفاً قبل لوسيان ... ولندن .. لندن . نعم لأجل خاطرك كانت موجودة قبل رحلات المسافرين إليها ، وكذلك والله باريس ، وكذلك والله القاهرة ، وكذلك والله الهند والصين وبلاد تركب الأفيال . أو بلاد تمشي على الأرض ولا تركب حتى النعال .

أفادك الله يا مولانا الذي يتربع على الكرسي العريض لينكر على المساكين من أمثالنا توكيداتهم الجريئة ، ويعلمهم كيف تكون التوكيدات من آخر طراز .

وأي توكيدات ؟

توكيداته التي لا جرأة فيها هي أننا نحن المساكين ، أو أن أحداً من خلق الله أجمعين ، يجهل أن أبا العلاء قد تكلم عن شيء معروف حين تكلم عن الجنة والنار ، وأن لوسيان لم يكن أول من سمع بالعالم السفلي بين قدماء اليونان .

فنحن بعد الاستئذان في قليل من الجرأة التي يدهش لها صاحبنا نجترىء مرة أخرى فنقول له : اننا لم نجهل معرفة الناس بالجنة والنار وهبوط الملائكة وصعود الشياطين قبل أبي العلاء ، وأن أحداً من القارئين لم يجهل هذا ، ولا يحسن بأحد أن يرمي أحداً بجهله . فهذا تحصيل حاصل مفروغ منه ، وليس أدعى الى الدهشة من مجازف يجترىء على توكيده .. ولكننا إذا تكلمنا عن الآثار الأدبية التي تتخذ من الرحلة بين الجنة والنار موضوعاً لها ، فهذا كلام آخر يجمل به أن يصغي إليه ، وإذا جمعنا بين المعري ولوسيان في هذا الصدد

فذلك مبحث يصح النظر فيه والاستفادة منه. أما أن يتربع متربع على كرسي الفتاوى ليحدث قراءه بوجود السماء والأرض والملائكة والشياطين قبل الكتابة عنهم والرحلة إليهم، أو بوجود لندن وبرلين قبل كتب السياحة والرحالين، فلا يستغرب أن يجترىء بعض القراء، ويا له من اجتراء، فيزحزح له كرسيه قليلاً الى الوراء! بل لا نظن أن القارىء يكتفي بزحزحة الكرسي قليلاً الى الوراء إذا كان ممن يعلمون أن «العقاد» قد سبق الى كتابة هذا، فقال قبل عشرين سنة عن رحلة أبي العلاء: «أي شي، من هذه الأشياء لم يكن من قبل هذا معروفاً موصوفاً؟ وأي خبر من أخبار الجنة المذكورة لم يكن في عصره معوداً للناس مألوفاً؟ كل أولئك كان عندهم من حقائق الأخبار ووقائع العيان ...»

ثم قال: «فهي رحلة قديمة كما قلنا ولكنه أعادها علينا كأنه قد خطا خطواتها بقدميه، وروى لنا أحاديثها كأنما هو الذي ابتدعها أول مرة ..»

ومن يدري؟ فقد يكون من اجتراء العقاد أنه اختلس هذه الحقيقة قبل عشرين سنة، ولم ينتظر الاذن قبل اجترائه على الاختلاس والادعاء!»

ثم يواصل العقاد رده على مندور فيقول في سخرية لاذعة:

ولاشك أن «المندورين» في هذا البلد كثيرون مع اختلاف في الأسماء والعناوين ... فمنهم ذلك الذي تسمى في احدى المجلات باسم «مصطفى» ليستر ما في مقاله من سوء النية وهو يتكلم عن النبي العربي، ويتميز غيظاً لأننا عرضنا لتعدد زوجات النبي في كتابنا «عبقرية محمد» فرددنا أسبابه الى مصلحة الدعوة الإسلامية ولم نتخذ منه ذريعة لتلويث السمعة كما فعل المتعصبون من المبشرين والمستشرقين[1]».

لم يسكت الدكتور مندور فهب يرد على العقاد بمقال جعل عنوانه

---

(٩) الرسالة العدد ٤٦٧ ويسألونك للعقاد ص ١٠ وما بعدها.

« مساجلات جورجياس المصري » قال فيه :

« كتب الأستاذ العقاد في العدد ٤٦٧ من « الرسالة » تحت عنوان « مساجلات » يقول : نبهت الى كلمة لأديب يكتب في « الثقافة » بتوقيع « محمد مندور » قال فيها عني بصدد الكلام عن أبي العلاء ورسالة الغفران : « والعقاد يبدأ فيؤكد – فيما يعلم – أن فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة الى العالم الاخر لم يسبقه إليها أحد غير « لوسيان » في محاوراته في الأولمب والهاوية ، وهذا قول عجيب يدخل في سلسلة تأكيدات الأستاذ العقاد التي لا حصر لها في كل ما كتب ، والتي كثيراً ما تدهشنا لجرأتها ، ففكرة الرحلة الى العالم الاخر قديمة قدم الإنسانية : عرفها اليونان قبل لوسيان ، وعرفها العرب قبل أبي العلاء » .

وأنا أحمد الله إذ تنبه الأستاذ الى كلمة محمد مندور هذا ، فالعقاد رجل لديه ما يشغله عن « الثقافة » وعن محمد مندور ، وهو منهمك في قراءة أمهات كتب الأدب التي وجد فيها أن « فكرة أبي العلاء في هذه الرحلة الى العالم الاخر لم يسبقه إليها أحد غير لوسيان في محاوراته » فأنى له بقراء « الثقافة » ، وما هي بشيء الى جوار عيـون الأدب. ومن هو محمد مندور ، ليقرأ له وهو مأخوذ بسحر لوسيان(١) ؟ » .

هدأت المعركة بين العقاد والدكتور مندور الى حين .. وفي عام ١٩٥٩ عاد الدكتور مندور لكتابة سلسلة مقالات في مجلة « المجلة » عن « العقاد ناقداً » تعرض في المقالة الثالثة منها لدراسات العقاد الأدبيـة وكيف انها تنصب أولاً وقبل كل شيء على التعليل والتفسير أكثر من انصبابها على التقويم والنظر في القيم الجمالية ، ومن ناحية أخرى ذهب الدكتور مندور الى أن العقاد اختار

---

(٢) في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور طبعه ثالثة ص ١٥٦ .

لدراساته الأدبية الشعراء الذين تنطبق عليهم فلسفته الأدبية العامة المتصلة بفلسفته في الحياة ، وذلك لأنه اختار من بين شعراء العرب القدماء أبا نواس والمتنبي وأبا العلاء وابن الرومي . وهؤلاء الشعراء الأربعة في تصور الدكتور مندور ذوو أصالة فردية تتضح شخصياتهم في شعرهم ، وليسوا من الغارقين في عمود الشعر العربي وقوالبه التقليدية(١) .

وفي هذه المقالة نرى الدكتور مندور يختلف مع الأديب السوري الدكتور سامي الدروبي حينما قارن في جريدة « الشعب » بين منهج العقاد والدكتور طه حسين في كتابة الأدب . ورغم أن مندور قد قال ان الدكتور الدروبي قد ظلم العقاد حينما قال انه صاحب المنهج النفسي فقط ذلك لان منهج العقاد لا يهمل العصر والبيئة ولا التاريخ وأتى له بنماذج من كتابات العقاد عن أهمية العصر والبيئة والتاريخ كما جاء في ابن الرومي حياته من شعره . رغم هذا كله يعود في نهاية المقال فيرمي المنهجين بالقصور وأنهما غير كافيين في تعليل الأدب .

ولو سأل سائل الدكتور مندور أي المناهج يفضلها ما دام منهج العقاد ومنهج طه حسين غير كافيين في تعليل الأدب ؟ أجاب ذلك السائل بأنه منهج « لانسون » استاذه الذي ترجم له معتقداً أنه بذلك اضاف جديداً به الى اتجاهات النقد والدراسة الادبية في النهضة الفكرية الحديثة . وهذا كلام لا رد عليه من جانبنا وان كان زميلنا في العقاد الاستاذ احمد حمدي إمام قد رد عليه في الفصل الذي كتبه في كتاب « العقاد دراسة وتحية » مستعيناً بما كتبه العقاد نفسه على صفحات الاخبار بتاريخ ٧/ ٧ / ١٩٥٨ حينما سأله احد القراء عن رأيه فيما قاله الدكتور سامي الدروبي فقال العقاد :

« ورأيي أن الاستاذ الدروبي قد اصاب في اختيار مدرسة النقد التي انتمي

---

(١) العقاد ناقداً للدكتور عبد الحي دياب ص ٦٨٥ ويراجع النقد والنقاد المعاصرون ، للدكتور مندور ص ١٤٧ .

إليها وافضلها ، لولا انني لا احب ان تستغرقني مدرسة واحدة، ولا اعتقد أن الكاتب يتبع المدرسة وإنما تأتي المدرسة تالية لكتابها ، ولم يعرف تاريخ الادب مدرسة جدية يفادي بها اصحابها لينشؤوها . ولكنهم ينشئونها ثم يتولى النقاد والمؤرخون وضعها في موضعها ... اقول هذا واحيل الاديب صاحب السؤال الى كتابي عن ابن الرومي الذي أشار إليه الاستاذ الدروبي فإنه مبدوء بنحو خمسين صفحة عن المجتمع واحواله في عصر الشاعر وفيها الوفاء بحق النقد الاجتماعي في جملته ، وان اتسع المجال لتفصيل أعم من هذا التفصيل عند الكتابة عن العصر كله للمقابلة بينه وبين مختلف العصور.

كلاهما وزيادة ! هذا هو جواب الفصل عندي لكل سؤال عن مدرستين صالحتين !! أيهما ؟ كلاهما وزيادة تتمم إحداهما الأخرى ، وتتمم المدرستين معاً في خضم الأدب الواسع الذي لا يحصره تيار ، لأنه لا يقبل الحصر ولا الحصار[1] » .

هدأت المعركة بين العقاد ومندور بعض الشيء حتى نجد أنفسنا أمام مندور على صفحات جريدة الجمهورية الصادرة في ١٤ / ٦ / ١٩٦٠ يعاود الكتابة فيعيب على العقاد منهجه النفسي الذي قامت عليه معظم دراساته ثم عرج على آرائه القديمة فيما كتبه العقاد عن استعمال المتنبي للتصغير في شعره ورأيه — أي مندور — في ذلك .

ورغم أن العقاد قد أجاب مندورا على رأيه هذا في مسألة تصغير المتنبي من قبل الا أننا لا نرى بأساً من نقل فقرات من رد العقاد في هذا الصدد حيث قال :

« ان صيغة التصغير ليست أداة لصيقة بكل هجاء .. فلا يزال استخدام المتنبي هذه الصيغة بتلك الكثرة التي لم تعهد في شعر غيره أمراً يرجع إلى

---

(١) العقاد الناقد مقال الاستاذ احمد حمدي امام في كتاب « العقاد دراسة وتحية » منشورات الانجلو ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

خلائقــه الشخصية ، ويرجع البحث فيــه إلى النفسيات التي لا انفصال بينها وبين الأدب، لان الأدب قبل كل شيء تعبير عن شعور وليس أولى من النفسيات بالبحث في كل شعور .

ثم يقول العقاد بصدد الحديث عن شعر الهجاء أنه ضروب وليس بضرب واحد في اللغة العربية أو فيما عداها من اللغات ، ومرجع الأمر في تعدد ضروبه إلى تعدد النفوس وتعدد الأمزجة وتعدد الشعور الذي يشعر به الهاجي نحو من يهجوه .. فهناك هجاء الرجل الوضيع المهين ، وهنـاك هجاء الرجل المتكبر العزيز ، وهناك هجاء الرجل المهـذب الشريف ، وهناك هجاء الرجل المتوقح البذىء ، وهناك هجاء التهكم والسخرية وهجاء العنف واللدد ، وهجاء النقد ، وهجاء الايذاء، ومناط التفرقة بينها هو النفسيات وما تشمله من فوارق الحس والعاطفة ، وليس المرجع فيها إلى باب في علم النحو يتكلم على مواضع التصغير كما ذهب إلى ذلك الدكتور مندور[1].

وقد أخذ العقاد على مندور أنه أفتى بأن المتنبي لم يصغر لأنه متكبر ، بل أكثر من التصغير لسبب آخر ولم يقفنا عـلى حقيقة ذلك السبب الأخر ومن ثم يرجع العقاد تصغير المتنبي إلى النفسيات لأنهـا هي المسئولة عن الاستصغار في شعر المتنبي ولا سبيل إلى فهم الكلام بغير فهم المتكلم ، لأن الاتصال بينهما ، إنما هو ذلك الاتصال الوثيق بين المؤثرات والمعبرات ، ولا سبيل إلى العزل . بين هاتين الصلتين .

ويذهب العقاد إلى أن التاريخ كله ، والمجتمعات كلها ، لن تغنينا عن العلم بأسباب الفوارق الشاسعة بين مائة شاعر نشأوا في بلد واحد وفي بيئة واحدة وحقبة واحدة ، وكلهم – بعد هذا – مخالف لأخيه ، بل مناقض له في لفظه

---

(١) تراجع مقالات العقاد بالاخبار الصادرة ٤ / ١٢ / ١٩٦٣ ، ٢٠ / ١١ / ١٩٦٣ ، ٧ / ٧ / ١٩٥٧ . وكذلك يراجع العقاد ناقداً للدكتور عبد الحي دياب ص ٦٨٦ .

ومعناه ، وفي غرضه ومرماه .

ويضيف العقاد إلى ذلك أن تفضيلة للمنهج النفسي ناشيء عن أنه يحيط بالمناهج كلها في جميع مزاياها، ولا يحيط منهج من المناهج التاريخية أو الاجتماعية أو اللغوية أو الفنية بمنهج النقد النفسي إذا جهلنا ملامح الشاعر ، وجهلنا المميزات بينها وبين غيرها مع وحدة البيئة والزمان .

وينفي العقاد أن يكون من أشياع مدرسة «فرويد» وتلاميذه في الدراسات النفسية ، كما ينفي أنه لم يقل يوماً أن التحليلات النفسية هي غرضه من دراسة نفوس الشعراء ، ولكنه أثبت أن نفس الشاعر هي التي يرجع إليها حين تلتمس الفوارق التي لا تفسرها البيئة الاجتماعية وهي واحدة حيث يختلف العشرات بل المئات من الشعراء ، وأنه لم يكتب عن شاعر واحد من غير أن يحيط الكلام عليه بالبحوث المطولة عن أحوال عصره وعن معنى ظاهرته الأدبية من الوجهة الاجتماعية(١) .

توقفت المعارك الأدبية بين العقاد ومندور إلى أن أقامت وزارة الثقافة بمناسبة معرض الكتاب الدولي سنة ١٩٦٣ ندوات أدبية دعت إليها كبار الأدباء والنقاد . وفي ندوة الدكتور مندور حدث أن سأله سائل عن الملامح التي توضح مدرسته في النقد وما هي المميزات التي تميزها عن مدرسة العقاد ؟

فأجاب مندور سائله بقوله إن مدرسة العقاد تأخذ بمنهج التفسير النفسي للادب على حين أنه – أي مندور – يرى للادب قيما جمالية أخرى تنأى به عن النزول إلى مستوى ذلك التفسير .

نقل هذا الحديث إلى العقاد أحد قراء يومياته التي كان يكتبها بصحيفة الأخبار وأذكر ان العقاد عقب علي رسالة قارئه بمقال جعل عنوانه « في عالم النقد» بدأه بقوله :

« نحن نعرف من أسئلة الطالب الأديب أنه جيد الفهم لما يسمع، وأنه يحسن

---

(١) المرجع السابق صفحة ٦٨٨ .

السؤال الذي يجاب عنه ، ولكننا نقدر على سبيل الظن أن الكلام الذي رواه عن الدكتور محمد مندور منقول بمعناه الغالب دون ألفاظه وكلماته ، لأن المسألة هنا ليست مسألة صواب أو خطأ يقع فيه الدكتور مندور ، ولكنها مسألة وجود أو عدم ، أو مسألة كائن حقيقي في عالم الواقع أو خرافة لا تتفق صفاتها وصفات الموجودات ، إذ كان الإنسان الذي يتصدى لرسالة النقد الأدبي ويجهل أثر النفس الإنسانية في صور الجمال ومذاهب الخيال مخلوقاً وهمياً لا تصدقه العقول ، وصاحبنا هذا المندور — بحمد الله الذي يحمد على كل شيء — مساحة ثابته في الفراغ قابلة للتصديق على الأقل بشهود العيان !

وربما ساغ في عصر غير هذا العصر أن يقول القائل أنه يتجاهل القيم النفسية في تقدير شعور الأديب بالجمال وتقدير أسلوبه في التعبير عنه ، ولكن كلاماً كهذا لا يمكن أن يقال في عصر الدراسات النفسية وهي اليوم مرجع الاختبارات في كل مجال من مجالات الأعمال الصناعية التي لا تخلو معاملها الكبرى من « خبير نفساني » يقدر قيمة العامل والصانع والمهندس والمحاسب والخازن بمقاييس الاختبار التي تعول على « النفسيات » قبل تعويلها على علامة أخرى من علامات الكفاية والصلاح لأداء العمل والتعاون مع المشتركين فيه .

وهذا هو شأن القيم النفسية في الشئون المادية التي يعزها السيد المندور ولا يحسبها من المنحدرات فيما تحت القمم العالية ولا فيما تحت السراديب ، فما قوله في القيم النفسية في تقدير الشعر والشعور ؟

ويتساوى هذا الشأن الجلل في بلاد الكتله الغربية وبلاد الكتلة الشرقية على تباعد قواعد « الايديولوجية » بين الفريقين ، فليس خبراء « الأيديولوجية » في بلاد الكتلة الشرقية بالذين ينكرون شأن « النفسيات » عند الاستدلال على الاعمال وعلى ثمرات الفنون والصناعات ، ولا هم ممن يهملون تعبيرات النفس ويرفضون النظر إلى حسناتها وسيئاتها في ضوء الدراسات الحديثة ، وكل ماهنالك أنهم يرجعون بأسباب الحسنات والسيئات إلى تمام الموافقة بين الإنسان والبيئة

الاجتماعية أو إلى نقص الموافقة بينهما ..

أما أن نفس الشاعر أو الاديب تدل عليه وعلى مجتمعه فذلك هو « المستوى» المعقول ولا منحدر عنه لمن يحمل رأساً آدمياً فوق قدمين اثنتين » .

ثم يواصل العقاد رده قائلاً :

« ونحن قد نقول في نقد الاشياء التي لا نفوس لها إن القطن – مثلاً – يعرف بفتلته ولونه ورائحته وشكله مع شكل بذوره ولا ينفي ذلك أنه نبت في حقل تنبت فيه ألوان شتى من الزروع والغلال .

فاذا عرفنا القطن بهذه العلامات فقد عرفنا منه كل ما يستحق أن يعرف في المصنع والسوق على أجسام لابسيه .

أما إذا كان قصارانا من المعرفة أن نذكر مساحة الحقل بالفدان والقيراط ، وأن نذكر موقعه من المنوفية أو الجيزة ، وأن نذكر سماده الكيمي أو الكفري ، فقد بقيت كل قيمة صناعية أو طبيعية لذلك القطن مجهولة مفتقرة إلى البيان ، وجاز أن يكون ذلك الحقل منبتاً لثمرات شتى من القمح والشعير والكتان ، فضلا عن شتى الاصناف والألوان من الاقطان؟

وان مدارس النقد الادبي لكثيرة في الازمنة الماضية وفي هذا الزمن الذي شاعت فيه الدراسات النفسية أيما شيوع ، وإننا نقدرها كل قدرها ونقدر الكثيرين من من أعلام النقد الذين تناولوا الاعمال الادبية على أصولها .

نحن نقدر المدرسة التاريخية كما نقدر المدرسة الاجتماعية ، ونقدر المدرسة الفنية ، كما نقدر معها المدرسة اللغوية والبلاغية .

وكل منها قد دل على شيء من قيم الادب لا نستغني عن الدلالة عليه . ولكننا نفضل عليها المدرسة النفسية لان المدرسة النفسية تغنينا عنها ، ولا تلجئنا إلى مزيد من البيان بعد المعرفة لنفس الشاعر وبواعثها الظاهرة في معانيه وألفاظه وأسلوبه وأغراضه النفسية المتمثلة في تلك المعاني والألفاظ وذلك الاسلوب .

ونحن نعرف كل ما نريد أن نعرفه وكل ما يهم أن يعرف متى عرفنا نفس الشاعر وعرفنا كيف يكون أثرها في كلامه، وكيف يكون أثر هذا الكلام في نفوس الناس .

ولكن المدارس الاخرى لا تكفي هذه الكفاية للعلم بالشاعر وشعره . لا تكفي مساحة الحقل ولا موقعه من المنوفية أو الجيزة ، ولا نوع السماد الذي بذروه في أرضه – إذا جهلنا بعد ذلك كله ما هو الفرق بين أصنافه وما هو الفرق بين أصناف القطن وأصناف النبات الذي يزرع معه في أرض واحدة » .

وختم العقاد مقاله هذا بقوله موجهاً الكلام للقراء :

« ولينحدر الدكتور المندور أو يرتفع .ولينزل المندور الدكتور أو يطلع . وليشرق حيث يحب ويهوى أو يغرب ويستغرب . وليكن حيث كان فيما يحسبه على هواه في عليين .

اننا لراضون أن نقيم حيث نحن مقيمون لان مكانا لا محل فيه للنفس الإنسانية ولا للقيم النفسية . نحسبه نحن أسفل سافلين ، ولا الضالين .. آمين آمين[1] »

بعد ذلك تعرض مندور مرة أخرى لآراء العقاد في الشعر الجديد المسمى بالشعر الحر مؤيداً من يدعون إليه ويروجون له ولم ينس أن يضمن فقرات من مقاله بالتعقيب على ما جاء في مقال العقاد السابق فما كان من العقاد إلا أن خرج على قرائه بمقال كان خاتمة مطافه في معاركه الادبية مع الدكتور مندور .. جعل العقاد يوم ذاك عنوان مقاله « شيخ النقاد .. هل ولد ؟ اسألوه ؟ » بدأه قائلاً :

« شيخ النقاد – بلا قافية » – ينسى دروس صباه .. يا ولداه !

---

(١) يوميات العقاد صحيفة الاخبار الصادرة ٢٠ / ١١ / ١٩٦٣

وشيخ النقاد – بشهادته لنفسه – هو الدكتور المندور .

ودروس صباه التي ينساها هي دروس كثيرة جداً نستعيد منها في هذه اليوميات درساً واحداً صغيراً كان موضوعه التصغير في شعر المتنبي . شاعر العربية الكبير .

وبلا قافية ليست من مخترعاتنا نحن ، ولكنها هي مذهب الشيخ المندور – شيخ النقاد – بعد دعوته إلى الشعر الذي يكون شعراً ويسمى شعراً ويلغي الشعر كله بلا وزن ولا قافية ... ولماذا لا يسمى نثراً ونخلص من القاء الاوزان والقوافي ؟! هكذا والسلام ، على عهدة المشايخ الكرام .

وحديث هذا الدرس يرجع عشرين سنة الى أوائل سنة ١٩٤٣ ، ثم يرجع قبل ذلك نحو عشرين سنة والى أواخر سنة ١٩٢٣ » .

ثم تحدث العقاد عن معركته مع مندور حول التصغير والمتنبي وما دار بسببها معه من مناقشات على صفحات « الرسالة » و «الثقافة » حيث كان مندور ينشر مقالاته ثم واصل مقالته هذه قائلاً :

« كان في هذا البلد طائفة قليلة أطلقوا على أنفسهم لقب « أدباء الشباب» كهذه الطائفة التي تلقب نفسها اليوم بهذا اللقب وتحصر جهودها في غرض واحد وهو هدم شيخ واحد فقط لا غير يسمى « عباس العقاد» .

وإنما الفارق بينها وبين أخت لها بالامس أن أختها كانت تتعلل بهدم أدب الشيوخ وتخص « عباس العقاد » وحده بالشيخوخة .. مع أنه لم يكن يجاوز الاربعين ، ثم تقوم وتقعد بنشر الدعوة لأحمد شوقي وخليل مطران ومحمد المويلحي وأصغرهم قد جاوز الستين .

أما أخت تلك الطائفة ممن يسمون أنفسهم اليوم بأدباء الشباب ففي الصبغة الحمراء تفسير لما يعلنون ويضمرون ، وفي غير ذلك من العلل تفسيرات أخرى تتفرع إلى فروع شتى ، يبرز بينها أصحاب الدجل الديني وأصحاب الدجل

الحزبي وأصحاب الدجل من كل طائفة تعرضت للحملة عليها من كاتب هذه السطور ، وتتخللهم ، جميعاً طائفة المغرورين بالألقاب المدرسية ، وليس عندهم من محصول الثقافة غير الغرور والقشور .

ولقد كان مسلكنا مع هؤلاء المتربصين بنا – على ألوانهم الكثيرة – أن نعرض عنهم ونتركهم يهدمون ما استطاعوا ليعلموا بعد حين أن الغبار الذي يثيرونه إنما هو أنقاضهم الهزيلة تتهاوى فوق رؤوسهم وتتساقط تحت أقدامنا دون أن تحوجنا بعد ذلك حتى إلى الطلاء لتلميع الحذاء .

فما أجبنا أحداً منهم إلا أن يكون في كلامه موضوع سؤال نتلقاه من أصدقائنا القراء ، ويومئذ نعرض له بالبيان الضروري لأنه حق للقارىء على كاتبه الذي يحرص على تمحيص آرائه بين الموافقين لها والمعترضين عليها .

وكان شيخ النقاد في تلك الأيام من « صبيان النقد » بلا قافية .. قبل ثلاثين سنة .

وكان همه في هذه السنين جميعاً يتبع ما نقوله بالانكار والتسفيه في الجملة والتفصيل كأنما قد خلقنا الله معجزة أخرى من معجزات الخلق في هذه الدنيا : وهي معجزة العصمة من الصواب ، ولعلها أندر من معجزات النبوة التي تتصف بالعصمة من الأخطاء .

كل ما نقوله خطأ ، وكل ما يكتبه شيخ اليوم ، صبي الأمس بلا قافية ، تصريح أو غمز بالاعادة والابداء في تسفيه كل ما نقول :

شعرنا ليس بشعر ، لأن شعر « الهمس » هو الذي يرتضيه شيخ النقاد وقد نسي شيخ النقاد أنه الناقد الاجتماعي العصري الصناعي المادي الذي لم يكتب حرفاً واحداً في نقد المذهب الماركسي ... ثم نسي مع ذلك أن « الهمس » آخر أساليب التعبير عن ضوضاء الصناعة وثورات الاجتماع .

والقصيدة يجب أن تكون بغير ترتيب ولا انتظام بين معاني الأبيات : لأننا نحن نقول في الشعر بوحدة القصيدة .

والوزن والقافية فضول في الشعر العربي عند شيخ النقاد : رأي لم يقل به الشيخ ولم يتحمس له إلا بعد أن أصبحت معارضتنا له هي « بيت القصيـــد » وأصبح الواضح في رأينا أن الوزن أصل من أصول الـكلمات العربية فضلاً عن القصائد والأبيات ، فلا يوجد في لغة الضاد لفظ واحد له معنى بغير وزن يقاس عليه ، ولا يوجد في اللغات الاوروبية لفظ واحد له وزن مقصود.

والأدب يجب أن يؤخذ سطوراً وشطوراً بغير نفوس ... لأننا نحن نعتمد على التعبير ونعتمد في التعبير على الفوارق بين نفوس المعبرين .

وكل إنسان في هذه الدنيا لا يستحق عند الشيخ حرفاً من الثناء إلا بمقدار ما في الثناء عليه من التعريض بكاتب هذه السطور .

ثم المرأة وما أدراك ما المرأة عند مولانا الشيخ ؟ ... انهـا سيدة الرجل لأننا نحن نقول انها والرجل جنسان لم يختلفا تركيباً وخلقاً ليصبحا نسخة مكررة ، وان المرأة يعيبها أن يقال عنها انها كالرجل كما يعيب الرجل أن يقال عنه إنـه والمرأة سواء .

والثقافة العربية لابد أن تتأخر عن الثقافتين اليونانية والعبرية — عنوة — لأننا نحن نقول بقدم الثقافة العربية ولا نقول ذلك عبثاً بل نسنده بكل دليل من التاريخ والفكر السليم ، لأن اليونان استعاروا «حروفهم» الابجدية من حروف العرب ، وليست « ألفا .. بيتا .. جما .. دلتا « إلا » أبجد بعينهـا » لأن الابجدية العربية أكمل من أبجدية اليهود ، ومشتقات لغة الضاد تمت قبل المشتقات في سائر اللغات السامية ، ونظم الشعر العربي أسبق من نمط الشعر العبري الذي لا وزن فيه إلى الآن ... وقد كان لإبراهيم وموسى معلمون من أبناء العرب على تخوم العراق وفلسطين .

وكدنا نعتقد أننا لو استطعنا يوماً إن نقول أن « المندور » هو شيخ النقاد حقاً لظهر في الغد مقال بتوقيع المندور نفسه يقسم فيه أن هذا المندور جنين لم

يولد بعد ، أو يصبح فيه هذا المندور بعينه ومينه عقاداً آخر مبرأ من الحسنات معصوماً من كل قول وعمل غير المساوىء والسيئات .

* * *

وعلى هذه السنة كتب « المندور » قبل ثلاثين سنة ينكر رأينا في ولع المتنبي بالتصغير ، وينكر أن يكون للتصغير في شعره شأن غير شأنه في دواوين عامة الشعراء ، ولن يقول بذلك أحد فتح ديوان المتنبي في حياته مرتين على صفحة من الصفحات ... »

ولو أن شيخ النقاد أراد أن يفهم جلية الرأي لفهم من هذا الدرس الصغير ما هو كفيل بتصحيح خطئه .

ولكن الآراء عند شيخ النقاد لا تنقسم إلى صواب وخطأ ، وإنما تنقسم إلى رأي نقول به فهو خطأ لا صواب فيه ، ورأي يعارض ذلك الرأي فهو الصواب كل الصواب » .

* * *

ثم ناقش العقاد ما قاله مندور في ندوة الكتاب العربي حينما سأله سائل عن الفرق بين مدرسة العقاد في النقد وبين مدرسته وقد أشرنا إلى هذا الموضوع في المقال السابق وفي الصفحات السابقة .

ثم عقب العقاد مواصلا مقاله فقال :

« وعلى السنة التي توخيناها قديماً لم نعرض لكلام الدكتور المندور في الندوة حين نقل إلينا ، ولكننا عرضنا له حين سألنا عنه أحد أصدقائنا القراء في اليوميات ، وجاء بعد ذلك جواب المندور في الصحيفة الصباحية فاذا هو أحق بالتصحيح مما ورد في سؤال القارىء الصديق من وجوه كثيرة » .

ثم قال العقاد :

« ولا جديد في قول صاحبنا عن كاتب هذه السطور : « ان الأستاذ قد

اهتبل هذه الفرصة لـكي يشن هجوماً دونكيشوتياً صاخباً لاشيء فيـــه من وداعة وحكمة سانكوباترا ... وما حيلتي في العملاق الباطش العقاد المعقود » .

ولا جديد في هذا الادعاء إلا أنه ينم على شيء من اللباقة تعلمه المندور في السنين الثلاثين . فنحن نحن الذين نلاحقه بالحملة الدونكيشوتية بغير حكمة ،وهو هو – وياللبراءة – ذلك المظلوم الذي لا حيلة له في تلك الغارة القديمة التي جعلتنا نترصد له في كل مناسبة وغير مناسبة ،والتي بدأنا بها حياتنا القلمية لنهدمه قبل أن توضع فيه طوبة إلى طوبة ، وقبل أن يترقى في « كادره » الخاص إلى مشيخة النقاد .

إنها لباقة يا شيخ ؟

لكنها لباقة في « زعبوط » لم يتغير لون فروه الأصيل .

ومن ذا يغفل عن ذلك « الزعبوط » المعتبر حتى يبحث عن الطرفين المتهمين من منهما البادىء في كلمته ، ومن هو المجيب بعد إعراض وسؤال[1] ؟ »

* * *

(١) يوميات الاخبار للعقاد بتاريخ ٤ / ١٢ / ١٩٦٣ .

محمود أمين العالم
و
عبد العظيم أنيس

لا يختلف اثنان في أن ثورة العقاد الشعرية التي شنها بمعاونة زميليه عبد الرحمن شكري والمازني على أتباع القديم وعلى رأسهم الشاعر الكبير أحمد شوقي كان محورها افتقار شعر شوقي إلى «الوحدة العضوية» Organic Unity التي تكون الأساس للعمل الفني الكامل . ففي رأيهم أنه كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقي بأنغامه ، فان القصيدة الشعرية كالجسم الحي لا يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغني عنه غيره في موضعه اللهم إلا إذا أغنت الاذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة .. لذلك عاب العقاد شعر شوقي لأنه يرى أن القصيدة حينما تفقد الوحدة العضوية تكون ألفاظاً لا تنطوي على خاطر مطرد أو شعور كامل بالحياة بل هي كأمشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض وكلما سفل الشيء في مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه وليس معنى هذا أن العقاد يريد تعقيباً كتعقيب الاقيسة المنطقية أو تقسيما كتقسيم مسائل الرياضة ، وإنما يريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر ، فتكون كالاشياء المعلقة أشبه منها بالاعضاء

غير المنسقة[١] .

من هنا عاب دعاة المذهب الجديد شعر من سبقوهم . فاذا جاءك اليوم من يقول ان العقاد لم يفهم «الوحدة العضوية» وانه لم يفهم الكلام الذي قرأه لأرسطو ومن جاؤا بعده . فماذا يكون حكمك عليـــه ! قال هذا القول الاساتذان محمود أمين العـالم وعبد العظيم أنيس في كتابهما في الثقافـــة المصريـــة قبل سنوات.

يقول الناقدان ان الوحدة العضوية التي كانت في ذهن العقاد هي وحدة الموضوع ، وحدة الخاطر ، وحدة المعنى ، وحدة العنوان لا أكثر ولا أقل كما أن الوحدة الفنية عنده هي الوحدة المعنوية لا الوحدة العضوية .

واستدل الناقدان على عدم فهم العقاد لمعايير النقد الأدبي وفي مقدمتهـــا الوحدة العضوية بدراسة العقاد لابن الرومي ، فانـــه طالما تحدث عن الوحدة المعنوية وعن الوحدة الموضوعية ذاتها لسقطة فكرية سقطها العقاد إذ تصور ان فهمه للوحدة هو نفسه القول بالبنية الحية ، أو الوحدة العضوية للعمل الادبي ، كما أخذا على العقاد في أن دراسته لابن الرومي سطحية للغاية ، وانها من خارج الشعر لا من داخل تراكيبه وعلاقاته الفنية ، على الرغم من ان ابن الرومي يتميز في بعض شعره بوحدة عضوية حقيقية تستطيع الدراسة الجادة ان تستقصيها عنده وعند بعض الشعراء ، وبخاصة شعراء العصر الجاهلي والشعراء الصعاليك[٢] .

ومن أعجب ما رمى به العالم وأنيس العقاد أنه رغم مناداته بوحدة عضوية فنية للعمل الأدبي وهو ما ينادي الناقدان به إلا أنه لم يفهم ما قالاه ، وذلك

---

(١) الديوان للعقاد ص ٨٧ .

(١) في الثقافة المصرية لمحمود أمين العالم وعبد العظيم انيس ص ٦٠ وما بعدها ويراجع عبد الحي دياب — العقاد ناقداً ص ٦٩٧

لأنهما لم يقفا عند حدود من قال بالوحدة الداخلية للقصيدة وإنما تجاوزا هذا الموقف بما يأتي :

(أ) لم يعتبرا العلاقة بين المضمون والصياغة علاقة ثابته جامدة ، بل اعتبرا أنهما عمليتان متفاعلتان حيتان .

(ب) أضافا عاملا ثالثاً في بناء العمل الفني وهو المضمون — لا كمجرد مضمون — بل كموقف اجتماعي .

(ج) انهما لم يقفا عند حدود النقد الفني البحت ،ولا النقد الاجتماعي البحت للعمل الفني ، بل كشفا عن مقدار الترابط والتداخل الحي بينهما، وحددا طبيعة البنية الحية ،وكشفا عن كل العناصر المكونة لها ولم يفصلاها عن المضمون الاجتماعي ويرى الناقدان أن هذه الأسس من ابتداعهما وقد قصر العقاد في ادراكها وفهمها على حقيقتها .

ولعل مما يدهش القارىء أنه يرى ان الناقدين الحصيفين قد أخذا على العقاد شيئاً كان هو من أول النقاد العرب الذين تكلموا به وحاسبوا الشعراء الذين لم يأخذوا به حساباً عسيراً وهو الوحدة العضوية في العمل الادبي بصفة عامة ، وفي الشعر بصفة خاصة . ومن هنا نرى مدى مجانبة الناقدين للصواب حين يقولان: ان العقاد يرى كالنقاد القدامى ، أن وحدة الشعر «البيت» لا القصيدة، متغاضين أو متناسين مئات المقالات والابحاث التي كتبها العقاد وطالب فيها بأن تكون القصيدة بنية حية متصلة أبياتها إتصال الاعضاء في الجسم الحي . وحارب فيها مذهب القدماء القائل بأن وحدة الشعر هو البيت ، وليس أدل على ذلك من قوله : « ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة حبات عقد تشترى كلها بقيمتها فلا يفقدها إنفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها ، وهذا أول دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس وقصر الفكرة وجفاف السليقة[1] .

ويجانب الجانبين الصواب — أيضاً — حينما يأخذان على العقاد أنه لا يدخل

---

(١) العقاد ناقداً للدكتور دياب ص ٦٩٩ .

في حسابه الموقف الاجتماعي حين تحدث عن مضمون العمل الفني ولسنا ندري كيف فات الناقدين ان للعقاد نصاً صريحاً يرد هذه الفرية رداً عنيفاً. فقد كتب عن آفـة أدبنا المصري من قبل وذهب إلى أنـه يعيش بمعزل عن الامة حينما قال :

« ان العزلة بين الشعب والحكومة والفوارق الدائمة بين الحياة القومية والحياة الرسمية هي علة الجدب الغريب الذي يلاحظ على آداب مصر « الرسمية » أي الآداب التي تجري على تقاليـد الحاكمين والسروات في العصرين القـديم والحديث » .

والعقاد حينما يذكر في كتاباته كلمة الشعب فإنما يعني مجموعة من النفوس والضمائر والاذواق والاخلاق لا مجموعة من البطون والمعدات والجلود كما ينظر إليه الاريبان .

بقي شيء واحد من بين كل ما قال به الناقدان هو أنهما وجها هذا البيان الادبي إلى عميد الادب العربي الدكتور طه حسين معتقدين أن في هـــذا إغاظة للعقاد .

بعد كل هذا البيان وهذه الإغاظات نرى العقاد يخرج على صفحات الاخبار ليكتب مقالاً كبيراً بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٥٤ يرد فيه على الناقدين الجديدين تحت عنوان « اقرءوا ما تنقدونه » بدأه بقوله :

« يعلم أصدقائي أنني لا أحفل بالاقاويل التي تكتب عني في بعض الصحف، وأنني قلما أتم قراءتها إذا بدأت فيها .

ومنهم من كان يتطوع للرد عليها فأرجوهم ألا يكلفوا أنفسهم هذه المشقة في الشئون الشخصية . بل حدث منذ سنوات أن أحدهم كتب رسالة خاصة في البريد المستعجل إلى صحفي معروف على أثر كلام عني نشره في صحيفتـــه . ثم أخبرني بذلك فرجوته وألححت عليه أن يستردها من مكتب البريد وحمدنا يومئذ إهمال المكتب أو كثرة العمل على موظفيـــه .. لأن الرسالة « المستعجلة »

بقيت إلى اليوم التالي ولم تسلم إلى صاحبها بعد تفريغ الصندوق كما هو المفهوم .

لكن الصديق الفاضل الذي خالف هذه السنة في الاسبوع الماضي مشكور أجزل الشكر على هذه المخالفة، لأنه في الحق قد أطلعني على نادرة من نوادر الحياة الأدبية لم أعرف لها سابقة في كل ما وقفت عليه من تواريخ الآداب قديمها وحديثها ، وشرقيها وغربيها ، وما جد منها وما هزل .. وكان يفوتني ولا شك شيء لا يتكرر في كل جيل ولا في كل عشرة أجيال، لو أنه أعقله ولم ينبهني إليه، وما كان بالحسن أن يفوتنا شيء كهذا في وقت من الأوقات .

ماذا يقول القارىء إذا سمع أن كاتباً كتب تاريخ «أحمد عرابي» ليقول انه هو خديوي مصر الذي ثار عليه الفلاح محمد توفيق ؟

وماذا يقول القارىء إذا سمع أن كاتباً تصدى لنقد حكيم المعرة فزعم أنه رجل عربيد ، قضى حياته في معاقرة الخمر وأكل لحم الخنزير ومطاردة النساء على قوارع الطرقات .. ؟

شيء من هذا ، بل أغرب من هذا قيل عن كاتب هذه السطور : وهو أنني جامد على مذهب الأقدمين في نقد الشعر والأدب، وأنني لا أفهم وحدة القصيدة ولا أصول البنية الحية في الكتابة ، وخير من الاستطراد في الحكاية عن هؤلاء القائلين أنقل هنا كلامهم كما قالوه .. قالوا أفادهم الله :

« نجد هذا في الحكم النقدي وفي التعبير الأدبي نثره وشعره على السواء وكما كان نقاد العرب القدامى يعدون بيتاً من الشعر أبلغ ما قالته العرب ، وبيتاً آخر أهجي ما قالته العرب ، وبيتاً ثالثاً أمدح ما قالته العرب ، وإلى غير ذلك من أفعال التفضيل ، ولا يزال نقادنا وأدباؤنا من المدرسة القديمة يحتفلون كذلك بهذا المعنى الواحد أو البيت المنفرد لما فيه من أسلوب رائق ومعنى شائق .. فالعقاد مثلاً يترنم بهذا البيت :

وتلفتت عيني فمذ خفيت ... عني الطلول تلفت القلب

فلا نلبث أن نقرر أنه يساوي عنده ألف قصيدة .. لماذا .. ؟ لأن العقاد مثله في ذلك مثل بقية أدبائنا القدامى ، ولا يبصر بالظاهرة الأدبية في الوحدة العضوية المتكاملة للعمل الأدبي ، وإنما في البيت ، في المعنى ، في النادرة اللطيفة ، في العبارة المفردة » .

أعلمت أيها القارىء إذن ما هو مذهب العقاد ...؟ مذهبه في الأدب هو ذلك الخلط الذي قضى حياته ينحي عليه وينكره ويشرح عيوبه وسخافاته ، ثم لا يعدم اللاغطون بهذا اللغط المخجل صحيفة يومية تنشره لهم بالعناوين العريضة وتزعم لقرائها أنها تنشر عليهم بياناً جديداً عن « الأدب بين الصياغة والمضمون من عبد العظيم أنيس ومحمود أمين العالم » . وهما — فيما علمت — أستاذان في مدارس ثانوية أو عالية .. ويا لخيبة الأدب والتعليم إن صح ما علمناه !

من سنة ١٩٠٩:

إن قراءنا كادوا يتهموننا باللت والعجن بل بالافراط في اللت والعجن ، لكثرة ما كتبناه وأعدناه في هذا المعنى منذ نيف وأربعين سنة .

منذ حملنا القلم في الصحافة ونحن نكتب ونعيد أن القصيدة بنية كاملة وأن الاعجاب ببيت القصيد جهل بالشعر والأدب وميزان في النقد يجب أن نحطمه ونعفي عليه ..

وفي سنة ١٩٠٩ نشر حافظ إبراهيم قصيدته التي يقول في مطلعها :

لقد نصل الدجى فمتى تنام أهم ذاد نومك أم هيام

فكتبنا في صحيفة الدستور ما خلاصته أنه أخذ قطعة من الحرير وقطعة من المخمل وقطعة من الكتان ، وكل منها صالح لصنع كساء فاخر من نسجه ولونه ، ولكنها إذا جمعت على كساء واحد فتلك هي « مرقعة الدراويش » .

الى سنة ١٩٢١:

وفي سنة ١٩٢١ أصدرنا كتاباً مستقلاً لنقد الشعر الذي لا تلاحظ فيه بنية

القصيدة، وقلنا في الصفحة السابعة والاربعين من ذلك الكتاب، كتاب الديوان:

« .. ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضواً متصلاً بسائر أعضائها. فيقولون أفخر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد، كأنما الأبيات في القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئاً من جوهرها ».

وقلنا قبل ذلك ان « القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الاذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة، أو هي كالبيت المقسم لكل حجرة منها مكانها وفائدتها وهندستها ».

وختمنا هذا البحث قائلين: « إننا لا نريد تعقيباً كتعقيب الأقيسة المنطقية ولا تقسيماً كتقسيم المسائل الرياضية وإنما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر، فتكون كما أسلفنا بالأشلاء المعلقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة .. »

الى سنة ١٩٢٨.

وكتبنا في البلاغ سنة ١٩٢٨ جواباً عن سؤال من الأستاذ عبده حسن الزيات عن الفرق بين الشعر العربي القديم والشعر الانجليزي على عمومه فقلنا بعد شرح طويل:

« ... ومن هنا كانت وحدة الشعر عندنا البيت وكانت وحدته عندهم القصيدة ... فالأبيات العربية طفرة بعد طفرة والأبيات الانجليزية موجة تدخل في موجة لا تنفصل من التيار المتسلسل الفياض»

وقد طبعت هذه المقالة مع ثماني مقالات من قبلها في مجموعة « ساعات بين الكتب » وظهرت من هذه المجموعة حتى الآن ثلاث طبعات.

الى سنة ١٩٣٠:

وفي سنة ١٩٣٠ ألفنا كتابنا عن ابن الرومي خصيصاً لشرح الأسباب التي

تدعونا إلى الاعجاب به وأولها أنه أقرب الشعراء الاقدمين إلى المذهب الذي نختاره وأن عصره أول العصور التي فطنت لتجديد الشعر على هـذا الاسلوب .

واستشهدنا في الصفحة السادسة والاربعين بكلام الحاتمي حيث يقول :

« مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالمه .. »

ثم استقصينا الشواهد من قصائد ابن الرومي وعقبنا عليها في الصفحة (٣١٦) فقلنا :

« ان العلامات البارزة في قصائد ابن الرومي هي طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتاً متفرقة يضمها سمط واحد قل أن يطرد فيه إلى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق توالياً يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل ، والتحوير ، فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة كلا واحداً لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أراد ، على النحو الذي نحاه . فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الاغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ولو خسر في سبيل ذلك اللفظ والفصاحة » .

الى سنة ١٩٤٧ :

وفي سنة ١٩٤٧ كتبنا في مجلة الكتاب خلاصة شروط الشعر الحسن فعددنا في أولها أن الشعر قيمة إنسانية وليس بقيمة لسانية ، ثم قلنا : « ان القصيدة بنية حية وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد . فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع الأبيات فيه ولا تحس منه تغييراً في قصد الشاعر ومعناه » .

وهذه المزية خاصة هي المزية التي شرحناها وكررناها وعدنا إليها خلال هذه

السنوات في مقالات متفرقة، وتداولها القراء في كتب متوالية أعيد طبعها ثلاث مرات وأربع مرات، ومنها كتاب أعيد طبعه بعد أسبوع واحد وهو كتاب الديوان، ولم يسبق لكتاب عربي حديث مثل هذا الذيوع والانتشار .

والأدب للمجتمع قبل ربع قرن :

وقبل ربع قرن – أي قبل أن يعرف الأدعياء كيف يتهجون كلمة المجتمع كنا نكتب فنقول إن آفة الادب المصري أنه يعيش بمعزل عن الأمة ، فما هو السر إذن ؟

فما هو السر إذن في تلك الحملات المكذوبة التي تصطدم بالواقع هذا الاصطدام العنيف ؟

السر الذي لا يحتاج إلى بحث طويل أنها حملات لغير وجه الادب والأمانة الثقافية ، فلو كانت لوجه الادب لكان كاتب هذه السطور حقيقاً بالحمد والثناء ممن يقتدون بمذهبه بعد أربعين سنة من نشره وترديده وتوكيده ، وسواء كان هؤلاء الادعياء قد اطلعوا على مذهبه فتجاهلوه أم حملوا عليه دون ان يطلعوا عليه فالحقيقة الباقية في الحالتين أنه مقصود بالحملة لغير وجه الادب والامانة الثقافية .

وقد فهمنا :

نعم .. وقد فهمنا ولا حاجة بنا إلى ذكاء خارق لنفهم ما وراء هذه الحملة أو هذه الحملات من أناس يترنمون بالخواجة « إيليا اهرنبرج » وأمثاله ، ويكتبون ذلك صريحاً بعد ما نقلناه من كلامهم فيقولون :

« لو قارنا بين هذه الرواية ورواية العاصفة لايليا اهرنبرج لوجدنا فارقاً ضخماً في المضمون وفارقاً ضخماً في الصياغة كذلك ، فرواية اهرنبرج لا تصور واقعاً مريضاً متحللا بل معركة تتابع عملياتها المتطورة من الكفاح المرير للقضاء على

الاخطبوط النازي في أوروبا وما يواجه هذه العمليات من عقبات وصعاب .. »

إلى أن قالوا : « ولو قارنا بين اليوت وشاعر آخر هو ما يا كوفسكي لوجدنا كذلك فارقاً ضخماً في المضمون والصياغة .. فما يا كوفسكي فنان صائغ للشعر كذلك ولكنه يمجد الحضارة الصناعية الحديثة ويستبصر بالحركة الصاعدة للتاريخ ..

فمن هو اهرنبرج ؟ ومن هو مايا كوفسكي ؟

إهرنبرج يهودي روسي ألف رواية « العاصفة » لشفاء حزازة اليهود من المانيا النازية ، لا لوجه الادب ولا لوجه الإنسانية ! .. وجاراه الدعاة الشيوعيون في الحملة على المانيا يوم كانت تحاربهم ويحاربونها ، فلما دارت الدفة بعد الحرب العالمية وبدا لأولئك الدعاة أن يتقربوا من الألمان ويمهدوا لضمهم إلى الحدود الحمراء أمروه بأن يؤلف في غير هذا الموضوع ، وحولوه إلى الميدان الفرنسي فوضع روايته الجديدة بعنوان « الموجة الاخيرة » ليشيد فيها بهمة الشيوعيين الفرنسيين وينعي فيها على الجمهورية الذاهبة ما ينعاه أولئك الدعاة !

أما ما يا كوفسكي فهو الشاعر الشيوعي الذي إنتحر سنة ١٩٣٠ ولحق بزميله بسيسني الذي انتحر قبله بخمس سنوات ، وأولهما لم يجاوز السابعة والثلاثين والثاني لم يجاوز الثلاثين ..

وهذا هو المثل الأعلى عند أصحابنا للشعر الحي في سبيل الحياة !

فإذا كان هذا هو الادب المطلوب منا فقد فهمنا وفهم الناس ووجب على هؤلاء الأدعياء إن كان لهم نصيب من أمانة الثقافة أن يدعوا هذه المماحكة ويعلنوا الحقيقة ولا يضللوا بقرائهم فيخدعوهم باسم الادب وهم لم يطلعوا على حرف مما ينقدونه ويفترون الكذب على ذويه[١] ».

---

(١) اخبار اليوم ٢٧ / ٢/ ١٩٥٤ مقال العقاد وتراجع يوميات ج ٢ ص ١٣ وما بعدها .

وختم العقاد يومذاك مقاله هذا موجهاً كلامه للدكتور طه حسين الذي وجه الناقدان إليه هذا البيان عند نشره فقال:

« وبعد ضبط هؤلاء الأدعياء — ولا نقول مناقشتهم — يؤسفنا أن ننتقل من حديثهم تواً إلى حديث مع الدكتور طه حسين ، ولا يسوغ عندنا هذه النقلة إلا أننا نبدؤها بتعزية واجبة للدكتور ، حماه الله السوء ووقاه فضول الدعوى والادعياء .

لقد نسينا أن هذين الامامين المجددين وجها البيان إلى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ، وليس في الدنيا مصيبة أحق بالتعزية من عمادة يبايع عليها هذان ، وما أشبه هذين[1] » .

---

(١) المرجع السابق .

توفيق الحكيم أو راهب الفكر

لا يذكر المسرح المصري المعاصر دون أن يقفز إلى الاذهان اسم توفيق الحكيم . فهو راهبه المفكر دون منازع ، وهو أحد القلائل الذين وهبوا فنهم وحياتهم من أجله . فكان نتيجة لذلك البذل والعطاء أن كرمته الدولة فخلعت اسمه الكريم على أحد مسارحها الكبرى بالقاهرة .

وتوفيق الحكيم منذ نشأته الأدبية حتى اليوم لم يترك القلم إلا ليستريح بعض الوقت ريثما يعاود الكتابة في قصة أو مسرحية يستمد موضوعها من واقعنا المصري الذي يعيش فيه بيننا كما يعيش الفنان الحساس المرهف الشعور .

ومن الأشياء التي عرفتها الأجيال في مفكرها المسرحي الكبير أنه نادراً ما يثير خصومة أو يدخل معركة أدبية كتلك المعارك التي خاضها زملاؤه من مفكرين وأدباء .. فهو حريص دائماً على اتباع الاسلوب الدبلوماسي الذي يرضي جميع الناس .

ورغم أن توفيق الحكيم قد حرص منذ شبابه على أن تكون علاقاته بزملائه لا تشوبها الخصومات والمعارك النقدية إلا أن حرصه هذا قد خانه في أكثر من مرة .. فقد رأى الحكيم أن الجو الفكري قد ملأته الخصومات والمعارك بين

أعلامه قبل سنوات فما كان منه إلا أن دعا إلى الصفاء[1] ونادى به على صفحات مجلة « الرسالة » الغراء والتي كان يصدرها المرحوم أحمد حسن الزيات .

ورغم الحرص الشديد الذي يتحراه الحكيم حينما يكتب عن غيره من الأدباء، إلا أن قلمه انزلق به وهو يتحدث عن علاقة زميله الدكتور طه حسين بالعقاد فأوقعه بين براثن العقاد العنيف ونشبت بين المفكرين الكبيرين معركة أدبية كبرى شهدتها الأجيال السابقة .

وتتلخص خصومة العقاد وتوفيق الحكيم في أن الدكتور طه حسين كان قد أهدى قصته « دعاء الكروان » إلى الاستاذ العقاد . ويومئذ كتب العقاد مقالاً يحيي فيه صديقه الدكتور طه على قصته ويشكره على اهدائه إياها له . فقال في خاتمة ذلك المقال :

« يا دعاء الكروان !

موعدنا معك الفضاء الرحيب كلما أوغلت بنا الذكرى في أغوار ينقطع ما بينها وبين الفضاء الرحيب .

ومن دعائك أنك جذبتنا خمسا وعشرين سنة أو جذبت إلينا تلك السنين الخمس والعشرين ، وأنك أوحيت إلى طه ما يوحى ، فإذا به يفتح لنا فضاء الليل وما فيه من أصداء وأشباح ، ويفتح لنا فضاء النفس الإنسانية وما فيها من اصداء وأشباح ، وإذا به يلقي إلينا بعاصم في الفضاءين من ذلك الحبل السريع الخاطف ، ففيه لياذ بالنجاة .

قال صديقنا الدكتور طه حسين وهو يهدي إلينا (دعاء الكروان) : « أنت أقمت للكروان ديوانا فخماً في الشعر الحديث ، فهل تأذن في أن اتخذ له عشاً

---

(١) تراجع الرسالة ٨ يونيه سنة ١٩٤٢

متواضعاً في النثر العربي الحديث ، وأن أهدي إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق مخلص » .

واني لأحسب وأنا أتقبل الهدية شاكراً أن « الكروان » سيأوي إلى العش الذي سماه صديقنا متواضعاً لانه يرتضي العش وان أغريناه بالدواوين وحسبنا منه أن يدعونا وندعوه ، واننا وإياه نلبي الدعاء[1] » .

لم يعجب مقال العقاد هذا الاستاذ توفيق الحكيم فكتب معقباً على صفحات الرسالة بمقال جعل عنوانه « الصفاء بين الادباء » فانبرى له في البداية المرحوم الدكتور زكي مبارك وقال انه يقصده بمقاله هذا وكان ذلك في ١٣ ابريل سنة ١٩٤٣ وطلب منه – أي من توفيق الحكيم – أن يفصح عمن يقصده بمقاله فاضطر الاستاذ توفيق الحكيم إلى أن يقول على صفحات الرسالة بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٩٤٢ :

« كنت قد نشرت في الرسالة كلمة . وظاهر من روح هذه الكلمة أني أحض على توثيق صلات المودة الصادقة بين الأدباء بدعوتهم إلى نبذ الألفاظ التي قد تحدث في نفوس زملائهم شيئاً من الامتعاض ولكن الدكتور زكي مبارك فهم الامر على وجه آخر .

ثم سألني : فقلت أديب واحد قد عنيته بالذات ، إنما هي كلمة عامة للنفع العام ، ولئن كان لابد من مناسبة أوحت بهذه الكلمة فربما كانت مقالة الاستاذ عباس العقاد التي يشكر فيها الدكتور طه اهداءه إليه « دعاء الكروان »» .

وفي الحق أني لم أجد بالمقال الرقة التي كنت أنتظرها واستأت في نفسي من الاستاذ العقاد بعض الاستياء . وأنا الذي يعتقد دائماً أنه يخفي وراء قناع الكبر والتكبر نفساً طيبة تتفجر إذا اطمأنت بأجمل عاطفة وأنبل أحساس .

---

(١) مجلة الرسالة ٢٦ / ١ / ١٩٤٢ ويراجع ردود وحدود للعقاد نشر دار حراء القاهرة طبعة اولى ص ٤٧ .

فالذي يستطيع التأثير في نفوسنا بكتاباته الإنسانية عن الكلب بيجو لا بد أن يحمل نفساً خليقة أن تفيض بالمودة نحو إنسان[1] » .

قرأ العقاد مقال الحكيم فكتب على صفحات الرسالة في أول يونيه ١٩٤٢ مقالاً يرد فيه عليه جعل عنوانه « صداقات الادباء » بدأه بقوله :

« لو تكلم القدر لاسمعنا العجب من ظلم الناس ، وهم يحسبون أنهم المظلومون لانهم يطلبون ولا يجابون ، ولا يسألون أنفسهم مرة لماذا يحال بينهم وبين ما يطلبون !

فربما طلبوا ما لا يكون ، وربما طلبوا شيئاً هم يريدون غيره بل يريدون نقيضه ، وربما طلبوا الشيء وتوسلوا إليه بغير وسيلته ، ثم يعرفون خطأهم فلا يطلبونه بعد ذلك بوسيلته المثلى .

والاستاذ توفيق الحكيم أراد الصفاء بين جميع الادباء ، فهل أراد شيئاً يكون في هذه الدنيا ؟ وهل أراده حقاً ؟ وهل توسل إليه بالوسيلة المثلى ؟

ان ثلاث « لاءات » مفخمات لا غير أصدق جواب على هذه الأسئلة الثلاث . فالصفاء بين جميع الأدباء معناه الصفاء بين جميع الناس ، وليس هذا بميسور ولا هو بلازم للأدب وللأدباء .

فلماذا تصفو العلاقات بين جميع الأدباء وهي لا تصفو بين جميع الآدميين ؟ ان الصفاء قد يتحقق بين طبيب ومهندس ولا يتحقق بين مهندسين أو طبيبين . وقد يتاح لرهط من الأدباء كما يتاح لرهط من أبناء الصناعات المختلفة ، ولكنه لن يتاح لجميع الأدباء في وقت واحد ، ولن يتاح لجميع الناس من صناعات شتى ولا صناعات متفقة . وليس تخصيص الأدباء هنا بالمطلب المفهوم إلا إذا عممنا المطالبة للأدباء وغير الأدباء ، ورفعنا الكدر من جميع الأحياء . وهذا ما

---

(١) الرسالة ٢٠ / ٤ / ١٩٤٢ .

ليس بكائن، ولا نراه مما يكون.

فالاستاذ توفيق الحكيم هنا لم يطلب شيئاً يجاب .

ولكننا نعود فنسأل : هل طلبه كان حقاً؟ وهل اجتهد في تحقيقه فتوسل إليه بوسيلته المثلى ؟

ان الذي يطلب الصفاء لا يبحث عن أسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكون من الصفاء ، بل هو يمحو منها ما وجد ان كان له أثر محسوس ، ولا يوجد منها ما ليس له وجود ولم يحسه أحد ولا توهمه ، ولا وقع في ظن من الظنون .

فماذا صنع الاستاذ توفيق الحكيم ؟

حمل ملقاطه ووضع مجهره على أنفه وراح ينبش ما بين السطور وأطال النبش بينها ليصيح بعد ذلك : وجدتها! وجدتها ! ... هنا سبب من أسباب الكدر كامن بين السطور لعله لا يظهر على وجه الكلام ولكنه مستور هنالك لمن يبحث عنه ويجري وراءه ، وهو لهجة تعال في الشكر ، أو لهجة يخيل إلى من شاء التخيل أنها تشف عن التعالي ولا تبرىء الشكر من الجفاء.

ثم يصيح برجلين يفهمان ما يقول لهما: أرأيتما ؟ أليس خليقاً بكما ألا تصفوا؟ أيليق بكما أن تصفوا وبينكما هذا الذي أراه مانعاً للصفاء !

ذلك ما صنعه الاستاذ توفيق الحكيم .

فهل في وصفه مبالغة ؟ وهل صورناه بغير صورته القريبة التي تعرض نفسها لكل من ينظر إليها ؟

أهدى إلي الدكتور طه حسين قصته « دعاء الكروان » فجعلت هذا الإهداء موضوع مقال من أعماق النفس في معنى الكروان ودعاء الكروان وذكريات الكروان، وقرأه كثيرون من الأدباء فحدثوني عنه حديث رضى وسرور، وفي مقدمتهم الدكتور طه مهدي دعاء الكروان .

أما الأستاذ توفيق الحكيم فماذا صنع ؟

لم يرضه ما أرضى الدكتور ولا ما أرضى الأدباء ولا ما أرضى كثرة القراء، وراح يتحدث ويكتب ليقول : هنـــا صفاء .. فكيف بالله يليق هـــذا الصفاء ؟

لو كان الأستاذ توفيق الحكيم يطلب الصفاء ويتوسل إليه بوسيلته المثلى لكانت له ندحة مما صنع ولو لم أكتب ذلك المقال دعاء الكروان .

نعم كان في وسعه أن يقول بينه وبين نفسه : لعل واجب الشكر قد أُدّي في رسالة أوفى مقابلة ، أو سيؤدى في سانحة أدبية يأتي أوانها في حينها ، أو لعلي أعرف الحقيقة إذا عنيت بالسؤال عنها عند أهلها .

هذا ما كان في وسع طالب الصفاء أن يصنعه ولو لم أكتب مقالي في « دعاء الكروان » .

ولكن الأستاذ الحكيم لم يصنعه ، ولم يزل يحمل ملقاطه ويضع مجهره عـــلى أنفه ، ليخلق الكدر من شيء يبحث عنـــه بين السطور ، ولا يراه عـــلى ظاهر السطور .

أهذا هو طلب الصفاء والسعي إليـــه ؟

فماذا يكون السعي إلى خلق الكدر والاشفاق من دوام الصفاء ؟

كانت المناقشة بين الاستاذين زكي مبارك ، وتوفيق الحكيم قائمة يوم لقيت الاستاذ توفيقاً في احدى المكتبات وفيها صديقنا الاستاذ علي أدهم فجرى ذكر تلك المناقشة وصارحت الحكيم فيما أراه فقلت له : انك لم تبحث عن أسباب الانصاف بعض بحثك عن أسباب الجفاء ، لانني لا أعرف ولا أذكر أنني قصرت في حق زميل إبان اشتغالي بالصحافة وتولي فيهـــا صفحة للأدب ودراسة المصنّفات . فكل أديب أرسل إلي كتاباً في هذه الاثناء فقد نوهت بـــه وكتبت عنه ، ولكنني أنا أرسلت كتباً إلى زملاء يعرضون للمصنفات في المجلات فلم يذكروها ولم يشيروا إلى صدورها . فلماذا نسيت هذا وحاسبتني على ما تقول

انه شكر لم يبلغ ما تتخيله من الرقة والنعومة ؟ لماذا تحاسب من يكتب ولا تحاسب من يهمل ؟ ما الذي يعفي أولئك الزملاء من عرفان خفي، ويوجب علي أنا ، أن أبلغ الغاية التي يتخيلها كل متخيل من عرفان الحقوق ؟

وتكلم الاستاذ الحكيم عن أولئك الزملاء فقلت له : انني لا أفردهم بالملاحظة ولا استثنيك أنت منها . فقد كتبت عنك مرتين أو ثلاثا فكم مرة كتبت عني ؟ وما الذي يعفيك من هذا الواجب الذي لا أذكرك به إلا لمناقشة رأيك لا لانني أطلب أو احتاج إليه؟

ثم بينت له موقفي من تقريظات العظماء الذين يثنون على كتبي فأشكر لهم ثناءهم ولا أنشره فيما أطبعه من كتبي، وان كان في نشره فخر أعتز به كما يعتز به سائر المؤلفين .

بينت له ذلك لكي لا يقع في روعه أنني أطالبه بواجب الكتابة أو اتقاضاه حقاً من الحقوق . فلو أردت ذلك لعمدت من قبل في عشرات السنين الماضية إلى نشر الكتابات التي وصلت إلى يدي وهي مما يسمح بنشره في جميع البلدان .

ثم افترقنا ولم أسمع من الاستاذ الحكيم في تلك المقابلة ما يذهب بدهشتي من سعيه إلى الصفاء بذلك الاسلوب ، ومن محاسبته إياي على الوهم بين السطور وهو يرى أناساً يسهون كل السهو عن حق الادب وحق الزمالة ، فيغضي عن الحقيقة الماثلة ، وينسى السطور وما بين السطور .

وفارقني تلك الليلة ولا أدري ما في نفسه ، ولعله كما علمت بعد أيام قد تبين صواباً فيما قلت أو في بعض ما قلت فعدل إليه وكتب مقاله المشكورعن كتابي « عبقرية محمد » فقدمه بكلمات يقول فيها : « وقد سمحت لنفسي بالسبق إلى أداء هذه التحية ، لاني فطنت إلى أنني المتخلف دون غيري عن أداء الواجبات ، وليس لي من عذر إلا انصرافي عن باب النقد منذ أول الامر « وهو موقف بار أحمده له كل الحمد وأعتقد أنه قد حسب له عند القراء كما

حسب له عندي في عداد الخلائق المرضية والفضائل الخلقية ثم وجه إلي بعد أيام أخرى خطاباً يقول فيه .

« انك للمرة الاولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله . أبهذه السرعة تضع الناس إني في صف أعدائك ؟ لعلك لفرط ما قاسيت من شر الناس، ولقلة ما وجدت من خيرهم ، أصبحت مثل « هملت » تستل سيفك لتضرب من خلف الاستار دون تبين الوجوه فطعنت صديقاً وأنت لا تدري » .

ولا أظن أنني أشبه « هملت » في كثير من خصاله وفعاله ، ، ولكني إذا سئلت لم صنعت صنيع « هملت » أفلا يجوز لي أن أسأل . ولم الوقوف وراء الاستار ، وأولى من ذلك الخروج إلى وضح النهار ؟ أليس هنالك بعض اللوم على من ينصت خلف الستر ليسمع ما لا يسمع ، أو ليقول ما لا يقال ؟!

* * *

وبعد ، فما العبرة من كل أولئك في تاريخ الادب ونقده وسلوك الادباء مشهورين كانوا أو غير مشهورين ؟

العبرة من أولئك « أولاً » أن الاستاذ الحكيم يقول بعد الاشارة إلى ثناء الدكتور طه عليه منذ سنوات : « ... لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كاتب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض ، وأن على المؤلف واجباً مقدساً هو أن يشتري من فوره سبحة كيلا ينسى أن يسبح بحمد الناقد آناء الليل وأطراف النهار .. »

كذلك يقول الاستاذ الحكيم اليوم . فليذكر ما قاله الادباء الناشئون الذين يؤمنون بكفاءة تشبه كفاءته الفنية ، ليذكروا أنهم يطلبون شيئاً ينكرونه جاهدين بعد بضع سنوات : يطلبون التشجيع ثم ينكرون التشجيع ، وكان أحرى بهم ألا يطلبوه وألا ينكروه ، فما سمعنا في غير مصر أن الادباء المشهورين

مسئولون عن شهرة كل أديب ينشأ بعدهم ولا يعرف لهم حقهم ، وإلا كانوا هم الملومين المقصرين .

عبرة أُخرى ان الاستاذ الحكيم يذكر التعالي في موقف الكاتب وينسى انه اختار لادبه عنوان « البرج العاجي » وهو عنوان الادب المصطلح على وصفه بالتعالي بين نقاد الغرب وشعرائه . فليترك برجه العاجي إذن او فليتركنا نحن نتعالى ونتواضع كما نشاء .

وعبرة ثالثة ان الاستاذ يحن إلى صداقات الادب المصري كالصداقات التي اثرت عن كبار الادباء الغربيين .

وان أناسا لتأخذهم السمعة البعيدة في زمانها أو البعيدة في مكانها فيلحقونها بعالم الخيال وعالم المثال ويسهون عن الواقع الذي لا يقبل المحال .

وأعيذ الأستاذ أن يكون من هولاء .

فتاريخ الآداب الأوروبية بين يديه يستطيع أن يرجع في كل ساعة إليـــه ، ويستطيــع أن يعلم بعـــد المراجعة أن في الأدب العربي حديثه وقديمه صداقات تضارع تلك الصداقات مع حسبان الفارق في البيئة والزمن والمناسبة .

فهل يعني الأستاذ صداقة شعراء البحيرة في انجلترا ؟ هل يعني صداقة شلي وبيرون هناك ؟ هل يعني صداقة جيني وشيلر بين شعراء الألمان ؟ هل يعني صداقة تولستوي وثورجنيف وديستفسكي بين عظماء الأدب العالميين .

إن كان يعني هؤلاء وأمثـــال هؤلاء فهو واجد في الأدب العربي الحديث صداقات من طراز تلك الصداقات ، وواجد من هناتهم في الغرب نظائر لما يشكوه من هنات الزملاء المصريين والشرقيين .

والطبيعة البشرية واحدة في كل مكان .. تلك أصدق حكمة عن الناس قالها إنسان[١] » .

---

(١) الرسالة اول يونيه ١٩٤٢ مقال العقاد صداقات الادباء .

وبتاريخ ٨ يونيو سنة ١٩٤٢ عقب الأستاذ توفيق الحكيم على مقال العقاد فقال :

« كانت دعوتي إلى الصفاء بين الأدباء خالصة لوجه الأدب .. فأدباء مصر البارزون الدائبون على الإنتاج لا يتجاوز عددهم العشرة على التسامح الشديد .

كان الأجدر بنا نحن العشرة أن نوجه صراعنا لا إلى بعضنا البعض بل إلى الفن ومصاعبه وأسراره .

ولكن الأستاذ العقاد في مقاله ... رد يقول ان صاحب الدعوة إلى الصفاء هو الذي بحث في أسباب الكدر بملقاط ليخلقها خلقاً بين رجلين على أحسن ما يكونان من الصفاء ، فاذا صح هذا الزعم كان حقاً مما يدعو إلى الأسف بل إلى السخرية .

ربما كان ظاهر الواقع يدل على ذلك ولكن هل كانت تلك حقيقة المقاصد والنوايا ؟

وقد رأى الأستاذ العقاد أن يجري واحدة بواحدة فلم يفته في ختام مقاله أن يدس هو الآخر سبباً من أسباب الكدر بيني وبين الدكتور طه حسين لقوله « ان الأستاذ الحكيم يقول بعد الإشارة إلى ثناء الدكتور طه عليه منذ سنوات : لم نسمع في غير مصر أن الناقد إذا أثنى على كتاب حسب أنه تفضل على مؤلفه ورفع شأنه من الحضيض .. الخ

ومضى يصورني في هيئة الناكر للجميل . والأستاذ العقاد ولا شك قد فهم أني ما قصدت بايراد هذه العبارة وأمثالها إلا مجرد إظهار الإساءة لطه حسين وهو في أوج نفوذه . فقلت ما نصه « ان هذا الوقت هو أحب الأوقات عندي لإساءته لا لإرضائه » .

الحقيقة أنها كانت قصة انتهت مع الأسف بانهيار صداقة من أعظم الصداقات التي عرفها أدبنا المعاصر » .

ثم تحدث توفيق الحكيم عن قصة أهل الكهف ورأي طه حسين فيها وصداقتهما التي قامت على الأثر وقال « .. ولكن وا أسفاه . لقد تغلب أولئك الشاتمون واللائمون آخر الأمر وفازوا بمآربهم وأشعلوا نار الوقيعة بيننا واضعين أيديهم على مواطن الضعف فينا ، وضعف الفنان هو عزته وكرامته ، وإن شئت فقل غروره ..

وهكذا لم يستطع طه حسين أن يحتفظ طويلاً بابتسامته وضحكه أمام الساعين بالسوء ولم أستطع أنا أن احتفظ باتزاني فأنقذ المودة الصادقة وأضحي بالعزة الكاذبة.

وبهذا حطمنا تلك الجوهرة التي منحتنا إياها السماء.. ومن أجل من؟ من أجل ماذا ؟ لست أدري ما حدث بعد ذلك ، فذاكرتي الآن لا تسعفني ، كل ما أذكر أننا حاولنا أن نندم ونحطم . ولقد أقمنا معاً بعض الصيف في جبال الألب فضحكنا كثيراً ولهونا طويلاً بل لقد ألفنا معاً هناك كتابا .. ولكنها مع ذلك لم تكن الصداقة الأولى . لماذا ؟ لعل شيئاً في نفسينا لم يكن صافياً كل الصفاء أو في نفسي أنا على الأقل .. اني أعرف ، لقد كنت أمتنع عن كل ما يؤخذ على أنه ملق أو زلفى . لقد كان طه حسين وقتئذ هو شخصية ذات نفوذ. وأنا أكره إرضاء أصحاب النفوذ.

ولكني الآن وقد وضعت بين تهمتين : الزلفى ونكران الجميل فاني أوثر التهمة الأولى فلقد سبق أن اتهمت بها في مجال السياسة، ان الشهرة قد جاءتني حقيقة ببعض المال ولكن هل كنت محتاجاً إلى ذلك المال ؟ اني لم أكن معسراً ولا مقتراً . أجاءتني بالمركز الاجتماعي ؟ كلا فقد كنت قبلها من رجال القضاء المحترمين ، ولو أني بقيت كذلك ولا شيء غير ذلك لظفرت بالحياة الهانئة الوديعة النافعة ، على الأقل للعدالة والناس ، ولكن الشهرة وما يحيط بها من الاشاعات والأقاويل والأباطيل قد حالت بيني وبين ذلك الخير ، فبعد أن كانت تسعى إلى طلبي الآخر وأنا في القضاء سموا في الثقة والهيبة أصبحت تنفر مني

اليوم.. لقد جاوزت الأربعين وما أبصر في الأفق طيف واحة مورقة في صحراء حياتي المحرقة .

وما قيمة الشهرة بغير سعادة وما قيمة الأدب والفن بغير هناء[1] » .

صدرت الرسالة وفيها مقال توفيق الحكيم هذا فدخل معه المعركة الملاكم الأدبي المرحوم زكي مبارك فكتب يقول :

« .. لم أكن أنتظر أن يكون عتبي على الأستاذ توفيق الحكيم فرصة لمجادلات ومساجلات يجري بها قلمه مع الكاتبين العظيمين عباس العقاد وطه حسين .

يظهر أن أحزان توفيق الحكيم لن تنجيه من (الوقوع في قبضة الأديب الفلاح) فأسمعه اليوم كلاماً يسره في حين ويحزنه في أحايين وفقاً لحالته النفسية .

دار الأستاذ الحكيم في رده على الأستاذ العقاد حول (نفوذ) الدكتور طه حسين فماذا يريد أن يقول ؟

هل يتوهم أن نفوذ الدكتور طه تميمة تعيذه شر أقلامنا إذا رأيناه انحرف، وما احتياجنا إلى نفوذ طه حسين ونحن نعرف أن ذلك النفوذ بلاء عليه ، يستطيع الدكتور طه بكفايته العلمية أن يكون أكبر موظف في الحكومة المصرية ولكنه لا يستطيع الزعم بأن سلطان القلم يفوقه أي سلطان .

الدكتور طه رجل ضرار نفاع ، ولكن من العيب على حامل القلم أن يرجوه أو أن يخشاه . فما هذا الذي تقوله يا عم توفيق ؟

... صديقنا توفيق يتألم ويتوجع لأن شهرته الأدبية أبعدته عن الإنخراط في سلك القضاء فما معنى هذا . معناه أن الوجل يعيش بين رجال الأدب عيش

---

(١) مجلة الرسالة ٨ يونيه ١٩٤٢ مقال الصفاء ايضاً لتوفيق الحكيم .

الغرباء وإلا فهل يجوز لكاتب له عقيدة أدبية أن يتوهم أن في الدنيا حظاً أعظم من حظ أرباب الأقلام ؟

وصديقنا توفيق الحكيم يقول بعبارة صريحة أنه لا يجد أسرة تعطف عليه فتزوجه بنية يسكن إليها وتسكن إليه لأن الشهرة الأدبية أضافته إلى المشبوهين .

غضبة الأدب عليك يا توفيق فما أوذي الادب بأقبح ولا أبشع ولا أفظع مما جرى به قلمك الاهوج .

أيهون الادب على أهله إلى هذا الحد من الهوان البغيض ؟

أيكون نفوذ طه حسين شيئاً يخاف فنحبر فيه المقالات الطوال العراض ؟ آه ثم آه .

لو كان بيدي شيء لقضيت بنفي توفيق إلى جزيرة « الواق الواق » ليعرف أبناؤنا وتلاميذنا أن للأدب سيطرة سماوية تبغض التأدب مع غير صاحب السماء .

أنت في جماعتنا دخيل يا توفيق لانك تقدم علينا رجال القضاء ولانك تنهب أصحاب النفوذ[1] » .

إزاء هذا لم يجد الحكيم بدا من معاتبة الزيات صديقه الذي سمح بنشر كلمة الملاكم الأدبي زكي مبارك في الرد عليه ، فكتب في الرسالة يقول :

« صديقي الزيات ، حتى أنت قد خاب أملي فيك ! أنا الذي دعا إلى الصفاء بين الأدباء كما رأيت وبذلت في ذلك ما بذلت ، فإذا كان كل هذا يسفر عن كلمة سمحت أنت بنشرها في العدد الاخير من الرسالة كلها ايذاء لشخص دون مبرر ، كلمة لم تدع إليها مساجلة أدبية ، ولم يبتغ بها الادب والفكر ، ولكن دعت إليها شهوة الهجوم والتجريح لمجرد الزهو والخيلاء بالهجوم على

---

(١) الرسالة في ١٥ يونيه ١٩٤٢ .

وتجريحي .

.. لقـــد صدمني حقاً ما رأيت من أن الأدباء في مصر – مع الأسف – لايحسبون حسابا لغير الكاتب الذي يبرز مخالبه ، ويكشر عن أنيابه ، ويتهيأ دائماً للوثوب .. أنا الذي أراد من الأدب أن يكون حديقة غناء سياجها الصفاء إذا بي أراه حرشاً من الأحراش المأهولة بالضواري .. ما هي في واقـع الأمر رسالة الأدب إلى البشر ، أهي شيء آخر غير ترويض كواسر الناس وإفهامهم أنهم أرقى من الحيوان ؟ ان الأدب الرفيع هو الذي يثير المشاعر الرفيعة بما فيها من صدق وحب وخير وجمال .. وان الادب الوضيع هو الذي يهيج فينا الغرائز الحيوانية بشهواتها للفتك والبطش والعدوان .

كنت أظن يا صديقي الزيات – أن تلك هي رسالتك. وأن عملك في مجلتك هو توجيه الادب إلى هذه الغاية الفضلى .

خاب أملي فيك .. إنما الذي خيب أملي هو أني رأيتك قد حدت قليلاً عن رسالتك في (الرسالة) وفي هذا خطر على شرف الغايـــة التي عاهدت نفسك والناس عليها .. وقد أغتفر لك اهدار حق الصداقة والزمالة ، أما هذه فلا .. هنا ونفترق وليكن اليوم آخر عهدي بك و « بالرسالة » والأدباء . لن أكتب شيئاً لك ولن أذكر بعد اليوم أديبـــاً بخير ولا بشر . سأصمت عن أشخاصهم صمت القبر لانصرف إلى الإنتاج وحده من حيث هو انتاج » .

ورغم تلك المناوشات التي دارت بين العقاد وتوفيق الحكيم على صفحات الرسالة إلا أن حبل الود بين راهب الفكر وعملاقه لم ينقطع فقد ظل كل منهما حريصاً على عرى الصداقة حتى السنوات الأخيرة حينما جمعت بينهما عضويـــة المجلس الأعلى للفنون والآداب كما جمعت بينهما عضوية مجمع الخالدين .

وقد يدهش القارىء حينما يرى العقاد يدافع عن توفيق الحكيم في السنوات الاخيرة فينصفه في الحملة التي شنها عليه أدباء الشبان على صفحات جريدة الجمهورية عام ١٩٥٨ ، فقد كتب الاستاذ رشدي صالح عن قضية الإقتباس . ولمح متهما

الاستاذ توفيق الحكيم بأنه سرق كتابه « حمار الحكيم » من كتاب « بلا تيرو وأنا » لجان رامون خمينيز الإسباني وقد احتدم النقاش يوماً بين العقاد وراهب الفكر حينما كتب الحكيم مقالاً عن الأدباء المعاصرين وهل فهموا رسالتهم ووصل الأمر إلى حد الخلاف بين راهب الفكر وعملاقه .

يقول الحكيم في مقاله هذا : « إن الدولة لا تنظر إلى الادب بعين الجد بل إنه عندها شيء وهمي لا وجود له ولا حساب » .

ثم يقول : « إن انعدام روح النظام بين الادباء وتفرق شملهم وانصرافهم عن النظر فيما يربطهم جميعهم من مصالح وما يعنيهم جميعاً من مسائل قد فوّت عليهم النفع المادي والادبي وجعلهم فئة لا خطر لها ولا وزن في نظر الدولة » .

ويقول في مقالٍ آخر عن أدبائنا المعاصرين هل فهموا حقيقة رسالتهم؟ ويذكر ما يصنعه أدباء أوربا « كلما هبت ريح الخطر على إحدى هذه القيم – وهي الحرية والفكر والعدالة والحق والجمال – وكيف يتجرد كل أديب من رداء جنسيته الزائل ليدخل معبد الفكر الخالد ويتكلم باسم تلك الهيئة الواحدة المتحدة التي تعيش للدفاع عن قيم البشرية العليا » .

ثم يقول بعد أن وصف سوء حال الادب في مصر :

« أمام كل هذا وقف الادب ذليلاً لا حول له ولا طول ، وضاعت هيبة الادباء في الدولة والمجتمع ، وأنكر الناس ورجال الحكم على الاديب استحقاقه للتقدير الرسمي والاحترام العام . فالعمدة البسيط تعترف به الدولة وتدعوه رسمياً إلى الحفلات باعتباره عمدة . أما الاديب فمهما شهره أدبه فهو مجهول في نظر الرجال الرسميين ولن يخاطبوه (قط) على أنه أديب » .

* * *

فرد عليه العقاد بعد أيام قائلاً ومعقباً :

« كلام الاستاذ الحكيم في هذين المقالين هو الذي ابتعثني إلى التعقيب عليه

فيما يلي من خواطر شتى عن رسالة الاديب ، وشأن الاديب والدولة ، ومستقبل الادب في الديار المصرية ، أو في الديار الشرقية على الإجمال .

* * *

فهل من الحق أن الادب محتاج إلى اعتراف من الدولة بحقوقه ؟

أما أنا فإنني لاستعيذ بالله من اليوم الذي يتوقف فيه شأن الادب على اعتراف الدولة ومقاييس الدولة ورجال الدولة .

لان مقاييس هؤلاء الرجال ومقاييس الادب نقيضان أو مفترقان لا يلتقيان على قياس واحد .

فمقاييس الدولة هي مقاييس القيم الشائعة التي تتكرر وتطرد وتجري على وتيرة واحدة .

ومقاييس الادب هي مقاييس القيم الخاصة التي تختلف وتتجدد وتسبق الايام .

مقاييس الدولة هي عنوان الحاضر المصطلح عليه .

ومقاييس الادب هي عنوان الحرية التي لا تتقيد باصطلاح مرسوم ، وقد تنزع إلى اصطلاح جديد ينزل مع الزمن في منزلة الاصطلاح القديم .

مقاييس الدولة هي مقاييس العرف المطروق ، ومقاييس الادب هي مقاييس الإبتكار المخلوق .

مقاييس الدولة هي مقاييس الاشياء التي تنشئها الدولة أو تدبرها الدولة أو ترفعها تارة وتنزل بها تارة أُخرى .

ومقاييس الادب هي مقاييس الاشياء التي لا سلطان عليها للدول مجتمعات ولا متفرقات . فلو اتفقت دول الارض جميعاً لما استطاعت أن ترتفع بالاديب فوق مقامه أو تهبط به دون مقامه ، ولا استطاعت أن تغير القيمة في سطر واحد مما يكتب ، ولا في خاطرة واحدة من الخواطر التي توحي إليه تلك الكتابة .

ومن هنا كان ذلك العداء الخفي بين معظم رجال الدولة ومعظم رجال الادب في الزمن الحديث على التخصيص •

لان رجال الدولة يحبون أن يشعروا بسلطانهم على الناس ويريدون أن يقبضوا بأيديهم على كل زمام ، فإذا بالادب وله حكم غير حكمهم ، ومقياس غير مقياسهم ، وميدان غير ميدانهم ، وإذا بالعصر الحديث يفتح للأدباء باباً غير أبوابهم ، وقبلة غير قبلتهم التي توجه إليها الادباء فيما غبر من العصور •

ولو بلغنا إلى اليوم الذي تعترف فيه الدولة بالادباء لما اعترفت بأفضلهم ولا بأقدرهم ولا بأصحاب المزية منهم ، ولكنها تعترف بمن يخضعون لها ويرضون كبرياءها ويهبطون أو يصعدون بغضبها أو رضاها •

ولسنا في مصر بدعاً بين دول المغرب والمشرق ، فما من دولة في العالم تعترف بأمثال برناردشو وبرتراندرسل ورومان رولان كما تعترف بالحثالة من أواسط الكتاب •

* * *

هذا عن الأدب وشأنه المعترف به بين رجال الدول ، فما عن التفرق والتجمع ، أو عن أثر هذا اوذاك في تقويم اقدار الادباء ؟

اصحيح ان الادباء في حاجة إلى الاجتماع ؟

انفع من هذا واقرب إلى تبيين الصواب ان تسأل : هل صحيح ان شاعرين يشتركان في نظم قصيدة واحدة ؟ وهل صحيح ان مصورين يشتركان في رسم صورة واحدة ؟ وهل صحيح ان الادب في لبابه عمل من اعمال التعاون والاشتراك ؟

الحقيقة ان الادباء حين يخلقون اعمالهم فرديون منعزلون ، فلا حاجة بهم إلى محفل يسهل لهم الخلق والإبداع ، ولا فائدة لهم على الإطلاق من اتفاق او اجتماع •

والحقيقة ان التعاون إنما يكون في مسائل الحصص والسهوم والاجزاء ، ولا يكون في مسائل الخلق والتكوين والإحياء .

لأن الفكرة الفنية كائن حي ووحدة قائمة ليس يشترك فيها ذهنان، كما ليس يشترك في الولد الواحد ابوان .

فإذا كان تعاون بين الأدباء ، فإنما يكون على أمثال التعاون بين الآباء .

إنما يكون تعاوناً على رعاية ابنائهم وحماية ذرياتهم ، وقلما يحتاج الآباء إلى مثل هذا التعاون إلا في نوادر الأوقات .

فإذا اجتمع الأدباء فلن يرجع اجتماعهم إلا إلى حواشي الأدب او « ظروف » الأدب كما يقولون دون الأدب في صميمه .

وإذا اجتمع الاطباء فهناك طب واحد ، او اجتمع المحامون فهناك قانون واحد ، وقضاء واحد ، او اجتمع المهندسون فهناك هندسة واحدة وبناء واحد ، فكيف يجتمع الادباء كما يجتمع الاطباء والمحامون والمهندسون وكل اديب منهم نموذج لا يتكرر ، ونمط لا يقبل المحاكاة ، وادب تقابله آداب متفرقات .

إن محامياً قديراً ليغني عن محام قدير ، ولكن هل يغني اديب كبير عن اديب كبير ؟ وهل ينوب خالق في الفنون عن خالق آخر في الفنون ؟ كلا ... لن بنوب هذا عن ذاك ولن يختلط هذا بذاك ، كما ان الوجه الجميل لا ينوب عند عاشقه عن الوجه الجميل ولو اشتركا معاً في صفة الجمال .

كل أديب نمط وحده ، وكل أديب في غنى عن سائر الأدباء إلا أن يتعاونوا كما أسلفنا في الحواشي والظروف دون الجوهر واللباب .

* * *

أللاديب رسالة ؟

نعم ، ليس بالأديب من ليست له في عالم الفكر رسالة ، ومن ليس له وحي وهداية .

ولكن هل للادب كله رسالة تتفق في غايتها مع اختلاف رسائل الأدباء وتعدد القرائح والآراء .

نعم . لهم جميعاً رسالة واحدة هي رسالة الحرية والجمال .

عدو الأدب منهم من يخدم الاستبداد ، ومن يقيد طلاقة الفكر ، ومن يشوه محاسن الأشياء .

وخائن للامانة الأدبية من يدعو إلى عقيدة غير عقيدة الحرية .

أفيدري الأستاذ توفيق ما هو — في رأيي — خطب الثقافة الإنسانية الذي يخشاه دوهامل ويشفق منه كتاب أوربا كافة على مصير الذوق والتفكير والفن والشعور المستقيم ؟

أفيدري الأستاذ توفيق ما هو — في رأيي — سر الفتنة الحسية التي غلبت على الطبائع والأذواق وتمثلت في ملاهي المجون أو ملاهي الأدب الرخيص ؟

سرها الأكبر هو وباء « الدكتاتورية » الذي فشا بين كثير من الأمم في العصر الأخير .

لأن الدكتاتورية كائنة ما كانت ترجيع إلى تغليب القوة العضلية على القوة الذهنية والقوة النفسية .

وقد اشترك في الحملة الصحفية كل من جلال الدين الحمامصي وكامل الشناوي. فهب الأستاذ يوسف السباعي مدافعاً عن راهب الفكر فكتب في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٥٨ مقالاً بعنوان « همسة » جاء في ختامه :

« ليس توفيق الحكيم أبدا هو الذي ينعت بأنه حرامي واني على استعداد لأن أفعل أي شيء يمكن أن يرد اعتبار هذا الرجل .. » .

وكانت همسة الأستاذ يوسف السباعي على صفحات الجمهورية أشبه بالبترول الذي يسكب على النار فيزيد ضرامها ولهيبها اشتعالاً . وقد كان ... فاشترك كتاب صحيفة الأخبار في الحلبة التي أثارها كتاب الجمهورية فكتب الأستاذ محمد التابعي كلمة رجاء على صفحات الأخبار إلى الأستاذ العقاد تحدث فيها عن جملة النقد التي أثارها كتاب صحيفة الجمهورية حول كتاب « حمار الحكيم » لتوفيق الحكيم وهل يجوز أو لا يجوز لأديب أن ينقل أو يقتبس من أعمال وكتابات غيره دون ذكر اسمه أو اشارة إلى مصدر النقل والإقتباس . وأشار إلى مواقف متعددة في القصتين قصه « بلاتيرو وأنا » لخمينيز ، وقصة «حمار الحكيم» لتوفيق الحكيم .

فما كان من العقاد إلا أن أجاب الأستاذ التابعي فكتب مقالاً جعل عنوانه « السرقة والإقتباس واحد » قال فيه :

« وقبل البحث في التشابه بين قصة توفيق الحكيم وقصة المؤلف الإسباني ، نقول على الإجمال اننا لا نرى فرقاً بين سرقة الكلام بنصه وبين الإقتباس منه برفق أو بشدة دون الإشارة إلى مصدره ، وكل كلام عليه طابع صاحبه ، وفيه مجهود من ابتكاره وابداعه ، فليس من الجائز أن ينقل على صورة من الصور بغير إشارة إليه وإنما يعد سرقة كل كلام لا يدخل في باب توارد الخواطر ، أو المعارضة المقصودة ، أو الأفكار التي تمليها ضرورات الموقف على كل كاتب يتناول الموضوع من بعض نواحيه ... »

وبعد هذه التوطئة عن الإقتباس يقول العقاد :

« نعود إلى المقابلة بين الكتابين .. فإن فهم الموضوع ضروري للنظر في التشابه بالسرقة المقصودة أو الإقتباس الرفيق أو الشديد « .. وبعد ان استعرض الكتابين وقارن مواقف المؤلفين قال :

« ليس يخلو الحديث من إشارات عارضة تجري على كل لسان في أمثال هذه

المواقف ، ولا يمكن أن يقال إنها عبارات ذات طابع خاص أو نظام مبتكر لا يتكرر في صفحات الكتب كيفما تواردت الخواطر أو تنوعت الملكات .. وعلى ذلك فالكتابان مختلفان .. أقول هذا وأنا أتحدث عن خلاصات الكتاب الأسباني ، وتعليق الرواة على مناظره وأحاديثه ، لأنني لم أقرأه مفصلاً باللغة الإنجليزية ،ولم تزد معرفتي بتفاصيله عن المامة بالنسخة الفرنسية ومراجعة عامة للنسخة الأسبانية التي أفهم عنواناتها وكلماتها لما فيها من المشابهة باللغة الانجليزية ، ولا يسعني أن اتقصاها كما أتقصى الكتابة الانجليزية ، ولكن التعليقات الكثيرة التي قرأتها عن الكتاب والمقتبسات المتفرقة التي تخللت تلك التعليقات تحصر فكرة الكتاب وتدل على مجاله ، ووجهة مؤلفه في أدبه وفنه ، وتشير إلى خواطره المهمة خلال الكتاب فلا يصعب الرجوع إليها وعلى قدر هذا الذي أعرفه أستطيع أن أقول ان المؤلف الاسباني من « صنف فني » غير الصنف الذي ينظر إليه الأستاذ توفيق الحكيم ليقتدي به أو يقتبس منه »

ويختم العقاد مقاله بعنوان « بقافية وبلا قافية » :

« وقبل ختام هذه الكلمة عن « حمار الحكيم » نعطي القافية حقها لأنها تقدر ، ونرانا مضطرين إلى اتهام الاستاذ توفيق الحكيم بالسرقة البينة ، من مصدر مجهول ، في موضع أو موضعين من كتابه ، وذلك حيث يشير إلى البقشيش الذي جاء به لخادم الفندق أو لبائع الصحف أو لبعض السائلين هنا وهناك .

لا يا أستاذ توفيق .. دون هذا ويختفي الطبع ويظهر الاقتباس »

والمدقق في كلام العقاد يجد تبرئة صريحة ولا يجد تجريحاً صريحاً ، بل فيه نفي للاقتباس من الكتاب الاسباني واثبات للاقتباس من مصدر آخر مجهول ملفوف بلفائف النكته في البخل والشح على حد قول القصاص الاستاذ حبيب الزحلاوي ان لم تخنا الذاكرة .

ولم ينس الحكيم مجاملة العقاد له فحرص طوال حياة العقاد أن لا يعكر

الصفوبينه وبين العقاد . ورغم محاولة أصحاب المقالب بين الأدباء الكبار الذين أوتوا مهارة فائقة في هذا المضمار فإنهم لم يستطيعوا أن يستخرجوا كلمة من فم الحكيم في حق صاحبه العقاد . فقد حاول الاستاذ أنيس منصور . وهو كما يعرفه الاصدقاء من أمهر الصحفيين في إثارة المعارك الصحفية — حاول أن يوقع الحكيم في معركة مع العقاد فاتصل به تلفونياً عقب آخر حديث تلفزيوني للعقاد في برنامج « سهرة مع فنان » ونقل له رأي العقاد في المرأة وسأله رأيه فيما أدلى به العقاد في هذا الصدد فأجابه توفيق الحكيم قائلا :

« إني موافق تماماً على كل كلمة قالها العقاد عن المرأة . والعقاد ليس عدوها وإنما صديقها ، بل هو استاذها ، فالمرأة يجب أن تبقى في البيت .. أن تتفنن في عمل صينية بطاطس . أو طاجن بالفرن . فالبيت هو مكانها .. مجالها الذي تصنع فيـــه الأجيال القادمة . فإذا هي تركت البيت فمن الذي يربي الأطفال[1] » .

ثم حاول الاستاذ أنيس منصور مرة أُخرى ان يجر الحكيم إلى الحديث فقال له إن العقاد قال له — اي لانيس :

« إن أدب توفيق الحكيم هو أدب البرج العاجي» وهو أدب فكري.أدب واحد بعيد يتأمل . لذلك نجد أفكاره على هيئة حوار عقلي . ولا نرى بين المتحاورين شخصيات مرسومة بوضوح.ولكن توفيق الحكيم لا يعيش في البرج العاجي منعزلاً عن الناس فعنده أيضاً موضوعات تتعلق بالحياة الاجتماعية مثل « يوميات نائب في الأرياف » و « عودة الروح » .. ومسرحيات عن الحب . فالبرج الذي يسكنه الحكيم ليس عاجياً ولكن بعضه من العاج والباقي غرف للايجار يسكنها أناس حقيقيون ..

وعلق توفيق الحكيم على رأي العقاد بقوله : « دمه خفيف العقاد .. على كل حال قدم لنا صورة لطيفـــة .. وكلام العقاد معناه أنني لست منعزلاً عن

---

(١) يسقط الحائط الرابع للاستاذ انيس منصور ص ١٢٨ — مقال « بمناسبة حديث العقاد بالتليفزيون».

الناس .. وعلى فكرة العقاد معجب جداً بيوميات نائب في الأرياف. وكان يقرؤها ويضحك على الصور التي فيها .

لم يجد أنيس منصور ما يريد من « مطبات » أدبية فسأل الحكيم سؤالاً ظن أن في اجابته ستنشب معركة حامية بينه وبين العقاد .

ما رأيه في القيمة الأدبية للعقاد .. فأجابه بحرص شديد :

« العقاد خدم الفكر العربي خدمة جليلة وكان منبع نشاط فكري في وقت كان فيه البلد محتاجاً إلى عملية تنوير . فأغلب الناس كانوا لا يعرفون اللغات الأجنبية ولا يحسنون إلا اللغة العربية .. فالعقاد كان المصباح الذي ينير لهم التفكير في العالم . فالعقاد من مصابيح الاشعاع الفكري في مراحل كثيرة من مراحل النشاط الادبي في البلاد العربية.. والعقاد قنطرة فكرية.. وطه حسين قنطرة أدبية[1] » .

وهكذا لم يستطع أنيس منصور ان يشعل الخصومة مرة ثانية بين العقاد وتوفيق الحكيم .. فقد ظلت عرى الصداقة بينهما وثيقة حتى انتقل العقاد إلى عالم الخلود . وكان الحكيم من أوائل الذين هرعوا لبيته معزياً إيانا وتلاميذه في فقد صديقه الكبير .

* * *

(١) المرجع السابق صفحة ١٣٦ .

الملاكم الأدبي أو زكي مبارك

ملاكم ادبي من أمهر الملاكمين في ثقافتنا الحديثة، ومجادل من أعنف المجادلين في حلبات النقاش والمجادلة ذلك هو المرحوم الدكتور زكي مبارك فقد كان لا يدع معركة دون ان يكون له فيها صوت مسموع . وتذكر الحياة الادبية مساجلاته مع الدكتور طه حسين واحمد امين مما حدا بالاستاذ احمد حسن الزيات ان يقول عنه : « ان زكي مبارك لون من ألوان الادب المعاصر لا بـد منه ولا حيلة فيه .. وانه اول الشاهدين على ان صفارتي قد بحت من طول ما اهابت به وهو في قفازه السنتريسي يهدر في المجال بين الحبال مغضياً بعض الإغضاء عن قواعد الملاكمة » .

وقال عنـه الاستاذ احمد امين : « كلما رايت الدكتور زكي مبارك او استحضرت صورته اشع علـيَّ معنى غريباً يصعب تصويره. ربما كان اقرب تصوير له رجلا يمسك بيسراه كتاباً قيما فيه علم غزير وادب وفن . وبيده اليمنى عصاً اشهرها ثم هو يطلع الناس على ما في كتابه من طرف. فمن هم ان يفتح فاه بنقد او مخالفة اقنعه بما في يمناه ، بل قد يؤمن الناظر بما يعرض عليه فلا يعجبه الاستسلام وهذا الإيمان فلا يزال يهيجه حتى يبدأ بالمخالفة ».

وقال عنه الاستاذ محمد احمد جاد المولى[١] : « من الذي يستطيع ان يتعقب الدكتور زكي مبارك ؟ وكيف يمكن ذلك ، وهو لا يسكت ابداً ، ولا يترك فرصة لمن يريد ان يحكم له او عليه » .

فإذا كان الدكتور زكي مبارك هو كل هذا بشهادة عارفيه ومعاصريه من زملائه المذكورين والادباء فلا شك انه سيرتطم قلمه بالمصارع الجبار عباس العقاد في حلبات الفكر .

والمتتبعون لحركات النقد الادبي يجدون ان الدكتور زكي مبارك قد عرض للعقاد في اكثر من مناسبة إلا انه كان يتهيب حدة قلم العقاد كما ذكر الاستاذ انور الجندي في كتابه المعارك الادبية صفحة ٦٠٣ حينما تحدث على معارك الدكتور زكي مبارك .

وكان العقاد لا يهتم بما يكتبه الدكتور زكي مبارك في البداية حتى ساقت المقادير الدكتور زكي مبارك فدعي مرة إلى ان يعرض ادباء مصر على المشرحة . وفعلا تناولهم واحداً واحداً على الترتيب طه حسين واحمد امين وتوفيق الحكيم والزيات حتى عرض للعقاد فقال عنه :

« ... أما العقاد فهو كاتب ومفكر وشاعر ، وهو من عيون الأدباء في هذا الجيل ، ولكن العقاد تعاوده آفة بغيضة هي حب النفس فهو لا يصلح للحكم الصحيح في المذاهب الأدبية إلا إذا رحل في آفاق التاريخ فإن تعرض للعصر الحاضر ، وفي مصر ، فلن ترى له إلا أحكاماً مشوبة بغبار الأهواء ، وما ظنكم برجل يؤلف كتابا جيداً عن شعراء مصر فيراهم جميعاً من الأكابر ولا يستثني غير شاعر واحد ، هو شوقي » .

وصمت العقاد سنوات حتى أتيح له أن يكتب مقالاً سنة ١٩٤٢ يضع فيه

---

(١) مقدمة كتاب « التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق » للدكتور زكي مبارك — طبعة المكتبة العصرية ببيروت

الأدباء على مشرحته وعندما تحدث عن زكي مبارك قال :

« أما زكي مبارك الكاتب فإنه لا يستغني عن زكي مبارك بحال من الأحوال، إذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان . لأن زكي مبارك هو موضوع زكي مبارك الوحيد ، وإذا كتب ألف مقال في هذا الموضوع ، وقرأت منها واحداً ففي ذلك الكفاية كل الكفاية . ومن ذلك يبدو زكي مبارك أقل الكتاب شخصية في حياته الكتابية لأن طابعه غير ظاهر في أُسلوبه ولا في نشأته ولا في آثاره . وقد حضر الأزهر والجامعة وجامعة من الجامعات في البلاد الفرنسية ، ولكنه لا يمثل الأزهر ، ولا الجامعة المصرية ولا جامعة في فرنسا أيا كانت » .

لم يسكت الدكتور زكي مبارك فأسرع بالرد على العقاد في جرأة فقال :

« ان العقاد تلاطف في رجال وتحامل مع رجال ، ثم صال وجال حين تكلم عن الدكتور زكي مبارك ، كأنه يجهل أن للدكتور زكي مبارك قلماً ينسف به الجبال حين يشاء ، ولقد صبرت طويلاً على تحامل الأستاذ العقاد وتركته يفرج عن حقده ، بمناوشتي من وقت إلى وقت . بعد أن أجليته عن ميدان الشعر والكتابة والتأليف ، ولكنه لا يعرف أني متفضل بالصبر عليه ، ولم يفهم أني لو شئت لقومته بأقل عناء . من ذا الذي يستطيع أن يضع توقيعه على كتاب النثر الفني أو التصوف الإسلامي أو ذكريات باريس ، ولو عاش العقاد أطول من عمر نوح لما استطاع أن يؤلف مثل كتاب النثر الفني ولو منحته المقادير منحة البقاء الأبدي لعجز عن تأليف كتاب التصوف الإسلامي . والعقاد الظريف يقول اني حضرت جامعة من الجامعات في البلاد الفرنسية فهل يجهل العقاد أني تخرجت من السربون، وأني أملك اللقب الذي يملكه منصور فهمي وطه حسين، ما الذي يمنع العقاد من التخرج من السربون إن كان من أصحاب العزائم والمواهب ، السوربون باقية فحاول الإنتساب إليها يا حضرة المفضال ان أردت ، فقد تصير دكتوراً مثلي ، بعد حين ، وقد تصير دكاترة كما صرت أنا ، ولن تستطيع

ثم يتعرض الدكتور زكي مبارك للعقاد ومسألة امارة الشعر التي خلعها عليه الدكتور طه حسين في الحفل الذي أقيم للعقاد في مسرح الأزبكية بالقاهرة مساء ٢٧/٤/١٩٣٤ بمناسبة نظمه « النشيد القومي » الذي يقول في مطلعه :

قد رفعنا العلم للعـــلا والفدا

في ضمان السماء

حي أرض الهرم حي مهد الهدى

حي أم البقاء

يقول الدكتور زكي مبارك : « ثم ماذا ، ثم اسأل عن اللقب الذي خصك به الدكتور طه حسين حين جعلك أمير الشعراء، أتدري كيف ضاع منك ذلك اللقب، ضاع لأن الدكتور طه بشهادتك في مقالك لا يملك مقاييس الشعر والبلاغـة الشعرية ، وكان المنتظر من فهمك وذوقك أن لا تبخل بالحاسة الفنية على من جعلك أمير الشعراء ، وما المناسبة التي منحك فيها الدكتور طه هذا اللقب ، أتذكر تلك المناسبة ، لعلك كنت نظمت شيئاً اسميته النشيد القومي فأين ذلك النشيد وأين نصيبه من الحياة ، لقد مات في ساعة الميلاد لأنه من نظم العقاد ، لقد زعم العقاد أنني كثير التحدث عن نفسي ، وأقول ان في نفسي كنوزاً لا تخطر على بال الاستاذ العقاد ، العقاد الذي لا يصلح لشيء إلا إذا « استأنس » بما يقول الباحثون هنا وهناك ، العقاد مترجم وأنا مبدع ، والفرق بَيّن بَيْن الترجمة والابداع » .

ونود أن نشير إلى أن الدكتور زكي مبارك قد حاول بعد ذلك وفي إبان أزمته عام ١٩٤٧ أن يشكك القراء في مسألة خلع سعد زغلول لقب الكاتب الجبار على العقاد فكتب في البلاغ في ٢٨/١/١٩٤٧ يقول :

« زعم الاستاذ العقاد أن سعداً خلع عليه لقب الكاتب الجبار . والعقـاد كاتب بلا جدال . وشاعر من أكابر الشعراء . وله في نفسي منزلة عالية حفظه الله من جميع الأسواء . ولكن الكاتب الجبار الذي عناه « سعد باشا » هو

عبد القادر حمزة باشا ، كما تشهد بذلك مذكرات محمد كامل سليم ، سكرتير سعد زغلول » .

ومذكرات محمد كامل سليم التي نشرها بالعدد ٨٧ من مجلة « الثقافة » المصرية في ٢٧ / ٨ / ١٩٤٠ بعنوان سعد زغلول كما عرفته « رجلاً وزعيما وسياسياً قد جاء فيها أنه – أي كامل سليم – قد سأله مرة عن رأيه في كاتب كبير فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع ، ما قرأت له بحثاً أو رسالة في جريدة أو مجلة إلا أعجبت به غاية الإعجاب ، وهو لا يعالج موضوعاً إلا أحاط به جملة وتفصيلاً احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد ، وله أسلوب أدبي فريد » .

والذي لاشك فيه أن هذه الخصائص لا تنطبق على أحد من أدبائنا الكبار غير العقاد . ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب « سعد زغلول » بقلم سكرتيره محمد إبراهيم الجزيري صفحة ١٩٧ :

« أما الاستاذ عباس محمود العقاد فكان أقوى ركن في جرائد الاستاذ عبد القادر حمزه ، بل في أية جريدة معاصرة . وكان سعد يحبه حباً جما ويحترمه ويعتد برأيه على حداثة سنه في ذلك العهد . وما رأيته شغوفا بقراءة مقال كما كان مقبلا على مقالات العقاد » .

ولقد كان الاستاذ العقاد معول الهدم الذي يسلطه الوفد على خصومه ، وكان حبه لسعد وإيمانه بمبادئه لا يتطرق إليهما شك ، وكان أكثر ما يكتب في السياسة ، فلم يكن لديه متسع من الوقت لسواها ، وكم أقام كثيرين وأقعد آخرين ، وكان خصوم الوفد يستعيذون من قلمه ، وكان له من غير الوفديين أتباع لا يفلتون مقالاً ينشره ، فله أسلوبه الجزل ، وله ديباجته الأدبية القوية ، حتى ليحار قراؤه فيه : أيكتب أدباً أم يكتب سياسة ؟ كان سعد يقول عنه « انه جبار ،

شديـد الوطأة على خصومه ، وعنيد في فكرته ، وإذا كتب ألم بالموضوع من جميـع أطرافه » .

والمغالطة في كلام الدكتور « زكي مبارك » حينما ينسب الجملة إلى محمد كامل سليم الذي كان سكرتير مجلس الوزراء لا إلى الاستاذ محمد إبراهيم الجزيري سكرتير سعد زغلول فيذهب القارىء باحثاً عن اسم العقاد فيما كتبه الاستاذ محمد كامل سليم فلا يجده وحينذاك يفوز الدكاترة زكي مبارك بما يرمي إليه .

بقي شيء قليل هو أن معارك العقاد مع زكي مبارك لم تكن على الصورة التي مع غيره من الادباء . فقد اكتفى العقاد بمناوشة واحدة مع صاحبـه وتركه يكفر عن اعتدائه .

والدكتور زكي مبارك نفسه في السنوات الأخيرة من حياته آثر الابتعاد عن المعارك فلم يدخل في المساجلات التي أثارها عام ١٩٤٤ محمد الغمراوي ودريني خشبة حول النثر الفني والتصوف الإسلامي كما توقع القراء والادباء . هـذا الى جانب أن الدكتور زكي مبارك بعد عودته من العراق لم يعد في قوته أو كفايته الأولى[١] .

* * *

---

(١) زكي مبارك دراسة تحليلية لحياته وأدبه للاستاذ أنور الجندي – الدار القومية للطباعة.

أبو شادي وأبولو

لا يمكن للباحث في أسباب الخصومة الأدبية التي نشأت بين أبولو والعقاد أن يغفل الظروف السياسية التي صاحبت نشأة تلك الجماعة . فهذا العامل من الأهمية بمكان لأنه من المعروف أن الفترة التي بدأت بواكير الدعوة تظهر فيها هي التي وصفها المؤرخون بفترة الظلام السياسي المنكر على مصر ، فقد كان صدقي يحكم البلاد حكماً قاسياً وهي نفس الظروف التي أبعد فيها الدكتور طه حسين عن الجامعة . وهي — أيضاً — الفترة التي أعقبت خروج العقاد من السجن بعد أن أمضى بين جدرانه تسعة أشهر بتهمة العيب في الذات الملكية .

وهي الفترة التي قامت فيها المظاهرات في بلبيس وبور سعيد والاسماعيلية والسويس والاسكندرية وقابل البوليس هذه المظاهرات بالقمع والشدة وقتل في القاهرة وحدها أربعة وجرح أربعون — أما الاسكندرية فدارت فيها مذبحة بين البوليس والشعب قتل فيها عشرون وجرح خمسمائة وقبض على كثير من أفراد الشعب واجتمع البرلمان رغم انفضاض دورته ولكن القوات المسلحة احتلت دار البرلمان وفضت الاجتماع بالقوة وحاول أحد الشبان اغتيال صدقي[1] .

---

(١) في اعقاب الثورة المصرية للرافعي ج ٢ ويراجع جماعة ابو لو وأثرها في الشعر الحديث للاستاذ عبد العزيز الدسوقي ص ٢٦٤ .

لذلك كله فقد كان من الممكن أن تكون هذه الدعوة امتداداً لدعوة التجديد التي نادى بها العقاد وشكري والمازني لا سيما أن أنصارها – كما قالوا – كانوا يعانون الغربة والوحدة والضياع وهي كما يقول بعض النقاد مأساة الجيل الثالث من الشعراء الذين جاءوا بعد مدرسة الديوان . فقد كان من الممكن أن يسير أبو شادي وصحبه في ركاب جماعة الديوان ولا سيما أنها كانت تبشر بقيم جديدة في الشعر تتلاءم مع ثقافة الشبان وميولهم وترضي أذواقهم وتستجيب لاتجاهاتهم، وكانوا يشتركون معهم في مصادر الثقافة والفكر(١) .

وقد كان العقاد من الذين رحبوا بالجماعة في بادية نشأتها فنراه يكتب في مجلتها بعددها الاول مقالاً استنكر فيه التسمية وطالب القائمين على تحريرها بتغييره واقترح اسماً آخر هو « عطارد » لأنه أكثر شرقية من « أبولو » إلا أن المتتبع لهذه الحركة الأدبية يجد أن الجماعة بعد ذلك قد وقفت من العقاد موقفاً غريباً جعل بعضهم يفسره على أنها انشئت خصيصاً لمحاربته والحط من مجده الادبي بل غالى بعض أنصار العقاد فربطوا نشأتها بالقصر ولا سيما أن مجلتها قد توقفت عن الصدور بعد خروج الابراشي من الخاصة الملكية مباشرة .

ولا يعنينا من هذه الدراسة أن ننقب عن علاقة القصر بجماعة أبولو . فهذا مجال له دراسة أخرى نرجو أن نوفق في القريب إلى تجليتها للقراء . وإنما الذي يعنينا في هذا الشأن مناقشة أنصار العقاد الذين كان لهم دخل كبير في اثارة نيران المعركة بين رائدهم وبين أبي شادي وجماعته كما يقول بذلك الاحياء من شعراء أبولو هذه الايام .

فقد روى لي الشاعر حسن كامل الصيرفي – وهو من شعراء الجماعة ومن الذين يقدرون العقاد ولم يعرف عنه رأي في مهاجمته كما فعل بعض زملائه في الجماعة أنه فكر أن يزور العقاد ويصحب معه أحمد زكي أبو شادي ليقضوا على

---

(١) جماعة أبولو واثرها في الشعر الحديث لعبد العزيز الدسوقي ص ١٧٠

تلك الفتنة التي نشبت بينهم وبين العقاد إلا أن رسل السوء على حد تعبير الصيرفي أبلغوا أبا شادي كلاماً في ندوته يفهم منه أن العقاد يسبه في ندوته فإذا ذهب إليه فقد يرفض لقاءه. حينذاك قال أبو شادي له : لا داعي لهذه الزيارة في مثل هذه الظروف . وهكذا خابت مساعي الصيرفي في رأب الصدع الذي حدث بين العقاد وجماعة أبولو . ويضيف الصيرفي أنه قد أرسل ديوانه « الألحان الضائعة » إلى العقاد مع أحد تلاميذه وهو الاستاذ عبد السلام رستم الذي نقل إليه أن العقاد أعجب بالشعر والشاعر وأنه — أي الصيرفي — لم يزر العقاد إلا في أخريات أيامه حينما كان يشرف على مجلة « المجلة » وتصادف أن كتب الدكتور زكي نجيب محمود مقالاً عن العقاد فسأله الصيرفي عن صورة حديثة للعقاد لينشرها مع المقال ، فأحاله الدكتور زكي إلى العقاد فاتصل به تلفونياً دون سابق معرفة ورحب به العقاد واستقبله في صومعته . ويقول الصيرفي : انه خرج يومذاك بعد جلسته الأولى والاخيرة مع العقاد وهو يرى في الرجل صورة أخرى مخالفة لما كان يسمعه عنه أو يلمحه حينما يهاجم في كتاباته ومعاركه . بل تأكد له أن رسل السوء قد لعبوا دوراً هاماً في معركته مع أبولو ولولاهم لما وصلت إلى ما وصلت إليه.

ومما رواه الصيرفي[1] لي ، أنه خلال معركة أبولو والعقاد تصادف أن دخل وبصحبته الشاعر صالح جودت محل حلواني بميدان لا ظوغلي يديره أحد خريجي دار العلوم ولا يذكر من اسمه سوى « بدر[2] » . ويبدو أن الرجل عرفهم وعرف صلتهم بجماعة أبولو . فما كان منه إلا أن أخذ ينهال بالشتائم على الجماعة ومؤسسها ويمدح العقاد . ولولا ان الصيرفي وصالحاً تجاهلا شتيمة

---

(١) قال لي العوضي الوكيل انه الأستاذ احمد يوسف بدر وكان شاعراً وصحفياً في جريدة كوكب الشرق .

(٢) رجعت إلى الاستاذ صالح جودت للوقوف على رأيه فيما رواه الأستاذ الصيرفي الا انه اجابني بأنه لا يذكر هذه الواقعة بل حاول ان ينفيها .

الرجل فربما حدثت أُمور لا تحمد عقباها .

هذه صورة صادقة عما أحدثته خصومات ابولو مع العقـــاد في الاوساط الثقافية وغيرها في هذه الآونة . وربما كانت العوامل السياسية من الاسباب الاولى بل الرئيسية في ذلك . لان العقاد في تلك الفترة كان بطلا شعبيا تكاد تكون مواقفه ضد الملك والحكام الطغاة مـــن الاساطير يرويها الناس باعتزاز واعجاب .. فلم يكن الناس بعد قد نسوا كلمة « سحق اكبر رأس » ولا نسوا مقالاته النارية ضد الرجعية والرجعيين ، ولا نسوا انه في سبيل رأيه وعقيدته ودفاعه عن حرية مواطنيه قد دخل السجن(١) ..

نعود إلى قضية الخصومة الأدبية بين أبولو والعقاد فنقول : إذا كانت صورة العقاد في أذهان الناس كما ذكرنا فإن أي هجوم عليه يوقع مهاجميه في الريبة والشك ولو بالنسبة لقراء الصحف العاديين. فاذا جاءت جماعة أدبية لها مجلتها التي تعتمد في توزيعها على اعانات(٢) الوزراء الذين حاربوا الحركات الدستورية وعلى صفحاتها يكال المدح لأمثال اسماعيل صدقي بل للملك فؤاد الطاغيـــة فيصفه احمد زكي أبو شادي « بالمستبد العادل » فيقول :

ضجت لرحمتك البلاد وأعولت أين العظيم المستبد العـــادل
مولاي هذي مصر يؤكل أهلها بعضاً لبعض والعتو الكافل
ولديك أنت وما لغيرك عدلهـا فاصدع فأنت المستبد العادل

فالعقاد وأنصاره في حل من اتهامهم الجماعة بأنها خلقت لتحاربه وتحارب

---

(١) العقاد والتجديد في الشعر للاستاذ العوضي الوكيل منشورات دار الكاتب العربي القاهرة ص ٥٤ .

(٢) مساعدات حلمي عيسى باشا للمجلة بعد ذهاب وفد اليه بتاريخ ١٩ / ٨ / ١٩٣٤ بالإسكندرية وتراجع مجلة ابولو المجلد الثالث ص ٥ — ٦ وقد اعترف ابو شادي في كلمته أمام حلمي عيسى باشا بأن مثل هذه المجلة الفنية مما لا يقوى على الحياة بغير اعانة حكوميه وافيه.

أمثاله من المفكرين الذين ناوأوا السلطان الغاشم .

أبو شادي نفسه نراه في مقدمة ديوانه « أنداء الفجر » سنة ١٩٣٤ الطبعة الثانية يكيل المدح لصاحب «على السفود » مصطفى صادق الرافعي ويصفه بأنه قد أوتى آيات الذكاء والشاعرية وأنه قد بلغ ما كان ينتظر له من بلوغه في الابداع الأدبي والشهرة الفائقة » .

وعلى هذه السنة ساير الأنصار من تلاميذ أبولو أستاذهم أبا شادي فحاول البعض منهم أن يجرد العقاد من الشاعرية بل رموه بأنه سرق بعض قصائده من شكري بل راحوا يشيعون في كتاباتهم أن شكري هو الذي تزعم مدرسة المجددين منذ بدايتها وأشرف على تكوينها وتعهدها زمناً طويلا .

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه « قصة الأدب المعاصر » نقلا عن أبي شادي : « ان مطران بعد أن تشرب كلا من الأدبين العربي والأوربي أسمعت قيثارته العرب في العقد الأخير من القرن الماضي ألحانا لا عهد لهم بها من قبل وأنه – أي مطران – قد أثر في أدباء كثيرين من الشبان في ذلك الحين : كأحمد شوقي ومصطفى نجيب واسماعيل صبري ، واستمر تأثيره بصور شتى جيلا بعد جيل كما تفرعت على تعاليمه مدارس شعرية متحررة منوعة منها مدرسة شكري التى انتسب إليها المازني والعقاد ، ولكن البون شاسع بين الأستاذ وتلاميذه[١] » .

وهذه النغمة بعينها يرددها الأستاذ خفاجي في مواضع أخرى نقلا عن أبي شادي – أيضاً – كأن يقول : والذي قال في شعره تلميذه عباس محمود العقاد[٢] .. الخ

(١) قصه الادب المعاصر للاستاذ عبد المنعم خفاجي ص ٧٣ .

(٢) المرجع السابق ويراجع قضايا الشعر المعاصر للدكتور احمد زكي ابو شادي – نشر الشركة العربية للطباعة والنشر – الطبعة الاولى ص ٨٤.

أو حينما يقول في ختام كلامه عن عبد الرحمن شكري ومكانته فيقول : «هذا شاعر سابق لزمنه، وزعيم مدرسة ماتت لما ابتعدت عن صلته ووحيه المباشر[١] » .

وإلى حانب ذلك نرى أن الأستاذخفاجي قد حرص في كتابه « بنو خفاجه وتاريخهم السياسي والأدبي الجزء الثالث »أن يثبت جانباًمن الرسائل التي كان يتلقاها من عميد الشعر المصري احمد زكي أبو شادي – على حد تعبيره – ففي احداها يقول أبو شادي له : « ان أدب العصابات في مصر قد طغى وهدد كل أديب نقي الضمير .. وختاماً أحذرك أيهـا الصديق من الحملة المصطنعة في المجلات وفي بعض الكتب لصد الأدباء الأزهريين وأدباء دار العلوم عن الاطلاع على المترجمات الخاصة بأصول النقـد وقواعده حتى يبقوا تحت رحمة المهرجين الذين لا يعرفون من الآداب الغربية في الواقع إلا القشور ثم يتعالون بعد ذلك على غير العارفين للغات الأوربية أو غير المتبحرين فيها !!

وأضرب لك مثالاً لذلك كتاب « ثقافة الناقد الأدبي » للنويهي ، فلا ريب عندي أن المؤلف مخلص فيما كتب ، ولكن عقليته أفسدها العقاد من البداية .. أما العقاد فاني أنا الصغير لم أسلم من اغاراتـه المتعددة على أفكاري وتأملاتي ومعاني ، ولم ينس حتى رسائلي الإسلامية وآرائي في الجزء الثاني من «قطرة من يراع » وفي « أصداء الحياة » و « مسرح الأدب » وغيرها ، وطريقته ان يخطف الفكرة ثم يبني عليها ثرثرة طويلة عريضة اعتماداً على جهل قرائه[٢] !! »

ويقول الأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي وهو من المقربين إلى المرحوم أحمد زكي أبو شادي مردداً نفس نغمات استـاذه أبو شادي : « والملحوظ أن

---

(١) المرجع السابق لخفاجي ص ٨٥ ويراجع قصه الادب المعاصر لخفاجي ص ٧٤ .

(٢) بنو خفاجه وتاريخهم السياسي والادبي للاستاذ عبد المنعم خفاجي ج ٣ ط اولى ص ٥٩ ،

أغلب شعر العقاد شعر تفكيري مألوف ، قل أن تجد فيه شعوراً أو انفعالاً دفاقاً[١] » .

ويعقب العوضي الوكيل في كتابه « العقاد والتجديد في الشعر » على هذه الآراء فيقول : « .. وابراز هذه النقطة هو هدف من الاهداف التي تألفت لها أمثال هذه الكتب[٢] » .

وقد اتخذت جماعة « أبولو » الشاعر احمد شوقي رئيساً لها . ورغم ان أبا شادي وجماعته حاولوا تبرير اختيارهم احمد شوقي لرئاستهم بأنهم قرروا مهادنة كل التيارات إلا أن هذا التبرير لم يكن كافياً بالنسبة للعقاد وإلا لماذا كانت الحملة عليه دون أدباء الشيوخ أو لماذا كانوا يغالطون وهم يزعمون أن مطران هو واضع الحجر الاول في التجديد. يقول أبو شادي : « اننا مدينون لخليل مطران بكثير من التوجيهات في شعرنا العصري. هو وضع البذور وفتح أعيننا للنور » ثم ينتهي أبو شادي إلى القول « بأن المدرسة الحديثة التي يتكلم بلسانها أبو شادي وحسن الصيرفي وصالح جودت وأبو القاسم الشابي وغيرهم هي رجع الصدى لذلك الصوت البعيد الذي ردده مطران في غير ضجة ولا ادعاء ».

ويعقب الأستاذ عبد العزيز الدسوقي على هذا بقوله : « ان ظروف مطران وثقافته كانت مختلفة عن ظروف هؤلاء الشبان وثقافتهم ، وهم أولى أن يستفيدوا التجديد عن المدرسة التي تشاركهم في الثقافة الإنجليزية وظروف الحياة وهي مدرسة الديوان وأن يكونوا الصدى القريب لهذه المدرسة كما تحتم ذلك طبيعة الظروف والأحداث ... ان هذه الاحكام التي كانوا يطلقونها على مطران كانت من قبيل المجاملة ، ولا تطابق الواقع الادبي[٣] » .

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتي ص ١٦٨ .

(٢) يشير العوضي الوكيل إلى رواد الشعر الحديث لمختار الوكيل – ورسائل في النقد لرمزي مفتاح .

(٣) جماعة ابولو واثرها في الشعر الحديث للاستاذ عبد العزيز الدسوقي ص ٣١٥ .

وللعقاد رأي فيما ذهب إليه جماعة أبولو من أن مطران واضع حجر التجديد كتبه في ختام كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم » نرانا مضطرين إلى الاتيان به في هذا الصدد .

يقول العقاد: « والاستاذ خليل مطران من جيل احمد شوقي وحافظ إبراهيم فهو أكبر من الجيل الناشيء في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهو علم وحده في جيله ، ولكنه لم يؤثر بعبارته أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين . لأن هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ويطلعون على الأدب الاوربي من مصادره الكثيرة ولا سيما الانجليزية فهم أولى أن يستفيدوا اللغة من الجاهليين والمخضرمين والعباسيين، وهم أولى أن يستفيدوا نوازع التجديد من آداب الأوربيين وليس للاستاذ مطران مكان للوساطة في الامرين ولا سيما عند من يقرأون الانجليزيه ولا يرجعون في النقد إلى موازين الادب الفرنسي أو إلى الاقتداء بموسيه ولا مرتين وغيرهما من أمراء البلاغة في إبان نشأة مطران[١] » .

ان مكايد القصر حول العقاد كادت تشبه المظاهرة وهي مظاهرة كانت قبل السجن وبعده على السواء ، لأن هجومُ العقاد على الرجعية والرجعيين كان قائماً قبل السجن وبعده، فقبيل محاكمة العقاد وسجنه ، بدأت مجلة العصور التي كان يصدرها بالقاهرة المرحوم اسماعيل مظهر تنشر سلسلة مقالات شديدة العنف ضد العقاد بعنوان « على السفود » بدأت في شهر يوليه ١٩٢٩ وانتهت في شهر يناير ١٩٣٠ ثم طبعت بعد ذلك في كتاب ، لم يذكر عليه اسم مؤلفه ، وكان طبعها بأعداد هائلة من النسخ بقصد اغراق السوق الادبية حتى لم يبق أديب أو متأدب في مصر وفي غير مصر لم تصله نسخة من هذا الكتاب .

وحاول الابراشي باشا أن يشتري الاقلام بالجملة لتهاجم العقاد ، تارة تجعله

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد الختام .

غير شاعر وغير أديب وغير فاهم شيئاً على الإطلاق ، وتارة توافق على أنه أدب وعلى أنه شاعر ولكنه لم يدع إلى تجديد في الشعر أو الادب ، وإنما سبقه إلى ذلك خليل مطران حيناً ، وعبد الرحمن شكري حيناً آخر ، وتعطي رخص الصحف والمجلات للناس بالجملة ليسودوا صفحاتها بهذا الكلام وبغيره ، وليفتح الناس أعدادها المتوالية ، فلا يجدون إلا العقاد مشتوماً مسبوباً مجرداً من كل مزية خلقية أو فكرية أو وطنية .

وتصدر عن الجهات التي تصدر تلك الصحف والمجلات كتب تلوث العقاد فلا تبقي منه جانباً بلا تلويث ، ونستطيع أن نقرأ في هذا المجال مقالات كتبها في « أبولو » و « العصور » و « الامام » و « النهضة الفكرية » اسماعيل مظهر والرافعي ، والسحرتي ، ومحمد غلاب ، واحمد فتحي ورمزي مفتاح ويوسف طيره . ويقول العوضي الوكيل « ان هذا الاخير برفان أدبي حيث كان أحد عمال مطبعة أبولو والامام وكان لا يعرف شعراً ولا أدباً[1] » . واسماء أُخرى مستعارة وغير مستعارة يتبارون في إهانة العقاد والزراية به ، ومحوه — إذا استطاعوا — من عقول القراء وقلوبهم .

هي حملة لا يمكن أن تقع صدفة — ولا يمكن أن يقال ان هؤلاء الابطال كانوا يكرهون العقاد لوجه الله تعالى فينسقون العمل بينهم تنسيقاً على هذا النحو البديع الذي ينمّ عن عبقرية حربية .

وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا الشاعر صالح جودت وهو من الجماعة ومن الذين لا يجدون فرصة سانحة دون الإشادة بأبولو ورجالها في الصحافة المعاصرة فقد اعترف — بلا شعور — بما قاله العقاد وما نقول فكتب يقول :

« حين وقعت الواقعة بينه — أي ابي شادي — وبين العقاد بعد حكاية « أبولو » و « عطارد » ... فكان لا يألو جهداً في محاربة العقاد بقلمه ، ويحرضنا

---

(١) على السفود بين الرافعي والعقاد للعوضي الوكيل .

– ونحن في أول الشباب – على محاربته معه – وإذا أعوزته الاسماء ، ابتكر اسماء من صنع الخيال واستكتبها لتنال من العقاد بكل سبيل . وان من يراجع مجموعة « أبولو » في دار الكتب ، لا يصعب عليه أن يهتدي إلى كثير من الاسماء التي لا وجود لاصحابها والتي أسهمت في الحملة على العقاد بطريقة ضارية[١] » .

وتقتضينا الامانة أن ننقل للقراء فقرات من مقال العقاد الذي نشره بالجهاد عن مساعي الابراشي في عالم الادب العربي « وقد اشرت إليه آنفاً :

يقول العقاد : « ان نقاده مأجورون ، وقد قبضوا ثمن نقدهم له وتشهيرهم به ، وان حكام البلاد هم الذين أغروهم بمهاجمته والنيل منه « مصطفى أفندي الرافعي » ألف كتاباً في التشهير بالدكتور طه ، وألف كتاباً سماه «على السفود» أفعمه بالطعن الفاحش في كاتب هذه السطور . ووقف نفسه من سنوات على السرقة من كتبي والإنكار علي وعلى ما أكتب وأنظم ، ولم يتورع في سبيل ذلك عن كذب ولا بذاء ولا تشويه ولا تحريف ، فهل يعلم القراء في أي شيء كان الجهاد النبيل ؟ سلوه عمَّن تعلم من أبنائه على نفقة الخاصة الملكية التي يديرها الابراشي باشا[٢] ، وعما طبع من كتبه على نفقة الخاصة الملكية ؟

---

(١) صالح جودت مجلة الهلال اكتوبر سنة ١٩٧٠ مقال معركة أبولو وعطارد.

(٢) ذكر الشيخ ابو ريه في كتابه « وسائل الرافعي » ص ١٥٨ في الرسالة ١٢٤ المؤرخة ٦ يونيو سنة ١٩٢٩ ما يؤيد ما ذهب اليه العقاد وهو ان الرافعي حينما بدأ في كتابة تلك المقالات تلقى من السراي اعانة ملكية ضخمة هي في الظاهر منحة عن كتاب المساكين في طبعته الثانية ، وهو تبرير لا يخلو من نظر لان الرافعي ألف قبل المساكين كتباً، فلو ان الملك كان مغرماً بمكافأة الادباء على حسن انتاجهم لكافأ الرافعي على بعض او كل ما ظهر له قبل ذلك ، ان كان في نظر الملك ممن يحسنون الإنتاج . بل لكافأ غير الرافعي من أدباء ذلك العهد وهو أمر لم نسمع به ولم يسمع به أحد (يراجع على السفود بين الرافعي والعقاد للعوضي الوكيل) .

« واسماعيل افندي مظهر صاحب مجلة العصور لم يدخر من وسعه شيئاً في التشهير بي والافتراء علي، وانتحال المزاعم الخاوية التي يسندها إلي، فهل يدري القاريء ماذا كان جزاؤه على هذه الحماسة لوجه الله ؟ لم ينقض على آخر مقالة كتبها في ذمي شهر او نحو ذلك حتى اصاب وظيفة كتابية في المجمع اللغوي، ينقدونه مرتباً لها مائتين واربعين جنيهاً في العام ! »

وهناك رجل جاهل اسمه « غلاب[1] » ولا أدري ما قبل ذلك او بعده من الاسماء والالقاب، فهذا الرجل الجاهل قد استحق مقام التدريس في الجامعة الازهرية لانه كان يطبع في القاهرة وريقة يسميها « النهضة الفكرية » ويملؤها بالغباء والبذاء على انتقاص طه حسين وعباس العقاد !

والشيخ زكي مبارك رجع إلى الجامعة المصرية بعد فصله منها زهاء خمس سنوات، لانهم استخدموه في احتفال يقابلون به احتفال الامة المصرية بالنشيد القومي الذي نظمته في مطلع هذا العام، ولانهم رضوا عما كتب في غمز طه حسين وغمز العقاد من كلام معيب في بعض الكتب والمقالات.

وهناك طبيب متشاعر — يقصد احمد زكي ابا شادي — سمحوا له باصدار خمس مجلات في وقت واحد، وهو موظف باحدى المصالح الحكومية، فجعل القسم الادبي من مجلاته كلها وقفاً على التشهير بالعقاد وادب العقاد واخلاق العقاد وإلى الناس مثل من الاسفاف الذي ينحدر إليه الطبيب المؤتمن على الاعراض والارواح، ومثل من ادب الصحفيين الذين تغمرهم الوزارة بالرخص الكثيرة حين تضن على غير الموظفين برخصة واحدة، لانها حريصة على الادب والاعراض.

---

(٢) غير الدكتور غلاب آراءه هذه في العقاد فيما بعد وظل يتردد على ندوته حتى وفاته وقد كتب بحثاً قيما عن العقاد عند بلوغه السبعين في كتاب « العقاد دراسة وتحية « تحت عنوان » العقاد موسوعة « يراجع المقال المذكور ص ١٢٣ .

جاء في احدى مجلاته « ومن الناس من يهيم بالاباحية ويؤمن بالشيوعية في اللذات ، ومن ذلك قصيدة العقاد « ليلة الاربعاء » يصف فيها ليلة في دار والقصيدة مع هذا منشورة في الصفحة الثمانين من مجموعة شعري الكبيرة ، وليست سراً ولا اثراً خطياً مهجوراً ، فيجوز عليه الاختلاق والافتراء ، وإنما قيلت في وصف الإسكندرية .

وليس هذا التلفيق الدنس بالذي يقع فيه الإنسان وهو جاهل بالحقيقة ، غافل عن معنى القصيدة وإنما يتعمده ويتعمد تشويه المعنى ، والتقديم والتأخير في ترتيب الابيات ، لينتزع اسباب التشهير انتزاعاً من حيث لا موجب للتشهير وهو اول من يعلم انه كاذب ملفق مخادع لقرائه ، وذلك حضيض من التبذل لا ينحدر إليه إلا المدخولون الموصومون[1] » .

لذلك كله كان موقف العقاد من مهاجميه ومن جماعة ابولو موقف الرجل الذي يجد جماعة تخرج على الناس بخمس مجلات لا هم لها إلا شتمه وسلب مجده الادبي ومحاولة ادخال اسبقية غيره عليه في التجديد. وينضم إلى ذلك المعسكر الجديد كل من كان يهاجمه فيما سبق . والمتتبع لمقالات العقاد الأدبية يراه قد كتب في ١٢ يوليه سنة ١٩٥١ بصحيفة الأخبار مقالاً حول تلك التجمعات الأدبية التي دفعت لمهاجمته فيقول :

« قبل أكثر من ثلاثين سنة نشأت عندنا مدرسة للدعاية الأدبية باسم أدب الشباب وأدب الشيوخ . هذا هو الموضوع العلني أمام أبصار القراء . والموضوع كما قلنا لا يعني شيئاً عند أصحاب الدعاية المغرضة غير التوسل به إلى قضاء الغرض المستور ، فإذا وصل الموضوع بأصحابه إلى ذلك الغرض فقد وصلوا إلى الهدف

---

(١) الجهاد مقال العقاد « مساعي الابراشي في عالم الادب العربي ١٥ / ٤ / ١٩٣٤ ، ويراجع « التيارات المعاصرة في النقد الادبي للدكتور بدوي طبانه ص ٥٧ .

المقصود وإلا فالموضوعات بحمد الله كثيرة ولا حساب لها ولا حساب عليها وبعد كل موضوع منها موضوع آخر وموضوعات أخريات ، تأتي على الأثر وتصلح للادعاء والافتراء إلى أن يدرك شهرزاد الصباح فتسكت أو تتكلم بالكلام المباح وغير المباح .

كانت جماعة أبولو تصدر مجلة شهرية بهذا الاسم ومجلة أسبوعية باسم الإمام وتصدر معها رسائل وكراسات من مطبعتها الخاصة لترويج دعوة واحدة تسميها « أدب الشباب » وتدبير حملة واحدة تسميها الحملة على أدب الشيوخ .

وقبل نيف وثلاثين سنة لم يكن كاتب هذه السطور من زمرة الشيوخ . كان في الأربعين ولم يكن وحده في هذه السن من الكتاب المعروفين . كان معه في هذه السن عبد الرحمن شكري وإبراهيم المازني وطه حسين ومحمد حسين هيكل واحمد أمين مع آخرين وآخرين .

بل كان أكبر منهم جميعاً في السن أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران وحفني ناصف واسماعيل صبري وغيرهم وغيرهم من جيلهم بين أحياء وأموات .

ولكن عباس العقاد فقط لاغير كان هو الشيخ الوحيد بين هؤلاء جميعاً في الأربعين مثله أو في الستين والسبعين » .

وقد حاول الشاعر صالح جودت أن يدافع عن علاقة جماعته بالقصر فكتب مقالاً على صفحات مجلة الهلال بعددها الصادر في اكتوبر سنة ١٩٧٠ تحت عنوان « معركة أبولو وعطارد » فقال :

« كان أبو شادي ينفق على هذه المجلات من جيبه الخاص فلم تأت سنة ١٩٣٥ حتى كان قد أجهز على ما ورثه وورثته أخواته البنات من ثروة أبيهم المحامي والسياسي الوفدي الكبير « محمد بك أبو شادي » . ثم يقول في نفس المقال :

« الحقيقة أن » أبا شادي » كان منصرفاً لخدمة الرسالات التي جد من أجلها

وهي عجيبة ومتشعبة ومتضاربة فهو أولاً طبيب معملي وهو شاعر وأمين عام لجماعة أبولو ورئيس تحرير مجلتها.

وهو رئيس لجماعة النحالة المصرية، ورئيس تحرير لمجلتها «مملكة النحل» وهو رئيس لجماعة تربية الدواجن ورئيس تحرير لمجلتها «الدجاج» وهو رئيس لجماعة الصناعات الزراعية. وهو محب للادب الشعبي، ورئيس لتحرير مجلة «الامام» الزجلية التي اختار أمير الأدب الشعبي» محمود بيرم التونسي« ليحررها من الغلاف إلى الغلاف، وحده وبالمراسلة إذ كان يومئذ منفياً في باريس، مغضوبا عليه من القصر لطعنه في شرعية مولد فاروق ... وكان أبو شادي يعيش عيش المتقشفين لا يملك إلا بذلة واحدة للشتاء وأُخرى للصيف وكان لا يذهب إلى مسرح ولا إلى سينما، ولا يشرب الخمر ولا يصطاف إذا جاء الصيف. ومع هذا فقد كان أبو شادي يقتطع من راتبه الربع على الأقل في أول كل شهر ليعين به أربعة أو خمسة من الشعراء المعوزين والمعدمين ممن لا يزال بعضهم على قيد الحياة. فهل كان معقولاً وهــــذا حال الرجل وهذا هو موقفه من بيرم - عدو القصر - أن يكون عميلا للقصر، مأجوراً لمحاربة «العقاد[1] ؟»

ونحن نجيب الأستاذ صالح جودت على تساؤله هذا ونعقب على ما قال قائلين له والمسألة هنا مسألة حقائق لا يجادل فيها إلا من يريد أن يهز الكتفين ويشيح برأسه لمجرد أنها حقائق لا يريد التسليم بها ولو سلم بهـــا كل ذي عقل وكل ذي بصيرة سليمة.

فالمعروف ان «مجلة الإمام» كما تقرر أعدادها التي صدرت لم يكن يحررها من الغلاف إلى الغلاف محمود بيرم التونسي كما يزعم الأستاذ صالح جودت، بل شارك فقط في تحريرها بزجل أو موال أو نحو ذلك وأعدادها موجودة وشاهدة

---

(١) مجلة الهلال اكتوبر ١٩٧٠ مقال صالح جودت معركة ابولو وعطارد ص ٤٧ - وما بعدها.

على صدق هذا الكلام . يضاف إلى ذلك ان مقالات الإمام كانت في أكثرها هجوماً على العقاد ولم يوجد في صفحاتها أي مقال أو زجل أو قصيدة تهاجم الملك فؤاد أو تتحدث عنه بما يمكن أن يسمى هجوماً وإلا فليقل لنا الأستاذ صالح جودت أين هذا الهجوم لا سيما أن الأعداد موجودة وليس فيها شيء مما يقول .

ويلاحظ القارىء المدقق أن أبا شادي في مجلاته جميعاً كان حريصاً على تأكيد ولائه للقصر بل والسعي إلى تعيين شاعر للملك . فهل يمكن أن يتحدث أبو شادي عن تعيين شاعر للملك في الوقت الذي يهاجم فيه الملكية في صحفه؟! اقرأ مقالاً بامضاء يوسف طيره عنوانه « شاعر الملك » منشوراً بالعدد الرابع من المجلد الثاني ديسمبر سنة ١٩٣٣ ص ٣٠٨ . ويقول العوضي الوكيل انه رأى أبا شادي وهو يكتب هذا المقال ويعطيه للاستاذ حسن كامل الصيرفي ليقرأه قبل النشر.

أما مسألة اعانة الشعراء المعوزين والنقراء التي كان يقوم بها أبو شادي كما ورد على لسان الأستاذ صالح جودت في مقاله المذكور فهو أمر واقع ولعله يعلم ذلك جيداً ويفهم بالإشارة ما نريد أن نقول له الآن وكان يأخذ معه محمود أبو الوفا الذي لم يشاركهم في سب العقاد فقطعوا عنه المعونة وكتبوا عنه مقالاً في أبولو قالوا عنه فيه «أبو الجحود لا أبو الوفاء ؟ كما كان يشاركهم في أخذ هذه المعونة أديب آخر معروف انضم لجماعة الاخوان المسلمين وضل سواء السبيل وكذلك الشاعر عبد الحميد الديب الذي لم يكتب شيئاً مما أرادوا أن يكتب فنبذوه وقطعوا اعانته .

ولكي يجب أن نصدق أن أبا شادي كان ينفق من جيبه على خمس مجلات غير ناجحة أن يتصور الإنسان أنه فورد أو البدراوي عاشور أو عمر طوسون أو من يشابههم في ثرائهم. فقد كان كل من يراه في تلك الفترة ينفق بغير حساب على المجلات وعلى الحملات التي اختص بها العقاد دون غيره من سائر عباد الله كان يقول في

نفسه ان هـذا مورد رسمي ولا يمكن ان يكون أهلياً بحال من الأحوال .

ان عداوة أبي‌شادي للقصر ولصدقي وللنحاس التي يحاول صالح جودت في غفلة من التاريخ أن يحشو بها عقول القراء من الجيل الناشيء تكذبها دواوينه وحسبك ان تقرأ ديوانه (لمن السماء) الذي طبعه بعد رحيله إلى امريكا أمداحاً سخية في فاروق والنحاس وصدقي وغيرهم . فهذه العداوات ليست إلا وهماً في خيال الأستاذ صالح جودت ليبرأ صديقه ووليه القديم ومعينه في الشدائد الدكتور احمد زكي أبو شادي ولو أدى بـه ذلك إلى الكذب على التاريخ .

ويقول صالح في مقاله هذا ان بيرم كان يهاجم العقاد فنقف طويلاً أمام هذه الدعوى ونقارن بين ما يقوله الأستاذ عبد الفتاح غبن في مقال نشر بصحيفة الجمهورية في الأسبوع الأول من مارس سنة ١٩٧١ فتصيبنا الحيرة والدهشة لأن عبد الفتاح غبن يقول ان العقاد كان على صلة ببيرم يكتب له الرسائل في منفاه بباريس ، ويقول صالح ان بيرم كان يشتمه ويهاجمه لكننا لا نتردد في تصديق عبد الفتاح غبن وتكذيب صالح لأن غبنا قضى أيام بيرم الأخيرة كلها يسجل تاريخه من فمه فهو لا شك أقرب شهود التاريخ إلى الصدق .

يضاف إلى ما تقدم ان العقاد كان من بين الشخصيات التي لقيها بيرم بعد حضوره إلى مصر وفي فترة اختفائه . وقد رآه كثير من تلاميذ العقاد في هـذه الفترة وقد أحضره إليه الأستاذ محمد مصطفى حمام .

وأخيراً فإننا لا نندهش حين نقرأ دفاعاً حاراً عن أبولو ولو بالتلفيق ممن كانوا ينتفعون بمزايا صلتها بالحكم والحاكمين . كما لا نندهش حينما يعلن العقاد ان حملتها عليه لم تكن سوى مأجورة من القصر والحكام الذين كان يحاربهم ويحمل عليهم .

وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا احمد زكي أبو شادي ينقد ديوان العقاد « وحي الأربعين[١] » على صفحات أبولو المجلد الأول فيقول: « ان بالديوان روائع شتى على معظمها سمة التفكير والفلسفة وعلى القليل منها مسحة العاطفة الخاصة .. وأن العقاد أحيانا يتعثر في تعابيره بغير موجب ونخال ذلك راجعاً إلى اعتداده بنفسه وسخطه على القدامى العابدين للصور الكلامية والألفاظ الجوفاء ، مثال ذلك قوله يوم عصبصب ص ٦٧ وكان له ندحة عن استعمال هذا اللفظ النافر ، وقوله ص ٨٢ :

إذا قلت زوراً فهو من صدق شيمتي ومن يصف الدنيا يصف خيم ختال

يريد طبع ختال . والشعر العصري في غنى عن أن يتخم بلفظة خيم .. ومنها أن العقاد أحيانا شديد التركيز في أسلوبه حتى يكاد لا يبين عن مراميه كما هو ملحوظ في قصيدته « فلسفة حياة » ص ١٧ ونلمح في بعض قصائده خواطر سابقه كما في قصيدة « ضلال الخلود » ص ٣٥ فهي تذكرنا بقصيدة « الشاعر البابلي » لعبد الرحمن شكري » .

وحين وجد العقاد الفرصة سانحة للكتابة عن أبي شادي خرج بمقالات عنيفة وانتقد فيها أبا شادي واتهمه بالضعف والقصور ثم راح يرمي الذين تعرضوا لديوان وحي الأربعين بأنهم « أنذال .. وأوشاب من السوقة ومنكوبون .. وأدعيا [٢] » .

وهنا بدأت المعركة تأخذ شكلا عنيفاً فتدخل كثيرون من أنصار العقاد وأبي شادي حفلت بها صحف الجهاد والوادي والأسبوع وأبولو والرسالة ولم

---

(١) اعترف صالح جودت بعد وفاة العقاد فقال « صحيح كذلك ان الحملة على العقاد كانت في الكثير من جوانبها ظالمة ، ذلك لاننا قصرنا نظرتنا في نقد الحملة على التقاط الزوايا المظلمة دون الزوايا المشرقة بينما الناقد الحق هو الدارس الذي يبرز القيم الجمالية قبل نقاط الضعف (الهلال اكتوبر سنة ١٩٧٠)

(٢) جماعة ابولو واثرها في الشعر الحديث للاستاذ عبد العزيز الدسوقي ص ٤٩٨

تتوقف إلا عندما أجهزوا على مجلة أبولو وجماعتها فتوقفت عن الصدور سنة ١٩٣٤ .

وعندما صدر ديوان إبراهيم ناجي « وراء الغمام » تناوله العقاد بالنقد العنيف على صفحات صحيفة الجهاد فكتب يومذاك :

« أظهر ما يظهر من سمات هذه المجموعة الضعف المريض والتصنع ، فإن صاحبها – كما يدل عليه كلامه – من أولئك الذين يفهمون أن « الرقة » ترادف البكاء وأن الشاعر ينظم ليبكي ويشكو وأن العاشق يجب أن يبكي ويشكو ، فإذا هجره الحبيب بكى ، وإذا زاره الحبيب لم يجز له أن يكف عن البكاء :

بي ما تحس وفي فؤادك ما بي … فتعال نبك أيا نجي شبابي

تجري الدموع وأنت دان واصل … كمسيلهن وأنت في الغياب

وإذا تناجى وحبيبته قال لها : « هاتي حديث السقم والوصب » أو حدثها في « شكوى جوي قاسى وسقم مبرح وتسهيد أجفان وصبر سنين » إلى نحو ذلك من أعراض الرخاوة المريضة التي لا نزال نحاربها منذ عشرين سنة في الشعر والنثر والغناء ، وكنا نحسب أن الجيل الحاضر المدخر للكفاح والعزائم قد نجا منها أيما نجاة .

وليس أفسد ولا أسقم من ذوق لا يتخيل في الحب إلا أنه فرصة للأنين وذرف الدموع وهو هو الشعور الذي يضاعف رجاء الحياة ويوسع آفاقها أمام المحبين ويبث في النفس قوة خارقة تغالب العقبات وتسخر بالمتاعب والأخطار ، وليس أدعى إلى الاشمئزاز من رجل في نحو الأربعين ينطلق باكياً منتحباً كالطفل العليل النكد ... لأنه عاشق أو لأنه شاعر يفهم العشق والشعر على هذا النحو الماجن البغيض .

وإلى جانب هذه الرخاوة المريضة تصنع ظاهر في معظم القصائد التي قرأناها من المجموعة ، بل ظاهر حتى في اسمها « وراء الغمام » لأنه اسم لا معنى له ، ولا

علاقة بينه وبين موضوعه ، ولا يعدو كما قال أديب كبير أن يكون « تفنينه » « كتلك » التفانين » البلدية التي توحي إلى بعض العامة أسماء « حلوة » من قبيل نزهة النفوس وروض المسرات وقطر الندى وغيرها من الأسماء التي لا مطابقة بينها وبين الأشياء .

وربما كان أدل شيء على التصنع أن قصائد المجموعة تستكمل « لوازم » العاشق التقليدي كلها ولا تعبر عن شعور العاشق الصحيح في كثير ولا قليل .

فالعاشق التقليدي يلزمه أن يصيب الحبيب بالمرض مرة ليعوده وأن يصاب هو بالمرض مرة أخرى ليعوده الحبيب ،ويلزمه قميص من حبيبه يلبسه حين يمرض فيشفيه ، ويلزمه دار قديمة يزورها بعد هجرتها ، وموقف انتظار متململ فيه ، وساعة يبكي فيها وساعة يبكي فيها عليه ، ويلزمه عواذل يقفون له بالمرصاد وقلب محطم وسحنة شاحبة ومناظر طبيعية ورياض وبساتين وذكريات ومفاجآت ، وليس شيء في ذلك ضروريا للعاشق الصحيح الذي قد يعرف العشق في لبابه ولا يعرف رسما من تلك المراسم ولا شارة من تلك الشارات » .

ثم راح العقاد يتهم ناجي بالسرقة فيقول: « على أن أقبح ما في هذه المجموعة جرأة صاحبها على السرقة من الأحياء المعاصرين ومنهم كاتب هذه السطور ، فهو يقول :

يا للقلوب لملتقى اثنين	لا يعلمان لأيما سبب
جمعتهما الدنيا غريبين	فتآلفا في خلوة عجب
عجبا لنا في لحظة صرنا	متفاهمين بغير ما أمد
يا من لقيتك أمس هل كنا	روحين ممتزجين في الأبد

وهي أبيات ان جردتها من فهاتها الخاوية ، وجدتها مأخوذة من قصيدة « بعد عام » لكاتب هذه السطور ومنها:

مر عام منذ سرنا حيث سرنا لا نبالي ما أتى أو سوف يأتي
منذ ما كنا غريبين فصرنا كل شيء أنا في الدنيا وأنت

* * *

وكأن لم نكُ في يوم مضى مفردي قلبٍ أولا مفترقين
ليس يُقضى ، لا ولا كان انقضى قبل ميثاق الهوى طرفة عين

وهو يقول :

أَريك مشيب الفؤاد الشهـ يد والشيب ما كلل المفرقا

وهو مأخوذ من قولي :

وما انتفاعي وقد شاب الفؤادسدى ان لم تشب أبداً كفي ولا قدمي

وهو يقول :

وجرى يميني في غزير حالك مسترسل كالجدول المنساب

وقد أخذه من قولي :

وتلمس كفي شعره فكأنني أعارض سلسالاً من الماء صافيا

وهو يقول:

مر الظلام وأنت ملء خواطري ودنا الصباح ولم أَزل مشغولا

وهو من قولي :

فإذا صحوت فأنت أول خاطر وإذا غفا جفني فأنت الآخر

وله قصيدة يسميها الحياة ويقول فيها :

سيان ما أجهل أو أعلم من غامض الليل ولغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم رواية طالت وأين الستار ؟
عييتُ بالدنيا وأسرارها وما احتيالي في صموت الرمال

وهي قصيدة مقتبسة في موضوعها ووضعها وأفكارها من قصيدتي « أمنا الأرض » التي أتمثل فيها الإنسان طفلا يسائل أمه وهي تخبره بما يوافق علمه ومنها :

أسائلُ أمنا الأرضا		سؤال الطفل للأم
فتخبرني بما أفضى		إلى إدراكه علمي

ومنها :

فقلت لها وما السَّقَمُ		وما الآلام والبلوى
وما الآفات تخترم		شبابَ الأحور الأحوى؟
فقالت إنما البلوى		عقاب الطيش والنَّهم
فإن جرتم على الحلوى		هززت لكم عصا الألم

ومنها :

بني الدنيا لعابٍ بها		ففي الأبواب قصَّادُ
لكم يوم بملعبها		وتحت الأرض آباد
؟؟ لها ملهىً تكرره		إذا ما انفضَّ لم يُعقدُ
نغاديه فننظره		ويوصَدُ بابُه السرمد

جواها		وردت ظمأى وعادت بصداها

ظمأهم		قلبا على شطيك من وردوا

ويقول :

والشمس تبدو وهي تغر		ب شبه دامعة العيون

وهو من قولي في شمس الخريف :

والشمس ساهية الشعاع كمقلة		وطفاء جللها البكا بدموع

وغير ذلك كثير نحصيه لولا أننا سنطيل وهو غير السطو على « القوالب الشعرية » التي توضع فيها الكلمة بوزن الكلمة وتدل على امتلاء سمع الناظم وفكره بما يقرأ من الكلام .

ولو كان صاحب « وراء الغمام » أكثر أدبا في الاعتراف بالفضل لأعرضنا

عنه وتجاوزنا له كما يتجاوز لغيره ، ولكنه يحتاج إلى درس كهذا الدرس وقد ينفعه إذا كان فيه منتفع ![1] ».

ولم يكن العقاد وحده الذي هاجم شاعرية ناجي يومذاك بل شاركه في ذلك الدكتور طه حسين[2] فكانت تلك المقالات مع غيرها سبباً من الأسباب التي دفعت إبراهيم ناجي إلى هجر الشعر فترة من الزمن. ويروى أن ناجي كان في لندن عندما وقعت في يده صحف القاهرة أثناء احتدام المعركة حول ديوانه، وقرأ مقالة الدكتور طه حسين ، وكان يتوقع منه كل شيء إلا هذا الكلام الذي قرأه ، فغامت الدنيا في عينيه وأخذ يهيم في شوارع لندن لا يدري شيئاً مما حوله ، حتى دهمته سيارة عابرة فكسرت ساقه ولزم الفراش في المستشفى لمدة طويلة ثم اجريت له جراحة انتهت بالنجاح وخرج الشاعر من المستشفى ليعود إلى وطنه وفي نفسه من مرارة الصدمة ما فيها وعندما وصلت به الباخرة إلى الإسكندرية هتف من أعماقه :

هتفت وقد بدت مصر لعيني ... رفاقي تلك مصر يا رفاقي
خرجت من البلاد أجر همي ... وعدت إلى البلاد أجر ساقي[3]

خلال ذلك كله أفسحت أبولو صدرها لمقالات كثيرة تهاجم العقاد في قسوة وتحامل قادها اسماعيل مظهر ورمزي مفتاح ومحمود الخولي ومحمد علي غريب والهمشري ، بل ويرى من يطالع تلك الأعداد أن مصطفى صادق الرافعي دخلها متفكهاً فكتب مقطوعة بعنوان « إلى ... » مهداة منه وهي ثلاثة أبيات شعرية قاسية جارحة .

---

(١) الجهاد مقال العقاد ١٩٣٣/٦/١٢ في ديوان « وراء الغمام » لابراهيم ناجي .
(٢) حديث الاربعاء للدكتور طه حسين – الجزء ٣ ص ١٧٠ وما بعدها .
(٣) ناجي شاعر الوجدان الذاتي لأحمد المعتصم بالله – الدار القومية ص ٧٧ .

إلا أن محمود الخولي قد نفى نقلا عن أبي شادي أن الأبيات موجهة للعقاد[١].

ومهما يكن من شيء فقد تطورت المناقشات تطوراً كبيراً. ولا يفوتنا أن ننقل للقراء ما كتبه اسماعيل مظهر عن العقاد تحت عنوان « الشاعر المستحجر » وكيف وصفه في مقاله بالعنت والسخف . فقال – رحمه الله – « اني أمسكت عن شعر العقاد عن عقيدة ، وعقيدتي الراسخة هي أنه مستحجر شأنه في الشعر شأن بقايا الحيوانات البائدة التي تطمر في جوف الأرض ويبدلها التفاعل الطبيعي من الحالة العضوية إلى الحالة المعدنية .. وشأن العقاد في الشعر شأن هذه الحيوانات .. وشعره كبقاياها[٢] » .

واستمر اسماعيل مظهر بعد ذلك في كتابة دراسة عن « العقاد في الميزان » هاجمه فيها بقسوة واتهمه بالسرقة وفي ذلك يقول منها :

« شاء أن يغض من شاعرية ناجي فوكز نفسه وشعره وسجل على الأدب عار الفساد في نقده وعلى الجمهور عار التغرير به » .

هذا إلى جانب ما كتبه رمزي مفتاح متهماً العقاد بأنه سرق بعض شعره من شكري وراح يستشهد بأبيات من شعر العقاد ويحاول أن يأتي بنظيرها من شعر شكري وختم مقاله يومذاك بقوله :

« وديوان العقاد عامر بتوارد الخواطر إلى درجة تثير أشد الدهشة : فكل قصيدة غزلية لها أصل في ديوان شكري » .

وقد قدم لرمزي مفتاح « رسائل النقد » الأديب جبران سليم الذي لم يفته أن يردد في الصفحة الأولى ما تردده الجماعة فيقول « ولقد كان تلميذاه العقاد والمازني يلازمانه ويأخذان من أدبه ويؤمنان بعظمته حتى أن المازني كتب في

---

(١) تراجع أبولو المجلد الاول ص ٩١٤

(٢) تراجع أبولو المجلد الاول ص ٧١٨

الدفاع عن ديوانه الأول قرابة عشرين مقالاً متتالية[1] » .

ومن العجيب أن رمزي مفتاح في كتابه هذا يلقي بأحكام على أمور أدبية خطيرة دون تروٍ أو مراجعة لنفسه أو للواقع ولو لبضع لحظات كأن يقول في كتابه مثلا « ان كل دواوين شكري طبعت ونفدت قبل صدور « دواوين العقاد » . والحقيقة التاريخية تنكر هذا الزعم المفتاحي . لأن ديوان العقاد الأول صدر كما هو معروف عام ١٩١٦ والثاني في عام ١٩١٧ على حين أن ديوان شكري الخامس صدر في عام ١٩١٦ وديوانه السادس في عام ١٩١٨ والسابع لم يهتد أحد إلى عام صدوره وهو قطعا بعد عام ١٩١٨ أو عام ١٩١٨ ، فيكون ديوان العقاد الأول والثاني صدرا قبل بعض دواوين شكري ، ويكون زعم رمزي في صدور جميع دواوين شكري قبل دواوين العقاد زعما غير صحيح[2] .

ويقول الأستاذ مصطفى السحرتي : « وإذا اتخذنا الدواوين حجة قاطعة على سرقة شاعر من شاعر لعدونا النصفة ، لأن بعض الشعراء قد يحبسون قصائدهم ولا يخرجونها إلا بعد زمن يطول ويقصر ، أو قد ينشرونها في المجلات الأدبية قبل إبرازها في ديوان ، وعلى هذا الاعتبار تكون تهمة السرقة في حاجة إلى تحقيق واسع دقيق ولا نجده مع كمال الأسف في « رسائل النقد » ولنضرب مثالاً محدداً على ما نقول « قصيدة » كأس على ذكرى » للعقاد التي زعم رمزي أنها مسلوبة من قصيدة « يا مضيء البسمات » لشكري في وزنها وقافيتها ، ونظامها ومعناها وأن قصيدة شكري كتبت قبل قصيدة العقاد بأزمان طويلة ، وجذب عليها الدهر ذيل النسيان ، فمسخها العقاد قليلا وادعاها لنفسه . وهذا زعم يحتاج إلى تحقيق وينكره الدليل الإيجابي الظاهر ، وذلك لأن قصيدة العقاد « كأس

---

(١) رسائل في النقد المقدمة للاديب جبران سليم صفحة (أ)

(٢) يراجع الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للاستاذ مصطفى السحرتي ص ١٢٢

على ذكرى » ظهرت في ديوانه الثاني الذي صدر عام ١٩١٧ على حين أن قصيدة شكري .. « يا مضيء البسمات » ظهرت في ديوانه السابع المسمى « أزهار الخريف » وهذا الديوان وان لم نجد تاريخاً لصدوره ، إلا أننا يمكننا تحديده تحديداً صحيحاً وهو عام ١٩١٨ أو بعد ذلك ، لأن ديوان شكري السادس المسمى « بالأفنان » صدر عام ١٩١٨ ، ومعنى هذا أن قصيدة العقاد ظهرت قبل قصيدة شكري[١] .

ازاء تلك الحملات المغرضة لم يقف تلاميذ العقاد وأنصاره موقف المتفرج ، بل راحوا يوجهون حملات نارية إلى جماعة أبولو . ومن تلك الحملات سلسلة المقالات التي كتبها الأستاذ حسين المهدي الغنام بصحيفة « الوادي » تحت عنوان « نقد الشفق الباكي[٢] » . قدم لها بقوله :

« وهكذا أحمد زكي أبو شادي يطلق دواوينه تبحث عن قراء فلا تجد فيطلق في أثرها أبواقه ومحاسيبه يقولون للناس هذا شاعر عصري عظيم فنسأل عن أثره فيهدى إليك فتقرأه فلا ترى فيه شيئاً يدل على نصيب ضئيل من العظمة ؟ اللهم إلا خطل كخطل القائد الخطير بين البلاد البعيدة المتناثرة » .

وختم كلامه قائلا : « ان شعر أبي شادي كنبات لا فائدة ولا رائحة فيه بل فيه أذى للنفوس وللعيون على السواء ، وهو كنبات الصبر » .

وقد خرج الأستاذ كامل الشناوي أيضاً على صفحات الوادي بمقال عنيف وجهه إلى جماعة أبولو واتهمها بالعبث جاء فيه :

« وعلى هذا النحو من العبث تسير جماعة أبولو وبهذا الأسلوب الشاذ تجذب إليها بعضاً من الشباب كان من الخير لهم ولمواهبهم أن ينأوا بأنفسهم عن هذا الجو . فمن يدري لعلهم أن ينتجوا إذ ذاك شيئاً يشبع رغبتهم في تشجيع

(١) المرجع السابق ص ١٧٣

(٢) تراجع المقالات وعددها سبعة بصحيفة الوادي اعتباراً من تاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٤

المثقفين وتقديرهم . أما هذااللغو الذي يغرقون فيه إلى الأذقان متوهمين أنه أدب أو شيء يشبه الادب فلن يكون له نصيبمن تقدير أو تشجيع عند المثقفين ولا عند غير المثقفينوها هي مطبوعات أبولو قد تفشت في المكاتب العامةفحدثني كم قارئاًأقبل عليها[1] ».

كذلك حفلت مجلة الأسبوع بمقالات كتبها أحد تلاميذ العقاد الآخرين ،ورغم أن الجماعة حاولت أن تنوه بشعره كنوع من طلب رضاه وسكوته إلا أنه كان من أقسى الذين حملوا على تلك الجماعة منأجل أستاذه العقاد فقد أطلقعليهم ذلك التلميذ الأديب « مواكب العجزة » جاء فيها :

« ... تبحث فيها عنالشخصية الأدبية أو الاجتماعية الناضجة فلا تجدها ولا يغضب الأستاذ خليل مطران فنحن نستغرب كيف رضي باتصاله بها وإنما نجد أفراداً ينقصهم النضوج جميعاً !.. وتبحث عنالشخصية القوية في مميزاتها الخلقية أو الأدبية أو التي تدعو للالتفاف حولها والإعجاب بها فلا تجدها كذلك ... وتبحث عن الجامع الروحي بين هؤلاء الأفراد الذينيدعوهم ليكونوا جماعة حول محور خاص من الفكرة فلا تجد هذا أيضاً .

وأينما ذهبت تبحث عن سبب يجمع هذه الاشتات وتلك الاخلاط فإنك لن تعثر عليه ولن تجد علة طبيعية لاجتماعهم ».

ثم هاجم أبا شادي فقال :

« يتقاطر عليهشباب عجزةمغمورون وتلاميذ راسبون وهاربون من المدرسة وفتيات وأشياء أُخرى تعجز عن الظهور بالوسائل الطبيعية[2]

قلنا قبل صفحات إن جماعة أبولو كانت لا تكف عن الاشادة بمواهب خليل مطران وعبد الرحمن شكري واعتبر العقاد وتلاميذه أن هذا الصنيع تحدٍ لهم ومحاولة للانقاص من مواهب العقاد بطريقة ملتوية . وقد كنت إلى وقت قريب أظن أن العقاد وتلاميذه مخطئون حتى السنوات الأخيرة من حياة العقاد عندما

(١) صحيفة الوادي السنة الخامسة ١٧/١٠/١٩٣٤ الصفحة الثامنة .

(٢) مجلة الاسبوع ٢٦/٩/١٩٣٤

نشب الخلاف بينه وبين الشيخ أمين الخولي(١) حول منهج كتابة السيرة والتاريخ فترك الشيخ أمين المناقشة وعمد إلى سلوك كسلوك جماعة أبولو المذكور وإن اختلف في المسلك بعض الاختلاف الذي توحيه ظروف الجماعة وظروف الشيخ ، فقد عمد الشيخ كعقاب للعقاد إلى نشر فصول من كتاب « على السفود » للرافعي في مجلة .. « الأمناء » التي يصدرها ويملك تحريرها وذلك لمهاجمة العقاد.

أما تلميذ العقاد الأديب صاحب مقال « مواكب العجزة » فعندما رأى الجماعة قد لجأت إلى الاشادة بمواهب خليل مطران وشكري عاود الكتابة في صحيفة الوادي التي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين كتب مقالاً عنيفاً جعل عنوانه « ضجة مفتعلة » جاء في بعض فقراته ما يلي :

« لست أدري ما يغري مثل الدكتور أبي شادي برجل كالعقاد وما يدعوه أن يتخذ من الوسائل ظاهرها وخفيها للقدح في العقاد . فمثل هذا الصراع قد يقع بين الانداد أو الأشباه المتقاربين أو حتى الذين تجمعهم نقطة ارتكاز واحدة فيقال منافسة زادت حدتها فوصلت إلى مستوى الخصومة والعراك .

ولكن الأمر هنا على غير ذلك كله ، فالفروق بين أبي شادي والعقاد كبيرة ، فالعقاد رجل متميز الرجولة صلب شديد الصلابة عنيف غاية العنف . وأبو شادي يستعيض عن هذا كله بالضحكة اللينة يضحكها وبالرفق والهوادة يظهر بهما .

والعقاد رجل له آراؤه وفلسفته الخاصة في مسائل الحياة الكبرى . يصورها نثراً أو شعراً بينما أبو شادي يقنع أن يخرج في العام أربعة دواوين فيها أشعة وظلال وأطياف وأنوار وصور عارية ونزعات أباحية يوحي بها الجسم وشهواته الصارمة . وهو بهذا محظوظ ممتع موفور النعيم » .

---

(٢) تراجع الخصومة في الجزء الاخير من هذا الكتاب

ثم يشير التلميذ الأديب بعد ذلك إلى مسألة الدعوة لمطران وشكري على أنها ضجة مفتعلة بقصد النيل من أستاذه العقاد فيقول :

« على هذا ابتدأت النغمة : شكري ومطران . شكري . آي شكري شكري ومطران والعقاد أيتها الجوقة ؟ العقاد تلميذ شكري . وشكري زميل لأبي شادي في التلمذه على مطران فأبو شادي أستاذ العقاد بالعمومة ولا داعي للموازنة لأنه ليس زميلا للعقاد. كانت هذه النغمة على حين غفلة من الجمهور ومن خصائص الجمهور المصري عندنا أنه يشك في النغمات المفاجئة ولا يؤمن بالضجات المفتعلة. فلم يصغ مع الأسف لهذه النغمة المرتجلة وسمعها خليل مطران — وأحسبه سخر بها في نفسه ، فالرجل — على ما علمت — رجل حي وديع النفس زكي الفؤاد وهو عالم بخبث هذه الدعاية وصبيانيتها . وهو بطبيعته ميال إلى تجنب الصراع وإذا كان لي ما آخذه عليه أن يسمح لنفسه أن يكون رئيساً لهذه الجماعة .

أما شكري فما أعلم بماذا استقبلها فقد ألقوا في روعه أن نقله من الفيوم إلى حلوان إنما كان نتيجة لمحاربة العقاد والارتياح إلى هذه المحاربة .

أما أبو شادي فقد اقتنع هو الآخر بالخدعة التي اخترعها وفهم أن نقل شكري كان بسبب هذه الحملة . فما أحراها إذن أن تمهد له الطريق في مطامع يرجوها[1] » .

وقد رد أبو شادي على هذه المقالة في عنف وقسوة ولم يشر إلى كاتبها وإنما نسبها إلى العقاد فراح يهاجمه على أنه كاتب ذلك المقال .

لم تقف معارك جماعة أبولو وأنصار العقاد عند هذا الحد بل امتدت حتى سنة ١٩٣٥ حينما خرج أحد تلاميذ العقاد وهو الأستاذ حبيب الزحلاوي بكتابه « أدباء معاصرون » أهداه إلى أستاذه العقاد بصفته إمام المتمردين وسيد شعراء

---

(١) الوادي بتاريخ ١٩٣٤/٩/٢١ صفحة « ٣ »

العربية وعبقري هذا العصر . وقد وضح المؤلف غرضه من تأليف كتابه هذا بأنه اقامة للبناء وتشييد للصرح على الأسس الوطيدة التي وضعها العقاد في « الديوان » ونعيمة في « الغربال » .

وقد تضمن كتاب الزحلاوي نقداً لشعراء وكتاب أبولو وتتناول المقدمات التي تصدرت كتبهم ودواوينهم ومنهم إبراهيم ناجي وأبو شادي وإبراهيم المصري وحسن محمود وطاهر لاشين ومختار الوكيل وصالح جودت ومحمود أبو الوفا ، وحسن كامل الصيرفي وغيرهم وهم من شعراء وكتاب أبولو كما هو معروف .

بدأ الزحلاوي بالدكتور إبراهيم ناجي وتناول ما قاله عن صديقه أبي شادي من أنه شعلة حقاً ونور ونار بل قبس حي وشعاع طواف متميز بالقلق ، منفرد بالهداية ضارب في مجاهل الليل مترام فوق عباب جياش مترام . وعقب قائلا انه لم يفهم ماذا يعني ناجي بذلك القول عن صاحبه وضرب مثلا بقوله ما قيمة هذا الكلام اللفظي إذا ترجم الى لغة أجنبية ، بل ما معناه في لغتنا العربية ؟

ويبلغ الزحلاوي قمته في القسوة والسخرية حينما وجه كلامه لناجي فقال :

« وهل إذا أراد ناجي أن ينهض حجة على « الصراحة التي تمزق كل المظاهر الخادعة التي تبرقع أوجه التقاليد « أتراه يدلنا على عشرات الصور لنسوة عاريات منشورة في دواوين هذا الشاعر المبتكر ، خصوصاً صورة « ينبوع المرأة » ، أو تراه يتحفنا بوصف فتاة نزلت مع أترابها يغتسلن في البحر فيخاطب هذا الشاعر موضعاً معلوماً في جسمها يسميه « النبع » فيقول :

يا بنت افروديت لا تتهيبي	وخذي الحياة مجال كل حبور
وتخطري ظلاً لنا وأشعة	ما كنّ غير عواطف وشعور
نهداك أم ساقاك مانطقا سوى	بالشعر في لغة من التصوير
من ذا يحجب «نبعك» الحر الذي	وهبته افردويت للتقدير
وهبته كي يحيا ويعبد بيننا	جسماً وروحاً في مثال الحور

أيذوقك البحر الطروب مقبّلا ومعانقاً في وصله المبرور
ونظل نحن العابديك على أسى ما بين حرمان ويأس صخور؟؟[1]

ثم نرى الزحلاوي يتناول « مختار الوكيل » وكتابه « رواد الشعر الحديث » فيقول :

« وددت أن لا أطيل الكلام مع مختار الوكيل الشاب الظريف الذي طبع كتيباً دعاه « رواد الشعر الحديث » وأن لا أحاسبه على كل ما جاء في كتيبه المتواضع ، لأني سمعت أحاديث تنصله من بعض ما قاله في أبي شادي ، واعترافه بأن أكثر ما هو مذكور عن هذا الشاعر مدسوس على الكتاب دساً وأن الذي تجرأ على فعل ذلك هو الذي دفع ثمن ورق الكتيب وتكاليف طباعته وأن مختار الوكيل سكت طائعاً مختاراً[2] » .

كذلك نرى الزحلاوي يتناول إمام الجماعة أحمد زكي أبو شادي من خلال مقدمته التي كتبها لديوان صالح جودت فيقول :

« أحمد زكي أبو شادي شخص يختلف عن كل الناس في كل شيء ، فيما كان وفيما هو كائن ، فيما سيكون وما سوف يكون ، شخص لا مثيل له البتة ، يعمل ويكتب ويقول ولا يزن ، يخاصم ويعادي ويواد ويصاحب ولا يزن ، لا يزن شيئاً ألبتة ، لأن طبيعته لا تعرف الميزان ، لذلك يغلو دائماً حتى الاسفاف ، ويغرق دائماً حتى يخيل إليك أنه محرور ، وهل ثمت من دليل على ذلك أوضح من المقدمة التي كتبها لديوان صالح جودت ؟

لقد بزت مقدمة ديوان جودت التلميذ كل المقدمات ، وفاقت بما جاء فيها ، مبالغات « المرسيليين » ومفارقات « الاسكتلنديين » التي يتنادر الناس بها ،

---

(١) أدباء معاصرون لحبيب الزحلاوي ص ٢٠ ، ٢١

(٢) المرجع السابق ص ٣٨ .

وضربت القياس الذي لن يبلغه مبالغ[1] » .

وهكذا عاشت الحياة الأدبية في معارك وخصومات من حين لحين بين جماعة أبولو وأنصار العقاد ما أن تهدأ حتى يثيرها ثانية قلم من الأقلام ، وتوقفت مجلة أبولو عن الصدور عقب العدد الذي صدر في ديسمير ١٩٣٤ .

إلى أن جاء عام ١٩٦١ فنرى الأستاذ صالح جودت يكتب مقالا عن جماعة أبولو ينفي فيه ما ألحقه بعضهم بجماعة أبولو وصحفها بصفته أحد الذين كانوا يكتبون في تلك المجلات التي تصدرها الجماعة . فما كان من العقاد إلا أن خرج عليه في صفحات الأخبار بمقال جعل عنوانه « وقائع .. عن جماعة أبولو » جاء فيه :

« شاء زميلنا الأستاذ « صالح جودت » أن يعتبر نفسه مسئولا عن جماعة « أبولو » ظاهرها وخافيها ، لأنه كان يكتب في احدى مجلتيها ، فيجب علينا إذن أن نصدق كل ما قالته تلك الجماعة وأن ندعو الناس إلى تصديقه وحسبانه من « تاريخ الأدب » الذي يقرؤه الناس كأنه حركة فكرية أو حركة تاريخية ، وألا يعرفوا عنه حقيقة غير تلك الدعاوي التي يعلنها أصحابها ويتقبلها الناس من بعدهم فلا يرتابون في صدقها ولا في اتهامنا نحن بما ادعته علينا باسم النقد والأدب ، وكله لجاجة لا شأن لها بالنقد والأدب ، إذا اطلع الناس على دخائلها الخفية .

وللاستاذ صالح جودت أن يعلن أنه كان على علم بأعمال الجماعة الظاهرة ولم يكن على علم بنياتها أو نيات القائمين على إدارتها ، وقد يحدث هذا في أمر كتاب الصحف جميعاً فلا يلزم من كتابتهم فيها أنهم مطلعون على أسرارها وأسرار تأسيسها وتوجيهها ، فليس كل من كتب في المقطم » مثلا مسئولا عن نشأة المقطم لترويج سياسة الاحتلال ، وليس كل من كتب في صحيفة « الاتحاد » مسئولا عن علاقة الصحيفة بسياسة الخاصة الملكية في عهد أحمد فؤاد .

---

(١) أدباء معاصرون للزحلاوي ص ٥١ وما بعدها .

ان الأستاذ صالح جودت يستطيع أن يعلن ما يشاء من هذا القبيل ، ولكن لا يستطيع أن ينقض الوقائع الثابته بمجرد النفي والانكار ، ولا يستطيع أن يفرض علينا السكوت في أمر سمعتنا وأمر التاريخ الأدبي إكراماً لمقالات كان يشترك في كتابتها لهذه الصحيفة أو تلك يوماً من الأيام .

ومن تلك الوقائع التي لا شك فيها أن القائمين على جماعة « أبولو » أعلنوا أنهم يحاربون أدب الشيوخ باسم أدب الشباب ، وكنا يومئذ في نحو الأربعين ولكن المجلتين التابعتين للجماعة لم تحملا على أحد غيرنا ممن هم أندادنا سناً وأدباً، أو من الذين سبقونا بالزمن والكتابة .

ومن الوقائع المحققة أن المطبعة التي كانت تصدر منشورات الجماعة أغلقت بعد خروج زكي الابراشي من ديوان الخاصة الملكية ، وأن رئيس الجماعة الذي بالغ لنا الأستاذ صالح جودت في وصف فقره قد أنفق على أعداد تلك المطبعة ونشر مطبوعاتها التي كانت تكلفه مئات الجنيهات، وليس لها عوض ظاهر يقوم بأعباء تلك التكاليف .

ومن الوقائع الثابتة أننا لم نكتب حرفاً عن أحد من المنتسبين إلى تلك الجماعة إلا ما جاء بعد إنشائها عرضاً واتفاقاً في سياق الرد عليها وعلى غيرها .

هذه الوقائع الثابتة ليست مما ينقض بكلمة تقال .

ولهذا اكتفينا بها ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من تعيينات بعض المعنيين في ديوان الأوقاف على عهد السيطرة الفؤادية عليه ، ولم نتعرض لما يجوز الخلاف عليه من إنفاق الخاصة الملكية على تعليم أبناء بعض الشعراء ومن اغراء أولئك الشعراء بلقب الشاعر المتوج ، أو شاعر الملك وما شابه ذلك من الألقاب .

فنحن لا نتعرض لامثال هذه الأخبار المحققة لجواز الخلاف عليها ، ولا

نتعرض كذلك للمناورات الصبيانيـة التي يعمد إليها بعضهم كلما أدركته حفيظة من أعمال كاتب هذه السطور ، ومنها ما هو قريب العهد لم يتجاوز الشهور .

ولكننا إذا اكتفينا بالوقائع ولم نتعرض لما بين سطورها فنحن في حدود الحق البين – حقنا وحق التاريخ – كلما قلنا عن إشاعة تمسنا انها تقصدنا لغرض معلوم ، وأننا نحاربها في خدمة ذلك الغرض إذا سكتنا عليه وتركناه يعاد ويتكرر ويروى فيما يسمونه بكتب الأدب وكتب التاريخ الأدبي ، ونحن صامتون نؤكد التسليم والتصديق بالسكوت والتأمين » .

وختم العقاد مقاله هذا بقوله :

« وحسبنا كرماً أننا نسكت إلى اليوم عن بعض تلك الصبيانيات التي ينساق إليها من هم أهل لها فـلا نكشف النقاب عن بواطنهـا وهي عـلى مدى الاشارة بالخنصر فضلا عـن سائر أصابـع اليدين .

حسبنا هذا من الكرم لأننا بحمد الله لا نطمع فيما هو أكرم منـه ولا نتطلع إلى منازل الأولياء ، ودع عنك منازل الأنبياء :

وبعيد بلوغ هاتيك جداً تلك عليا مراتب الأنبياء[١]

ولا يفوتنا قبل ختام هذا الفصل أن نذكر أن العقاد في أخريات أيامه قـد قدم كتاب « ناجي حياته وشعره » الذي كتبه صالح جودت ضمن مطبوعات لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والتي كان يرأسها العقاد حتى وفاته عام ١٩٦٤ . وفي تلك المقدمة يردد نفس الآراء باسلوب أخف يقول العقاد : إن « إبراهيم ناجي » من مدرسة الشعراء الظرفاء . ابن الاحنف وابن سهل ،

---

(١) الاخبار ١٩٦١/٨/١٦ مقال العقاد .

والبهاء زهير ، واخوانهم من شعراء « يتيمة الدهر » و « نفح الطيب » . نعرفهم بسيماهم في كل عصر وفي كل بلد ، ويجمعهم لنا عنوان الظرف حيث كانوا بين مدارس عصورهم ، فلا نخال أننا نتلقى ديوانا غير ديوان ناجي في هذا العصر إذا دعوناه بديوان الشاعر الظريف[1] .. »

* * *

(١) مقدمة ناجي حياته وشعره لصالح جودت منشورات لجنة الشعر ص ١٢

الدكتور محمّد كامِل حسين

لا يزال المعنيون بالمعارك النقدية يذكرون معركة العقاد مع طبيب العظام الدكتور كامل حسين مؤلف كتاب « وحدة المعرفة » و « قرية ظالمة » تلك التي نشبت بينهما على صفحات الأخبار في السنوات الأخيرة من حياة العقاد .

وقد ذهب الناس من خلال تلك الخصومة دروباً شتى . منهم من رأى أن العقاد لم ينس قسوته المعروفة عنه وهو يناقش العالم الزميل بمجمع الخالدين ، ومنهم من قال ان العقاد رغم قسوته في الردود على كامل حسين إلا أنه كان رفيقاً به . وسواء كان هذا الفريق على حق فيما ذهب إليه أو ذاك الفريق فإننا سنبسط القول في هذه الخصومة لا سيما أنني من الذين عاشوها منذ بدايتها وعاصروها ساعة بساعة حتى انتهت إلى ما انتهت إليه .

وقصة هذه الخصومة — كما رأيتها وعشتها — أن سائلا كتب للعقاد رسالة بريدية قال له فيها : « اطلعت على كتاب « وحدة المعرفة » للدكتور محمد كامل حسين واطلعت من قبل على نظريات أبي الفلسفة المثالية التجريبية الفيلسوف ألكسندر صمويل ، فوجدت أن هناك تشابهاً واضحاً بين ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين وبين ما نادى به صمويل من قبل في كتبه التي تضمنت آراءه ومباحثه في

الميدان الفلسفي .. ولما التبس علي الأمر حضرت إلى أستاذنا العقاد طالباً من سيادته التفضل بتناول هذه القضيـــة في يوميات الأخبار : وهي هل هناك إقتباس أم أنه توارد خواطر ؟.. وقد أعياني التفكير فجئت إلى رجل التفكير طالباً البيان » .

وأذكر أنني يومذاك بعد أن قرأت هذه الرسالة على العقاد ضمن بريده اليومي عام ١٩٦٢ قال لي: إن صاحب السؤال من القراء الجادين وان التشابه بين الأفكار في كتاب الدكتور كامل حسين وبين قواعد مذهب الكسندر ملحوظـة جداً . ويبدو أن صاحب السؤال من التلاميذ الأشقياء الذين يريدون أن يوقفوا الدكتور كامل حسين مواقف محرجة عن طريقنا ، ونحن لا نملك تجاهل السؤال لأننـا مطالبين أمام الحقائق العلمية بالرأي القاطع في القضية هذا من ناحية ، أما الأخرى فإن الدكتور كامل حسين زميل لنا بالمجمع وصديق . وفي هذا موقف محرج لنا ان نحن اتهمناه علناً بسرقة أفكار الرجل الآخر . وأخيراً رأى العقاد أن يحيل السائل على مؤلف كتاب « وحدة المعرفة » فيما يتعلق بمسألة توارد الخواطر بعد أن شرح في مقدمة رده آراء صمويل الكسندر التي نشرها في عـــام ١٩٣٤ في مجلدين باسم « المكان والزمان والربوبية» space time and Deity ولم يفت العقاد أن يذكر لسائله أنه – أي العقاد – قد لخص مذهب هذا الفيلسوف عـن الربوبية ودرجات صفات المادة في كتابه عن « الله » وكتابه «عقائد المفكرين في القرن العشرين » .

هذا كل ما قـــاله العقاد في رده يومذاك على صفحات جريدة الأخبار ضمن يومياته المنشورة بتاريخ ١/١٤ /١٩٦٢ .

وقد كان من المنتظر أن يقف الدكتور كامل حسين أحد موقفين لا سيما أن العقاد قد ترك له فرصة الاختيار وهما : اما أن يرد على صاحب السؤال بالنفي أو الايجاب وإما ان يتجاهل السؤال ورد العقاد عليـــه فيفوت على السائل فرصة الهدف الذي رمى إليه من إرساله السؤال للعقاد. ولكن الدكتور كامل حسين

لم يقف هذا الموقف أو ذاك وإنما فاجأ قراء الأخبار بتعقيب نشره على صفحاتها جاء فيه : « لا أظن الاستاذ العقاد جاداً في دعواه أن كتابي وحدة المعرفة منقول عن كتاب آخر . فهو لم يقم على هذه الدعوى دليلاً أو شبه دليل . بل ترك الأمر لي مع علمه أن البينة على من ادعى . وأصالة كتابي مسألة لا يتطرق إليها الشك . ولم يحدث في حياتي الفكرية كلها أن نقلت كلمة صغيرة أو كبيرة لأحد من الناس دون أن أنسبها إلى قائلها . ثم اني لا أعرف هذا الصمويل الكسندر الذي يصفه الأستاذ العقاد أنه أبو فلسفة بعينها في انجلترا . والذي زاده مجداً على مجده وزاد كتابه عظمة فوق عظمته ، ان الأستاذ العقاد لخص له كتابه والمعنيون بالعلوم في شغل عن أن يتلقوا معلوماتهم عن ملخصات ولو كان الملخص الأستاذ العقاد ولو أن الأمر يتعلق بي وحدي ما عنيت بالرد لأن الاتهام لا يقوم على وقائع محدودة . ولأن أمانتي العلمية ليست موضع شك . ولكني رأيت ان للمسألة وجوهاً تتعلق بالحياة الفكرية عندنا . وأنه يحسن ان توضع الأمور في نصابها .

والأستاذ العقاد رفعني في ميدان الفكر فوق نفسه من حيث لا يدري حين جعلني ند الرجل يفخر هو بتلخيص كتابه وهو الذي سوى بين كتابي وكتاب فيلسوف يراه هو من أعظم الفلاسفة . وبذلك يصبح كتابي من أعظم الكتب وأصبح أنا من أعظم الفلاسفة . ويكون كتابي بذلك جديراً بتلخيص الأستاذ له وأكون أنا جديراً أن يشيد الأستاذ العقاد بفلسفتي كما فعل بفلسفة صمويل إذا ثبتت أصالة كتابي .

وهي ثابتة من غير شك . وأصالة كتابي يدركها من له حس صادق في البحوث العلمية والمذاهب الفكرية التي تقوم عليها ، فهو بناء يقوم كل جزء منه على ما سبقه في تسلسل منطقي علمي ليس في منطقه ثغرة . وقد يتبين أن المذهب الفكري الذي يقوم عليه الكتاب خطأ كله . ولكنه لا يمكن الطعن

فيه بأنه منقول . وأسلوب الكتاب وترتيبه لا يدعان مجالاً للشك في أنه أصيل » .

ثم استمر الدكتور كامل حسين قائلاً :

« والأستاذ العقاد صادق الحس في الشعر والأدب. ولكنه ليس صادق الحس في البحوث العلمية وما يقوم عليها . لأن صدق الحس في العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة . وقد خانه الحس حين ذكر ان التشابه تام بين كتابي وكتاب من يلحد إليه . لأن الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها . وسأسوق إلى الأستاذ بعض أمثال قد يتدبرها ليتبين له أن ما يدعيه من تشابه قد يكون أصله عدم تبصره بحقيقة مذاهب التفكير العلمية » .

ثم راح الدكتور كامل حسين يسخر من العقاد عندما قال في مقالته هذه :

« ما رأي الأستاذ في رجل يقول ان التشابه تام بين قصيدة شوقي « قفي يا أخت يوشع خبرينا » ، ومعلقة عمرو بن كلثوم « ألا هبي بصحنك فاصبحينا » وأن شوقي سرق قصيدته من المعلقة لان القصيدتين متفقتين في الوزن والقافية لا يرى الأستاذ العقاد أن ذلك دليل على أن محدثه لا يقرّ له بالشعر. وإذا جاراه رجل يقول له ان روفائيل سرق صورة من لينونارد لان الصورتين تصوران العذراء وطفلها . ألا يكون رد الأستاذ عليه اذهب وتعلم نقد التصوير. والرجل الذي لا حس له في الموسيقى يرى « التشابه تاماً » بين جميع الاوبرات وماذا يرى الأستاذ في جهل رجل يظن ان التشابه تام بين مسجد السلطان حسن و قايتباي لأن في كل منهما قبابا ومئذنة ومنبراً ومحرابا وأن الناس يصلون في كل منهما وليس من المبالغة أن نقول ان تقرير الأستاذ العقاد عن التشابه التام بين كتابي والكتاب الذي لخصه ليس بعيداً عن الأمثلة التي ذكرتها وكلها ترجع إلى نقص الحس في الامور التي يتناولها الناقد .

وأنا اذكر للاستاذ العقاد أن له حساً مرهفاً في الأدب يدله على الاصيل

والمنقول ويهديه في أمر المذاهب المختلفة في الشعر والادب . ولكن حسه في مذاهب التفكير العلمي ليس مرهفاً ولا صادقاً لانه لا مرانة له فيه ولعله قرر التشابه التام بين كتابي و كتاب صمويل لأن في كليهما حديثاً عن الزمان والمكان والربوبية (وهو عنوان كتابه) وقوله ان هذا يدل على أن أحدهما مسروق من الاخر خطأ واضح يصح أن يخجل من تقريره من يعرف هذه الامور معرفة خبرة أصيلة » .

وختم الدكتور كامل حسين كلامه قائلاً :

« ولم أعثر على معلومات عن هذا العلم من أعلام الفلسفة الانجليزية ودائرة المعارف البريطانية لا تعرفه ولا أدري هل هو فيلسوف لجأ إلى العلوم ليثبت نظرياته أم هو أصلا عالم طبيعي امتد به التفكير العلمي إلى أن شمل المباحث الفلسفية . وهما مذهبان مختلفان جداً مهما يكن التشابه في الموضوعات واللغة . وكتاب وحدة المعرفة من النوع الثاني مثله في ذلك مثل كتب جوليان هكسلي وهنري بوانكاريه. فهو أصلا كتاب علم أراد مؤلفه أن يكتب أن المذهب العلمي يمكن ان يهدينا إلى الحق إذا امتد إلى ميدان الفلسفة والدين . وإذا كان صمويل هذا من الفلاسفة فمذهبه أبعد ما يكون عن مذهبي بل ان كتاب وحدة المعرفة ينعي على الفلسفة أشياء كثيرة والفرق بين المذهبين دقيق إلا على الحس العلمي المرهف » .

ثم قال – أيضاً – :

« والاستاذ العقاد ذو ثقافة واسعة ولكن تقديره لثقافته العلمية مبالغ فيه جداً . والعصر الحاضر يرى أنه يبلغ الناس أوج الثقافة عن طريق التخصص ولم يعد أحد يرى أن يبلغ التخصص عن طريق الثقافة وهو أسلوب الاستاذ في حياته الفكرية لان المحاولة مستحيلة في عصر بلغ التخصص فيه غايته .. وان من طبائع الاشياء أن يكون العلم بالاطلاع أمراً يزهو به المطلع لكثرة ما حصل وقرأ ، على حين أن العلم بالخبرة وهو وحده العلم المنتج يجعل صاحبه

مهموماً لكثرة ما يجهل ، الأول يـدعو إلى الغرور والثاني يدعو إلى التواضع .

واني أرجو الاستاذ العقاد رجاء حاراً أن يقرأ كتاب وحدة المعرفة قراءة درس واستيعاب .

وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابي أيضاً .

وهو قد شرح فلسفـة صمويل في كتابه عن الله . ولعله يشرح فلسفتي في كتابه الذي سيظهر قريباً والذي سيكون عنوانـه من غـير شك التواضع[1] » .

بهذه القسوة كان رد الدكتور كامل حسين على العقاد .. وبدون شك فالدكتور في بعض فقرات من رده حاول ان ينتقص علم العقاد ومعرفته ويجرح ثقافته وبدون شك أيضاً – أن العقاد في مثل هذه الامور لا تأخذه بمن يقول له مثل هذا القول شفقة أو رحمة لذلك نراه يخرج على الناس بمقـال جعل عنوانـه « مثل في التواضع والخبرة بالدراسة » قال فيه :

« سئلنا رأينا في التشابه بين مذهب ألكسندر وكتاب وحدة المعرفة للدكتور محمد كامل حسين فقلنا ان التشابه تام بين الافكار التي وردت في كتاب وحدة المعرفة وبين تفصيلات مذهب الكسندر التي بسطها – على الأخص – في كتابه عن المكان والزمان والربوبية وأحلنا الرد في أمر الاقتباس وتوارد الخواطر إلى الدكتور محمد كامل حسين مجاملة له وابقاء على كرامته ، إذا شاء أن يبقي عليها .

وبعد أسبوع من ظهور اليوميات نشر الدكتور رده فإذا هو يقابل منا هذه الرعاية بما يدل على حقيقة حظه من البحث والعلم والخبرة بالدراسات الفكرية ، كما يدل على حقيقة حظه من البحث والعلم والخبرة بالدراسات الفكرية ، كما يدل

---

(١) صحيفة الاخبار الصادرة ١٩٦٠/١١/٢١ .

حقيقة حظه من أصول المناقشة والمناظرة .

فمما قاله الاستاذ في رده : « ولا أعرف هذا الصمويل الكسندر الذي يصفه الاستاذ العقاد أنه أبو فلسفة بعينها في انجلترا » .

ومما قاله عن هذا الفيلسوف : « ولم أعثر على معلومات عن هذا العلم من أعلام الفلسفة الانجليزية ودائرة المعارف البريطانية لا تعرفه ولا أدري هل هو فيلسوف لجأ إلى العلوم ليثبت نظرياته؟ أم هو أصلا عالم طبيعي امتد به التفكير العلمي إلى أن شمل المباحث الفلسفية » .

وقال عن فلسفة الكسندر أيضاً : « ولو قرأ الاستاذ العقاد الكتاب كله وعكف على تفهمه ودرسه درساً دقيقاً – وهو كتاب عسير – لرأى فيه أشياء كثيرة لا يمكن أن تكون في كتاب صمويل هذا » .

أما نصيبنا نحن من تحقيق البحاثة وأسلوب مناقشاته فمنه « أن الاستاذ العقاد .. ليس صادق الحس في البحوث العلمية وما يقوم عليها ، لان صدق الحس في العلوم ينشأ من ممارستها ممارسة طويلة وقد خانه الحس حين ذكر أن التشابه تام بين كتابي وكتاب من يلحد إليه ، لان الفرق بين المذاهب العلمية قد يدق على من لا يحسن العلم بها » .

ومنه : « واني أرجو الاستاذ العقاد رجاء حاراً أن يقرأ كتاب وحدة المعرفة قراءة درس واستيعاب وهو قد لخص كتاب صمويل وقد يرى أن يلخص كتابي أيضاً ، وهو قد شرح فلسفة صمويل في كتابه عن الله ولعله يشرح فلسفتي في كتابه عن نفسه وهو الكتاب الذي سيظهر قريباً والذي سيكون عنوانه من غير شك – التواضع .. »

فنحن إذن من الناس الذين لا يحسنون التفرقة بين المذاهب العلمية لاننا لم نمارسها ولم نمارس المباحث الفكرية كما مارسها الدكتور محمد كامل حسين وهو كما يعلم القراء طبيب عظام .

ونحن إذن نحتاج إلى التواضع لنفهم فلسفة الدكتور ، وليس مما يعطينا حق

الدراسة الفلسفية عشرون كتاباً ألفناها منذ عشرين سنة في الفلسفة الإلهية وفي عقائد المفكرين وفي الفلسفة القرآنيـة وفي فلسفة ابن سينا وفلسفة ابن رشد وفلسفة باكون وفلسفة الحكم وغيرها وغيرها من مذاهب الفلسفة في القديم والحديث .

ونحن إذن نفتقر إلى التواضع الذي يتحلى به الدكتور ، وإلى تمحيص الدعاوى العلمية على طريقته التي يجيدها ، ومنها ادعاؤه على كتاب يزعم أنه لم يقرأه أنه يستحيل ان تكون فيه تلك الآراء التي لا يجوز ان تخطر على بال احد سواه .. !

وبغير دليل على الاطلاق يقول الدكتور ما قـــال ، ولكننا بدليل من كلامه وشاهد من قلمه على نفسه — نقول ان الدكتور لا يحسن البحث والدعوى ولا يحتاج إلى شيء كما يحتاج إلى التواضع ،ولا يحق له ان يخوض في مسائل الفلسفة لأنها شيء غريب عن تجبير العظام .

فالدكتور المجبر لم يمارس البحث مراساً طويلاً ولا قصيراً ، وإلا لما فاته ان يعرف صمويل الكسندر الذي عرفناه وشرحنا مذهبه منذ اكثر من ست عشرة سنة ،ولو كان ممن يمارسون البحث لما قال عن صمويل الكسندر « هذا الصمويل» او صمويل هذا ، او انه لم يعرفه ولم يسمع به وليس بين الفلاسفة المعاصرين من هو اشهر منه في عالم الثقافة الاوربية .

ومن طريقته التي نجانا الله منها في حسن البحث أنه يزعم ان دائرة المعارف البريطانية لا تعرف « صمويل هذا » وهي قد عرفته وقالت عنه انه احد الفلاسفة القلائل الذين تمموا للفلسفة فيما وراء الطبيعة مذهباً كاملاً ينسب إليه ...»

وقد أشار العقاد إلى الصفحات التي ورد فيها الكلام عن صمويل بدائرة المعارف البريطانية واشار إلى الجوائز التي حصل عليها في الفلسفة وأنه عين في

عام ١٨٩٣ بعد عودته من اكسفورد استاذاً للفلسفة بجامعة مانشستر وأنه كان واحداً من نخبة اساتذتها النابهين وان الفنان ابشتين وهو من اكبر المثالين في عصر الفيلسوف قد صنع له تمثالا اقاموه على مدخل دار الفنون بجامعة مانشستر .

ثم قال العقاد :

« وقبل ان ننتقل إلى التعقيب إلى ما تقدم نقول ان الافكار التي سمح للدكتور محمد كامل حسين تحقيقه العلمي ان يقول باستحالة ورودها في كتاب الفيلسوف الكبير قد احتواها كلها تلخيص دائرة المعارف البريطانية التي يقول الدكتور انها لا تعرفه، فلم يكن مستحيلاً ان يشرح الكسندر تفاضل القوانين من المادة إلى العقل قبل ان يبتكر الدكتور – على دعواه – هذا الترتيب في دراسة المعرفة والتطور كما قال على صفحته الثالثة :

« .. وهي قوانين المادة ثم تتلو ذلك الحياة .. ثم تأتي بعدها قوانين الانسان وهي اخص وارقى » .

وفي صفحة ١٦١ – اي في اواخر الكتاب يقول الدكتور: « ان لكل شيء رباً وان رب اي شيء هو القوة او قوانين القانون الذي يعلوه.. وقد يكون في هذا المذهب مفتاح نظرية الربوبية وموضعها العلمي من النظام الكوني » .

فمن صفحة (٣) إلى صفحة (١٦١) في كتاب وحدة المعرفة يحكي الدكتور مذهب الفيلسوف ولو اكتفينا منه بهذه الخلاصة في دائرة المعارف البريطانية التي تعرفه، ولكن العجب العجاب، انما يدرك القارىء من المراجعة بالكلمة والعبارة لما قد شرحه ذلك « الصموئيل » على حد قول الاستاذ المتواضع محمد كامل حسين !

وبالدليل القاطع يثبت إلى الآن نقيض كل ما ادعاه الاستاذ لنفسه وادعاه علينا .

فليس هو طويل الدراسة للمباحث الفكرية لان من كان طويل الدراسة لها لن يبلغ من جهله بفلسفة القرن العشرين القريبة ان يخفى عليه مذهب المثالية التجريبية وهو بهذه المكانة من عالم الفلسفة .

وليس الدكتور بالرجل الذي يعلمنا أدب التواضع لان المتواضع يذكر الحياء الواجب حين تحدثه نفسه باحتقار هذا « الصمويل » بغير ذنب جناه غير فلسفته التي يتعالى بها السيد الهمام .

وليس الدكتور محققاً في بحثه وتمحيصه لأن الباحث المحقق لا يدعي على دائرة معارف تملأ الارض أنها خالية من ذكر الفيلسوف ، وهي تنوه بشأنه هذا التنويه .

ولا نريد بعد هذا كله أن نتعلم على يد الدكتور درساً في التواضع ، لاننا قد نحس بعد مقالاته ودعاويه أننا بحاجة شديدة إلى درس آخر يعوزنا إلى الآن .

ذلك الدرس هو الكبرياء التي كان ينبغي أن نتعلمها ليعلم الدكتور كيف يتواضع أمام من هم أخبر منه بما يدرسون ، ولعله يراجع برنامج الدروس اللازمة لنا وله بعد استيفاء هذا البحث في اليوميات التي «لا يستحيل» أن تبصره يومئذ بمواضع التبصير[1] » .

عقب تلك المقالة اتسعت شقة المناقشة بين العقاد والدكتور كامل حسين فدخل الدكتور زكي نجيب محمود تلميذ العقاد واستاذ الفلسفة بالجامعة .. ويومها دخل الدكتور زكي المعركة كأحد المتخصصين وقال موجهاً كلامه للدكتور كامل حسين ان كتابه وحدة المعرفة ليس علماً خالصاً ، ولا هو أدب خالص، وإنما هو كتاب

---

(١) الاخبار : ١٩٦٢/١١/٢٢ يوميات العقاد

في « فلسفة العلم » وانه – أي الدكتور زكي نجيب قد نال درجاته العلمية في فلسفة العلم هذه بالذات وهو يأكل خبزه منها كما يأكل الدكتور كامل حسين خبزه من طب العظام . وما دام الوضع كذلك فالدكتور زكي يرى لنفسه الحق كل الحق في ابداء الرأي في مسألة تتعلق بفلسفة العلم مثل ما للدكتور كامل حسين الحق في ابداء الرأي في المسائل المتعلقة بطب العظام .

بدأ الدكتور زكي نجيب مقالهيومذاك بقوله :

« منذ نحو ثلاثة أعوام، دعيت للاشتراك في ندوة إذاعية عن كتاب « وحدة المعرفة » الذي كان الدكتور محمد كامل حسين قد أخرجه منذ حين قصير ، فما كدت أقرأ الكتاب استعداداً للندوة حتى أخذتني الدهشة من كل أرجائي ، إذ رأيته صدى لكتاب معروف لدارس الفلسفة الانجليزية المعاصرة ، هو كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر – وهو من مجلدين كبيرين – وقد وجدت « الصدى » واضح المحاكاة حيناً ومبهما حيناً آخر ، على أنني رأيت كذلك أنه في حالات الابهام كان المؤلف يحاول أن يطمس معالم الأصل طمساً لم يكن دائماً في صالحالفكرة الرئيسية ووضوحها – أقولأن الدهشة قد ملأتني عندئذ لأنني لم أجد اشارة في الكتاب تدل علىالصلة التى ربطته بالكتاب الاصلي وتبين اين يكون تلخيص الأصل تلخيصاً صريحاً ، وأين تمتزج به محاولات التغيير .

وأذكر أنني بدأت كلمتي في الندوة الإذاعية المذكورة بقولي : ان الدكتور كامل حسين مشكور بغير شك على تقديمهذه المادة لقراء العربية ،ولكنني كنت أتوقع أن يشير إلى كتاب « المكان والزمان والربوبية » لصمويل الكسندر لعل قارئاً مستقصياًيحب انيتوسع في الموضوع بعد أن قرأ خلاصة له ، وأرجح جداً أن يكون الدكتور كامل حسين قد سمع تلك الإذاعة عندئذ – وعندي شاهد على ذلك – لكنه سكت عن الموضوع حينئذ ولعل مرجع سكوته إذ ذاك هو

أن صاحب القول لم يكن في رأيه بذي خطر فلماذا يثير غباراً يجوز أن تمضي الأمور ولا يثور » .

ثم لخص الدكتور زكي ما دار بين العقاد والدكتور كامل حسين ثم أورد تشبيهات الدكتور كامل حسين التي أوردها في رده على تعقيب العقاد لسائله عن الكتابين « مسألة تشابه قصيدتين في الوزن والقافيـة » . و « مسألة صورة العذراء عندما يرسمها رسامان » « مسجد السلطان حسن ومسجد قايتباي » وأن لكل منهما مئذنة وقباب » ثم قال :

« هكذا تساءل الدكتور كامل حسين وأنا أقول : نعم لو كان الأمر في هذه الحالات كلها هو أمر تشابه في التفصيلات كلها تقريباً ، لكان الأحدث ناقلاً عن الأقدم ، وقد كانت هذه التشبيهات تنهض حجة له لو كانت العلاقة بين كتابه وكتاب صمويل الكسندر مجرد التقاء في موضوع واحد مثلاً ، ثم افتراق بعد ذلك في طريقة الأداء ، واني لأقسم بالله أني حين وجدت الدكتور كامل ينكر كل صلة بالكتاب الأصلي ، ضربت كفاً بكف من العجب بل من الذهول ! أيكون هذا التشابه كله مصادفة عابرة والعينان هما العينان والأنف هو الأنف والشفتان هما الشفتان ؟ وان القوام واحد والخلقة واحدة . فسبحانك ربي انك لقادر على أن تخلق من الشبه الواحد أربعين مخلوقاً ، رأينا منهما اثنين ، وبقي علينا ان ننتظر ثمانية وثلاثين كتاباً أخرى ، لا يحاكي بعضها بعضاً ، ومع ذلك ترسم الصورة نفسها التي رسمها ذانك الكتابان » .

وختم الدكتور زكي مقاله بعد أن عرض لمواضع النقل التي نقلها الدكتور كامل في كتابه من الفيلسوف الانجليزي فقال :

« أما بعد فلو قال الدكتور كامل حسين انه « استوحى » ذلك الكتاب ، لقلنا قد يكون ذلك ، أما أن ينكر كل علاقـة له بالكتاب وصاحبه فأمر يستحيل تصديقه ، ولا عبرة بعد ذلك أيكون صمويل الكسندر ذا مكانة عالية او خفيضة في تاريخ الفكر المعاصر ، لأن قيمة الرجل لا شأن لها بما نحن بصدد

الحديث فيه ، فقد يكون اتفه التافهين ومع ذلك ربما لأحد أن يأخذ عنه ، بل ربما كانت العلة في السكوت عن ذكر المصدر الأصيل هي أنه في رأي الناقل مصدر مظلم مجهول قد لا تراه الابصار[1] » .

* * *

وبتاريخ ١٩٦٢/١١/٢٧ عقب الدكتور كامل حسين على ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود تحت عنوان « الرعب عند بعض المفكرين » فقال :

« ما زلت أرى ان الجدل حول مسألة أصالة كتابي جدل عقيم . ولولا أن « الأخبار » الغراء طلبت إلي أن أرد على هذا الاتهام الجديد ما فعلت . وليس في الاتهام جديد . وسبق لي أن رددت على أهم ما جاء فيه .

والاستاذ زكي نجيب محمود أذاع في الراديو نقده للكتاب والذي أذكره أنه كان نقداً موضوعياً. ذكر ان في الكتاب أخطاء.وذكر أنه لا يفهم كيف يكون الايمان نتيجة طبيعية لتكون المخ الإنساني . وليته عــاد إلى مثل هذا النقد الموضوعي ولم ينزلق إلى دعوى السرقة الادبية وهو يعلم أنها دعوى لا يقام لها وزن في النقد العلمي .

والواقع أن المسألة التي تهم الناس هي أزمة التفكير الاصيل المستقل عندنا . فبعض المفكرين عندهم رعب من التفكير الاصيل . لا يحاولون إلا أن يكون لهم سند من اسم مشهور . فإذا حاوله غيرهم غضبوا أن يكونوا مسبوقين . وكل جديد عندهم غير معقول . وكل قديم عندهم منقول .

وليتهم يحاولون التفكير المستقل الاصيل الصادق عن اقتناع شخصي. إذن لتعرفوا أسلوبه وخصائصه فالامة في حاجة شديدة إلى هذا النوع من التفكير

---

(١) الأخبار في ١٩٦٢/١١/٢٦ مقال الدكتور زكي نجيب محمود بعنوان « أقسم بالله انني ضربت كفاً على كف » .

ولم تعد تقنع بانتساب علمائها إلى مذاهب من التفكير الغربي[1]» .

وفي نهاية المقال قرر الدكتور محمد كامل حسين انسحابه من المعركة عند هذا القدر .

ومن العجيب أن الدكتور محمد كامل حسين اعترف في تعقيبه على ما كتبه الدكتور زكي نجيب بأنه سمع إذاعة الدكتور زكي نجيب قبل ثلاث سنوات وعرف رأيه في مسألة نقل كتابه وحدة المعرفة من كتاب المكان والزمان والربوبية لصمويل الكسندر ثم نراه في رده على العقاد قبل صفحات يقول انه لم يسمع من قبل بهذا الصمويل ولا يدري من هو ولا أين كان .

عقب ذلك الأخذ والرد بين الدكتورين زكي نجيب و كامل حسين خرج العقاد بمقال عنيف جعل عنوانه « مثل من التحقيق والخبرة للدراسة العلمية » بدأه قائلاً :

« وحدة المعرفة ، وهو العنوان الذي اختاره الدكتور محمد كامل حسين لكتابه المبتكر هي احدى الاراء التفصيلية التي بسطها صمويل الكسندر في كتاب المكان والزمان والربوبية ، وليس في وسع الدكتور محمد كامل حسين أن يجزم باستحالة نسبة الرأي إلى « هذا الصمويل » لأنه قد أصبح من الاشاعات الذائعة التي نقلت عنه إلى لغتنا العربية .. واحدى هذه الاشاعات مذكورة في كتاب يقرأه طلاب الفلسفة بلغتنا في الجامعات وغير الجامعات وهو كتاب نحو فلسفة علمية للدكتور زكي نجيب محمود ... »

« والدكتور محمد كامل حسين مولع بإعادة ابتكار الآراء التي يجهلها من آراء هذا الفيلسوف خاصة ، ولكنه يطبقها كذلك على طريقة مبتكرة ، بحق

---

(٢) الاخبار في ٦٢/١١/٢٧ للدكتور محمد كامل حسين بعنوان « الرعب عند بعض المفكرين » .

لا يستطيع أن ينازعه فيها أحد غيره، لانه يؤلف كتاباً وافياً عن وحدة المعرفة كلها ثم يقيم السدود بين أبواب المعرفة ويفرض الاختصاص في كل باب منها ، ويحرم علينا نحن – بصفة خاصة – أن نميز بين مذاهب المفكرين لأننا لا نحسنها كما يحسنها هو بمعرفته الشاملة الكاملة ، ولا يجوز لنا أن نكتسب هذا التمييز بعد خمسين سنة في قراءة الفلسفة وعشرين سنة في تأليف الكتب المستقلة عن الفلاسفة :

ومنها كتاب واحد عن عقائد المفكرين يميز بين مذاهب مائة مفكر على الأقل من أساطين الفلسفة الإلهية والفلسفة المادية ، وبينهم من لا يستطيع الدكتور أن ينطق باسمه حقاً ، ولو على طريقة نطقه باسم هذا الصمويل !

وآية الابتكار في تطبيق الدكتور لقرار الاختصاص الذي يسري على الناس ولا يسري عليه أن اختصاصه هو ، هو فقط ، يضع يده على طلسم مسحور أشبه شيء بطلسم « افتح ياسمسم » الذي لا يغلق دونه باب من الأبواب ، ولكنه إذا تحول إلى يد إنسان آخر تساوى فيه « افتح يا سمسم » و « افتح يا حمص » و « افتح يا فول » .

فالدكتور محمد كامل حسين طبيب مختص بعلاج العظام ، وهذا اختصاص يجري تنفيذه على الاخرين فيمنعهم أن يشتغلوا مثلا بعلاج العيون أو بعلاج الأنف والحنجرة أو بعلاج أمراض النساء وغيرها من فروع الطب ، وكلها تنتمي إلى صناعة واحدة .

أما إذا كان الاختصاص اختصاصاً للدكتور محمد كامل حسين فذلك « اختصاص خاص » محجوز له لا يسمح به لغيره ، لأنه يطلق له عنان الدعوى في جميع المعارف البشرية ويجعله صاحب الرأي الأوحد بين الفلاسفة والأدباء ، فلا يجوز لإنسان يتابع دراسات الفلسفة منذ أكثر من نصف قرن أن يناقشه في مسألة من مسائلها ، ويستحيل على فكرة خطرت له أن تخطر على

بال أحد قبله ولا بعده ، ولو كان ذاك الأوحد في طبقة ذلك الصمويل بين فلاسفة الجيل !

وهل من اللازم أن يتحقق هذا الاختصاص في الواقع ، وبالفعل كما يقولون ؟ كلا ! لا يلزم ذاك أبداً ... لا يلزم ذلك على الاطلاق » .

ثم أخذ العقاد يناقش قول الدكتور كامل حسين حينما زعم أنه بحث عن معلومات – أي معلومات – عن هذا الفيلسوف فلم يجدها في دائرة المعارف البريطانية فقال له : ان هذا دليل آخر على نصيبه من الخبرة بالبحث ومن الاختصاص المزعوم الذي لا يدانيه العموم لأن دائرة المعارف أولاً ليست مرجع المختصين بدراسة الفلسفة وإنما يعتمد المختصون على دوائر المعارف الفلسفية ويعتمدون قبل ذلك على أمهات كتب الفلسفة وعلى مؤلفات الفلاسفة أنفسهم أو شروح المعلقين على مؤلفاتهم . فالدكتور لو كان يحسن البحث عن مراجعه لما احتاج إلى دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع » .

ثم قال له ورغم هذا فإن دائرة المعارف البريطانية لم تهمل ذلك الصمويل كما قال الدكتور لأنها ذكرته ولخصت مذهبه في أول جزء من أجزائها وأحدث طبعة من طبعاتها فإذا كان الدكتور لا يحسن أن يستخرج موضوعاً في الدائرة التي يراجعها « العموم » فليس في نقص القدرة على البحث غاية بعد هذه الغاية ، وإذا كان الدكتور يجزم باهمال الدائرة لأنه يملك طبعة منها غير الطبعة الحديثة فليس للتعجل بالاثبات والإنكار غاية بعد هذه الغاية كذلك .

فكيف يجهل الدكتور ، العليم بمراجع العلم ، أن للدائرة طبعات تتجدد ، وأن طبعتها قبل نيف وثلاثين سنة ليست هي أحدث الطبعات .

وكيف يرجع الدكتور إلى ترجمة حياة فيلسوف كان بقيد الحياة وظل بقيد الحياة بعد صدور الطبعة السابقة بعشر سنوات .

وكيف يستطيل الدكتور باستقصاء مراجع البحث علينا ونحن نتابع هذه المراجع إلى أحدث تواريخها وهو لا يتابعها أو يحسن متابعتها ؟

على أن الدكتور يقع في محظور أشد من هذا المحظور إذا قال انه اعتمد على الطبعة الرابعة عشرة ولم يعتمد على أحدث الطبعات .

فهذه الطبعة لم تكتب للفيلسوف صمويل الكسندر ترجمة حياة لأنها صدرت وهو بقيد الحياة ، ولكنها ذكرته في عدة مواضع وخصته بقسم مستقل من تقسيماتها لتاريخ الفلسفة لخصت فيه مذهب الفيلسوف عن تفاضل القوانين باسمه الذي يقول الدكتور انه « ابتكره » بعد ذلك بثلاثين سنة ويقول بكل شجاعة انه يقترحه .. نعم يقترحه لأول مرة ويسميه لأول مرة ولا يمكن – طبعا – أن يكون أحد قد ابتكره قبله وقبل هذه المرة .. ونعني به اسم الهيراريشيه Hierarchy باللغة الانجليزية وباللفظ الذي نقله الدكتور إلى اللغة العربية كما هو ، حيث قال في (صفحة ٥٧) :

« يقوم البناء الذي اقترحه للمعرفة على نظرية تفاضل القوانين – هيرارشية القوانين ... »

إي والله هكذا قال الدكتور !

أما الذي قالته دائرة المعارف فهو كما جاء في صفحة (٧٥٨) من الجزء السابع عشر بترجمته الحرفية :

« ان الموجودات تنبثق في أحوال معينة وتتكون منها هيرارشية »

واستمر العقاد في مقاله إلى أن قال :

« ونعود إلى كتاب وحدة المعرفة : وحدة المعرفة التي هي من مبتكرات الدكتور لحساب ذاك الصمويل أيضاً ، فلا نجد في فصل منه فكرة واحدة لم ترد في مذهب الفيلسوف « المجهول » لدى الدكتور ، فليس هناك عبارة واحدة عن التطور الزمني ، وعن ماهية الزمن ، وعن التفكير الثنائي ، وعن أصالة الصفات أو الاخلاق البيولوجية وعن القوانين والحوادث ، وعن الحياة والوعي ، وعن الربوبية والإله ، لم يشرحها الفيلسوف المجهول ويتبرع له الدكتور بابتكارها مرة اخرى بعد سنين » .

وختم العقاد مقاله بعد أن قابل كل ما ورد بكتاب وحدة المعرفة وما قال به الفيلسوف من قبل قائلا وهو يوجه الكلام للدكتور محمد كامل حسين :

« ونضع أمامك ما ابتكرته أنت حيث « وحدة المعرفة » بالعنوان المستعار من مذهب الصمويل في المعرفة الموحدة ، ثم تفتح الكتاب الهيرارشية التي تراها في دائرتك،ثم تختمه بنظام التطور الكوني من أدنى كل شيء إلى سماء الربوبية ، ثم ماذا يا هذا ؟ أو يا هؤلاء إكباراً لك عن ذاك وهذا ؟!

نقول نحن ان التشابه تام بين مبتكراتك ومنتحلات الصمويل قبلك .

ثم تقول انت انه جهل منا بالتمييز بين المذاهب والآراء ، لأن هذا التمييز يحتاج إلى زمن طويل ويشترط فيه البدء بالقدرة على تجبير العظام ، ثم لا يكفي فيه اكثر من قراءة خمسين سنة ، وأكثر من عشرين مبحثاً وكتاباً في مذاهب الفلاسفة والمفكرين ، ثم لا غنى فيه عن طريقة واحدة من البحث هي طريقتك في بحث دوائر المعارف ومراجع العلوم .

يا دكتور

ان كنت بعد هذا لا تحس حاجتك إلى التمييز الذي جردتنا منه فانت من أسعد خلق الله[1] » .

عند هذا الحد العنيف من السجال الفكري بين العقاد والدكتور كامل حسين لاذ الدكتور بالصمت حتى وفاة العقاد في مارس سنة ١٩٦٤ وبعد ذلك منح الدكتور محمد كامل حسين جائزة الدولة التقديرية ومما أذكره أن الاستاذ

---

(١) الاخبار ١٩٦٢/١١/٢٨ مقال العقاد « يوميات » بعنوان مثل من التحقيق والخبرة للدراسة العلمية ويراجع يوميات ج ١ للعقاد ص ٣٤٧ وما بعدها طبعة دار المعارف للطباعة والنشر القاهرة سنه ١٩٦٤ .

محمود عوض المحرر بصحيفة الاخبار قد أجرى حديثاً مع الدكتور على صفحات « اخبار اليوم » وخلال ذلك الحديث سأله المحرر عما يراه فيما قاله العقاد عن كتابه « وحدة المعرفة » وأنه مأخوذ من الفيلسوف صمويل الكسندر ؟

فكان رد الدكتور على ما أذكر أن هذه مسألة يجب أن نضرب صفحاً عنها الآن لأن العقاد كان قد اعتذر له عما بدر منه وأنه — أي الدكتور — قد اعتبر المسألة متنهية .

والسؤال : عم اعتذر العقاد، حيث لا مجال لاعتذاره لأنه سجل ان الدكتور قد أخذ الكتاب بأفكاره وتبويبه تماماً وأن الدكتور زكي نجيب محمود قد تدخل يوم ذاك وأعلن رأيه إلى جانب العقاد . وسياق المنطق كما هو معروف لا يعني لو أخذنا بزعم الدكتور إلا ان العقاد قد تراجع عن رأي . فما هو هذا الرأي الذي تراجع عنه؟.هل تراجعه عن أن الدكتور أخذ من صمويل والاخذ ثابت أم عن ماذا ؟! هذا مجرد سؤال للتاريخ وللحقيقة وللمؤرخين من كتاب تاريخ الأدب المعاصر.

* * *

أمين الخولي وبنت الشاطىء

معارك العقاد مع الشيخ أمين الخولي والدكتورة بنت الشاطىء موغلة في القدم . وقد توقفت فترة طويلة . وكان الشيخ أمين يحرص في السنوات الأخيرة على عدم التعرض للعقاد وان كان دائماً يوعز لتلاميذه من « الأمناء » بالتحرش بالعقاد بعد تزويدهم بالمادة التي يهاجمون بها العقاد . فكان العقاد يشيح عنهم لأنه لا يريدهم وإنما يريد من وراءهم حتى تصادف أن صدر للعقاد كتاب « عن المرأة في القرآن » ضمنه خلاصة رأيه في قضية المرأة كما يراها الدين الإسلامي. فخرجت الدكتورة « بنت الشاطىء » على صفحات الاهرام بمقال « اللهم اني صائمة » تنتقد فيه كتاب العقاد . وتصادف أن زاره أحد محرري دار الهلال وسأله عن الاراء التي نشرت ضد كتابه ولا سيما ما كتبته الدكتورة بنت الشاطىء . فأجابه العقاد بسخرية معروفة عنه في مثل هذه المواقف . ان كاتبة المقال لا يضعها العقاد في عالم النساء ولا في عالم الرجال وانها – أي بنت الشاطىء – مثله الوحيد على تناقض المرأة. ونشر المحرر رأي العقاد. فضايق الأمناء وعلى رأسهم كاتبة المقال . فعقبت على كلام العقاد وعابت عليه أن يقول للمحرر ان رأيه هو رأي الطبيعة ورأي الخالق فقالت انه لا يصح أن ينسب الرأي إلى الخالق . ويتجاهل العقاد تعقيبها حتى أرسل له أحد قرائه سؤالاً على صفحات اليوميات

عام ١٩٥٩م

يسأله عن رأيه فيما نقلته عنه الدكتورة بنت الشاطىء وتعليله المقنع وتفسيره .

فأجابه قائلا :

« ان السيدة التي يسألنا الطالب النجيب عن تعليقها تستند إلى قول رجل مبشر – أعجمي – لتتخذ منه حجة في اللغة والدين ، وكلاهما بمنزلة واحدة من العلم بما يكتبان فيه .

والرأي هو مصدر « رأي » سواء بمعنى البصر وبمعنى الحكم والتقدير ، وقد جاء في القرآن الكريم أن الله تعالى « يرى » بكل معنى هذه الكلمة :

« يرونهم مثليهم رأي العين »

« قد نرى تقلب وجهك في السماء »

« أنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً »

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

والمعلوم لكل قارىء يفهم معنى القرآن الكريم أن كل كلمة تنسب إلى الخالق لها تفسير غير تفسيرها بالنسبة إلى المخلوق ، وكذلك نفهم الوجه والعين واليد ونفهم المكر حين ينسب إلى الله في قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » أو قوله تعالى : « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون » .

فليس بالممتنع إذن أن ينسب الرأي إلى الله بمعنى البصر أو بمعنى الحكم والتقدير ، أو بكل معنى من المعاني نفهمه على الوجه الذي يناسب مقام الخالق ، وان ورد في عبارة واحدة منسوباً إلى الله وإلى الرسل وإلى المؤمنين ، وليسوا في الرأي – على أي معنى من المعاني – بسواء .

ولولا أن السيدة التي يشير إليها الطالب النجيب مسلطة على نفسها لما انساقت مرة بعد مرة إلى هذه اللجاجة التي علم من يقرأونها حقيقة ما تنطوي عليه ، ولم يبق أحد – ولا احدى – يفهم أنها مناقشة بريئة تتحرى مواقع الصواب والموافقة كما تتحرى مواقع الخطأ والانتقاد ، وانها لتسيء إلى نفسها وإلى المرأة

فيما تزعمه من الدفاع عنها ، فقد كادت – وهي تثور على الحجاب – أن تقنع الناس بأنها في حاجة إلى برقع لعقلهـا يستر مالا يحسن كشفه من الأخطاء وعيوب التفكير ، وقد كانت المشكلة كلها من قبل في براقع الوجوه[1] » .

وعقب ذلك المقال تلقى العقاد رسالة أخرى من أحد قراء يومياته يسأله أن يزيـده ايضاحاً عما ينسب إلى الله من الصفات . يقول السائـل في رسالته للعقاد :

« فهمنا من كلام الست بنت الشاطىء أنها تدرس تفسير القرآن لطلبة المعاهد العالية ، فإن لم يكن بيانكم لمعاني القرآن اهتماماً بالست المذكورة فمن الواجب أن يكون اهتماماً بأولئك الطلبة ... ولا أخفي عنكم أن نسبة الوجه واليد إلى الله غير نسبة الرأي والمكر لأن تفسيرها – مجازا – قريب إلى الذهن ، فهل لنا أن ننتظر منكم بياناً أوفى في موضوع الألفاظ التي تذكر في وصف الخالق ويجوز في الوقت نفسه أن تذكر في وصف المخلوقات » .

ويومها أجاب العقاد سائله بقوله :

« لا نرى رأي السيد « ... » في التفرقة بـين نسبة الوجه واليد إلى الله ونسبة الرأي والمكر اليه سبحانه ، لأن المعنى في جميع هذه الكلمات ينتهي إلى تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوق في كل صفة تنسب إلى الله وإلى العبـاد ، فلا مشابهة بين رأي الإله ورأي الرسول ورأي المؤمنين ورأى غـير المؤمنين ، ولكن الرأي قـد ورد في القرآن الكريم منسوباً إلى الله وإلى عباده في قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » وورد كذلك منسوباً إلى الله وإلى المشركين في قوله تعالى « انهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» ولا مشابهة بين حقيقة الرأي في جميع هذه الحالات.

وما دامت المسألة على « رأي » صاحب الرسالة مسألة انقاذ لعقول الطلبة

---

(١) الاخبار : ١٩٦١/٣/١٥ ويراجع يوميات ج ١ للعقاد ص ٢٤٥

أو القراء فنحن نسوق إليهم مثلا تمتنع فيه كل مماراة ويتضح منه كل الوضوح ان الكلمة متى نسبت إلى الله وجب أن يكون لها معنى غير معناها المنسوب إلى المخلوقات فالله جل شأنه يقول في كتابه المبين : « قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ».

وفي الكتاب المبين أيضاً قوله تعالى :

« فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء ربهم هذا »

« نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون »

فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم »

« وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا »

فهذه صفة واحدة هي صفة النسيان ينفيها القرآن الكريم عن الخالق جل شأنه لأنه لا يضل ولا ينسى ، ولكنها تذكر في مواضع أخرى من الكتاب — فيجب علينا فهمها بالمعنى الذي يخالف صفة النسيان حين تعرض للعباد ، وهو نسيان المنافقين بمعنى الاهمال والهوان وفوات الرحمة والرضوان .

ولعل « الست » مفسرة القرآن لم تنس هذا التفسير وهي تستمد العلم الغزير من الأب « لامنس » واخوانه وشركائه الأقطاب العارفين باللغة والكتاب[1] ».

كانت تلك معارك العقاد مع الدكتورة بنت الشاطىء . ولا يفوتنا أن نذكر للدكتورة رأيا في العقاد صرحت به على صفحات الاهرام عقب وفاة الكاتب الكبير فقالت :

« والعقاد قد عاش عمره ملء دنيانا. فمن المحزن حقاً أن نتمثله وقد انطفأت فيه الحياة . وهو الذي ظل حتى أيامه الأخيرة يناضل في معركة الوجود بسلاحه الذي لم يلقه قط : بقلمه الذي عاش به وله ! مات العقاد وقلمه إلى جانبه ، كما

---

(١) الاخبار يوميات العقاد ٢٢ / ٣ / ١٩٦١

يموت الجندي في الميدان . مات وكتبه من حوله: ما ألف منها وما طالع ودرس وقد كانت كل دنياه[1] » .

أما معركة العقاد مع الشيخ أمين الخولي فمرجعها أن الشيخ أمين الخولي قد أصدر كتاباً في سلسلة أعلام العرب[2] التي تصدرها وزارة الثقافة المصرية عن الإمام « مالك : تجارب حياة » وفي مقدمة الكتاب عرض الشيخ أمين بمنهج العقاد في كتابة العبقريات الإسلامية فقال : « ليس من التاريخ ولا العلم في شيء أن تسمى عبقريات محمد وفلان من أصحابه ثم يكون الحديث عن فلان آخر من هؤلاء الصحابة فإذا اسم الكتاب فلان في الميزان ، وإنما الأمر أن الكل جميعاً في الميزان : « ثم يقول » ... لا تكون الترجمة مع شيء من هذا موضوعية ، وعلى هذا الاصل تدرك ما تكون عبقرية عمر حين يقول السيد مؤلفها : فانك إذا قرأت مثلا عبقرية عمر فإنك تقرأ العقاد في عمر وما ينبغي الا أن تقرأ عمر ، كما أدرك العقاد من أمره . « ثم يقول أيضاً : » من خفيف الملاحظة التي تغير سيرة المترجم له تغييراً عنيفاً وتتبين بها الحاجة الشديدة للاصول التاريخية في رسم الصورة الأدبية ان عبقرية الامام ... في طبعة الهلال تزين غلافها صورة فارس على جواده شاكي السلاح .. فكلمة التاريخ أن عليا ليس في خير أحواله فارسا — راجع الامتاع والمؤانسة لأبي حيان فصورة الغلاف ضد هذه الحقيقة واحترام التاريخ يستبعدها » .

عقب ذلك تلقى العقاد عديداً من رسائل قراءيوميات يطالبونه بابداء الرأي فيما قاله الشيخ أمين في كتابه المذكور . فكتب العقاد على صفحات الاخبار مقاله الأول في الرد على ما قاله الشيخ تحت عنوان « دعوى في الميزان » بدأها بقوله :

---

(١) الاهرام ١٤/٣/١٩٦٤

(٢) الكتاب رقم (١١) سلسلة أعلام العرب .

« القراء الكرام مشكورون على غيرتهم ، وان كان لي عتب على هذه الغيرة أنها كلفتهم سؤالا في أمرغني عن السؤال !

فقد مرت بي أقاويل قديمة وحديثة من قبيل هذه الاقاويل يسميها الشيخ أمين الخولي نقداً موضوعياً أو علمياً او منهجياً إلى آخرهذه المحفوظات المتواترة بغير معنى فعودتني أن أحسبها في عداد القراءات التي لا تحتمل المناقشة ، لأنها مما يتهافت بعضه على بعض بغير حاجة إلى جواب ، ولست أغير رأيي فيها بعد هذه الاضاقة الجديدة التي تفضلوا بنقلها إلينا . ولكنني أجيبهم ولا أرى الامر يحتاج إلى افاضة في الجواب لجلاء الحقيقة في قيمة كل ذلك الفراغ الذي ينطوي تحت فقاعة الموضوعية أو المنهجية أو العلمية أو التحليلية أو أشباهها من فقاقيع المصطلحات الخاوية ، وهي لو كانت مسبحة ألفية يكرون حباتها كل يوم وكل ساعة لما خلقت في عالم الفكر باحثاً من غير باحث . ولا حجبت فضلا يعرفه ذووه.

ما رأيت أحداً يأخذ الشيخ أمين الخولي مأخذ الجد فيما يدعيه لنفسه وما يدعيه على غيره ، بل ما عرفت إنساناً يتعالم على الناس وهو أحوج منه إلى أن يتعلم ممن يتعالم عليهم ، وليس أضيع من كلام يذهب في مناقشة صاحب دعوى يحسب أن اللياقة تسمح له أن يقدم كتاباً فلا تكون مقدمته إلا عرضاً رخيصاً قصاراه أن يقول فيه : هذه هي الترجمة والا فلا .. فأقرأوني ولا تقرأوا أحداً سواي !

وليس أضيع من كلام يقال لمن يدعي أنه هو وحده قد اختصه الله بحق الكتابة في العلم والتاريخ والأدب ، فإذا سمحت رخصة من عنده بالمشاركة في فضلات هذا الحق فعلى شرط واحد : وهو استثناء من يسمى عباس العقاد ، بعد أن جرده من كل قدرة على كتابة الكتب ، حتى العنوان والغلاف !

فإذا تناولنا أول حبة من حبات الموضوعية فعلامة التحقيق فيها أن هذا « الموضوعي الوحيد » يقرأ الكتاب ويلغيه ، وهو لا يفهم موضوعه .

فما كان موضوع العبقريات كما يدل عليه عنوانها إلا دراسة نفسية ووصفاً لصاحب العبقرية ، فإن لم يستطع الناقد من العنوان أن يفهم الفرق بين وصف الملكات والأخلاق وبين سرد الارقام والأخبار فقد يفهمه من الموضوع الذي بيناه وفصلناه وقلنا إننا نقصده ولا نقصد ما عداه .

وما قلناه وكررناه عن العبقريات يكفي لفهم الموضوع المقصود ، ولكنه مع هذا لم يكن بالتعريف الوحيد للترجمة كما نعنيها ، بل ذكرناه مرات قبل ذلك وسبقنا إلى تقريره قبل العبقريات بأكثر من عشر سنوات ، حيث نقول في مقدمة كتابنا عن ابن الرومي : « انها ترجمة وليست ترجمة ، لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة ، ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة » .

وربما خلت العبقرية بجملتها من ذكر رقم من أرقام السنين ، بل ربما خلت من ذكر رقم السنة التي ولد فيها صاحب العبقرية أو توفي فيها أو حانت فيها وفاته بتاريخها المعروف ، وما من أحد يستطيع أن يزعم – ولو كان من طرار الشيخ الموضوعي – أن ذكر هذه السنين أمر يعجز عنه كاتب سيرة ولو كان من أجهل الجهلاء بين أصحاب الجزازات والفهارس والهوامش والعنعنات ، فهي متروكة لأنها غير لازمة لجلاء الملكات والأخلاق ، وليست متروكة لأنها منهج غير مستطاع من مناهج التأليف.

وهذه هي الحبة الأولى من المسبحة الطويلة.

والحبة الثانية لا تزال واقفة منا عند العنوان .

ان الناقد الموضوعي صاحب التمييز الدقيق الذي وهبه الله له وحرمنا نحن وحدنا منه على الخصوص ...

صاحب التمييز هذا يتساءل لماذا يسمى بعض الكتب باسم العبقريات

ويسمى بعضها الآخر باسم فلان في الميزان ، وكلهم جميعاً في الميزان ...

والناقد « الموضوعي » الذي يفوته التمييز بين العنوانين ينبغي أن يكف لسانه على الأقل عن التعالم على الأولين والآخرين ، كلهم جميعاً ، باسم التمييز .

فالحكاية ، كلها جميعاً ، أن العباقرة ومن هم في الميزان هم كلهم في الميزان .

نعم . ولكنهم في الميزان ليسوا كلهم جميعاً عباقرة ..

أمفهوم هذا ؟ .. ان لم يكن مفهوماً فالحق على المنهجية والموضوعية ، ولا علينا ولا على اسم العبقرية والميزانية .

وهبهم سواء بلا خلاف كثير ولا قليل فمن أين للتاريخ أن يحرم على المؤلف تنويع العناوين بين كتاب وكتاب ولو كانت كلها عبقريات وكلها موازين ؟

أما الحبة الثالثة من المسبحة الألفية فلا تنتقل بنا من صفحة الغلاف ، لأنها تلغي العبقرية كلها جميعاً اكراما لصورة عليه . ومما يسقط العبقرية كلها جميعاً أن يتحلى الغلاف بصورة علي بن أبي طالب على ظهر فرس شاكي السلاح ، وقد كان راجلا خيراً منه فارساً كما جاء في رواية أبي حيان .

ولقد ظهرت من عبقرية الامام ثلاث طبعات قبل طبعة الصورة ، فهل كانت العبقرية في طبعاتها الأولى موضوعية منهجية ثم جاءت صورة الغلاف على الطبعة الرابعة فخرجت بها عن الموضوع .

منهجياً يجوز ..

ومنهجياً أيضاً يجوز أن يحسب على المؤلف عمل الفنان الذي يسند إليه الطابعون والناشرون تحضير الغلاف .

ولكن المنهجية — لسوء الحظ — مطية جامحة أصعب مراساً من كل فرس

على كل غلاف ، ويوشك أن ترمي براكبها تحت قدميها وتنطلق بعنانها حين يرمي هو بهذا العنان بين يدي أبي حيان .

ومن أبو حيان هذا فيما يجهله الموضوعيون المحققون ؟

أبو حيان هذا هو الرجل الذي جعل همه تلفيق القصص على الامام علي بن أبي طالب وافتراء الأحاديث عنه ليوقع بها بين الطالبيين ، وهو مشهور بين أهل السنة والشيعة بأنه أكبر زنادقة الإسلام ، ويقول عنه عالم من فضلاء علماء الشيعة ، هو ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة : انه ملحد زنديق لفق حديث المفاضلة بين علي وأخيه جعفر ليوقع بين الطالبيين .

فهل هناك حبة رابعة أو خامسة من حبات المسبحة الألفية لهذه التحقيقات « العلمية » في اسناد الروايات إلى الرواة الثقات؟

آخر الروايات في أمر علي بن أبي طالب رواية يعتمدها أبو حيان .

وآخر الناقلين حقاً في النقل عن أبي حيان من ينقله فلا يصيب ولا يفقه مرماه . فحقيقة الخبر على خلاف ما نقله الناقد الناقل الأمين ، ونص الخبر من كتاب الامتاع والمؤانسة : « أن عليا قال للمقداد أعطني فرسك أركبه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقاتل راجلا خير منك فارساً ، قال : فركبه ووتر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فخرمه ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسك على فيه ، فلما رأى علي ضحكه غضب فسل سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل أن يرجع فقال علي ... لو أصابني شر من هذا كنت أهله حين يقول : أنت تقاتل راجلا خير منك فارساً » .

ويعقب العقاد على هذه الرواية قائلا:

« وكفى بهذه الرواية عن ضحك النبي في ذلك الموقف وعن اضطراب معناها دليلا على قيمة الخبر في ذمة أبي حيان ، فإنه على هذه الرواية يثبت أن عليا

يقاتل فارساً فيقتل ثمانية في كرّة واحدة ، وأدعى من الكلام عن ضحك النبي الشك في قيمة الخبر أن يقال ان عليا رضي الله عنه يعصيه ثم يقول عن قتله ثمانية من المشركين أنه شر أصابه .

ولكن .. فليكن الخبر صحيحاً على علاته ، فهل معنى ذلك أن علياً لم يكن فارساً وان تصويره على ظهر فرس يهدم التاريخ ؟

لقد كانت وقائع صفين تشهد بفروسية علي وغلبته على أنداده ، وكان في وقعة الجمل يواصل ركوب الفرس حتى يرفق على قربوس سرجه . كما جاء في مروج الذهب ، ولئن صح أن النبي صلوات الله عليه نهاه عن خوض المعركة فارساً فقد نهاه بعد ذلك عن الخروج راجلا لنزال عمرو بن ود ، فهل كلمة التاريخ في ذلك أنه ليس بفارس ولا براجل ؟ وقد كان علي كرم الله وجهه يخلخ درعه أحيانا فهل كلمة التاريخ فيه أنه كذلك ليس بدارع ولا صاحب عدة للقتال ؟

على أن المؤرخ الذي يهمل أثر المترجم له في نفوس الناس غير جدير بكتابة التاريخ ، وقد كان أثر علي الفارس في نفوس الناس أبلغ الآثار . فكان السعدي شاعر قومه يسميه فارساً وهو يركب الدلدل بغلته الموروثة كما جاء في قصائد البستان الفارسي ، وقد ذكره حافظ في العمرية فسماه فارس عدنان :

ما كان غير أبي حفص يفوه بها　　　امام فارس عدنان وحاميها

وما كان لقب الفارس أولى بذي شجاعة من قاتل عمرو بن ود فارس الفرسان ، أو قائد خيل المسلمين إلى اليمن وهو أول خيل لهم دخلت تلك البلاد ، ومن جاز أن يكون قائد حملة الخيل وفيها خالد بن الوليد ، جاز أن يرسم على ظهر فرس في صفحة غلاف .

وبعد ، فلماذا نمسك بحبات المسبحة ولا نمسك بتلابيب الموضوع واقعياً منهجياً ذاتياً مع الشاهد الحي من شخص الشيخ أمين ؟

لقد رأينا الشيخ بخمسة أزياء في مدى شهرين اثنين : رأيناه يلبس الفيصلية والقميص المفتوح والسروال القصير ، ورأيناه يلبس الجبة على « الياقة » المنشّاة وفي يده أساور النشا بالأزرار الذهبية ، ورأيناه يلبس الجلباب البلدي والصندل في قدميه ، ورأيناه يلبس الجاكته والبنطلون عاري الرأس أو لابس العمامة ،

ورأيناه ورأيناه ورآه مثلنا الطلاب والأساتذة في الجامعة كما رأيناه ...

فمن من هؤلاء هو « الخولي العلمي التاريخي الموضوعي » ؟ ومن منهم يبيح التاريخ وضع صورته على غلاف ترجمته ؟ ومن منهم تبطله كلمة التاريخ ؟ »

ختم العقاد مقاله هذا قائلا:

« يا أيتها المسبحة المنهجية الطويلة، الألفية !

كفاية ...

كفاية قلبة دماغ بهذه الفقاقيع ، وكفاية على ما نظن جواباً لقرائنا الكرام عما تحت هذه الفقاقيع ، وليسرح بها من يحتاج إليها موضوعياً كان أو غير ذي موضوع[1] » .

عقب ذلك المقال حمل البريد إلى العقاد مئات الرسائل من القراء . وكنت أقوم بقراءتها له . هذا إلى جانب مكالمات تليفونية عديدة ليس في الإمكان حصرها . وان كانت كلها مؤيدة لموقف العقاد من الشيخ أمين . وأذكر أنني خرجت يومذاك لنفسي بأن الشيخ أمين الخولي قطعاً من أولئك الذين يتعالمون على القراء.فما أن رأوه بين يدي العقاد العنيف حتى تصايحوا وأخذوا يطالبونه بالمزيد في نقد الشيخ الأمين على التاريخ وحقائقه وعلى الحديث والمحدثين . فكتب العقاد مقالاً ثانياً على صفحات الأخبار جعل عنوانه « عبث لا يسكت عليه » بدأه بقوله :

« وصلت إلينا تعليقات شتى على اليوميات يتندر أصحابها بتلك الدعاوى التي يدعيها لنفسه الشيخ أمين الخولي متعالماً بها على خلق الله أجمعين ، من الأولين والآخرين .

وكتب إلينا السيد (...) وهو كما ينبيء خطابه من المتتبعين لمراجع

---

(١) الاخبار ٥/١٢/٦٢ يوميات العقاد بموضوع « دعوى في الميزان » .

الأحاديث – خطاباً مطولاً عن أقاويل منسوبة إلى النبي صلوات الله عليه وإلى الامام مالك وإلى الخليفة هارون الرشيد يجترىء بها الشيخ أمين الخولي على حقائق التاريخ وعلى دعائم الاسناد اجتراء لا يقل ما فيه من دلائل الجهل بالتاريخ على ما فيه من مساوىء التبديل والتحريف .

والحق أنه عبث لا يسكت عليه لأحد ، ولا يسكت عليه – خاصة – لإنسان لم يكتب صفحة إلا ليتعالم بها على الناس بدعوى التحقيق والتصحيح والفهم النافذ والعقل الرجيح ، وليس يحتاج الناس إلى التحذير من أحد كما يحتاجون إلى التحذير من إنسان يتطاول ويتعالى باسم الأسانيد والمراجع وهو بهذه الجرأة على ما يجهل وبهذه الجرأة على ما يعلمه ثم يستطيل عليه بالتبديل والتحريف .

ومن الموضوعات التي تلقينا الرسائل في التنبيه إليها ما ورد في باب « السياسة ومالك » حيث يقول الشيخ أمين الخولي ما ننقله بحرفه :

« وكذلك الأمر مع الرشيد ، يوشك أن يشد فيتردد في اتيانه حينما دعاه وهو بالمدينة ثم يرخي ويأتيه أخيراً ، لكنه يشد في حديث السفرجل ، إذ أرسل إليه الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية في السفرجل وهي الشنشنة الحمقاء من الحكام دائماً ، إذ يحسبون أنهم يطمسون الحقيقة ويمحون ما في الكتب ، وذلك أن حديث السفرجل هذا يذكر أنه أهدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرجل فأعطى أصحابه واحدة واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات وقال له : القني بهن في الجنة ... وهو وجه من الفضل لمعاوية رأس الامويين أعداء العباسيين . فلما جاء النهي مالكا تلا قوله تعالى : « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ؟

ثم قال : والله لأخبرن بها في هذه العرصة ، حدثني نافع عن ابي عمر

قال : « كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدي إليه سفرجل » الحديث .

انتهى كلام الشيخ امين الخولي سند الأسانيد ومعلم المؤرخين ...

انتهى كلام الشيخ في خبر من اخباره المحققة ، واوجز ما يقال فيه انه مكذوب على كل من ذكر فيه : مكذوب على الله ، وعلى النبي ، وعلى مالك ، وعلى هارون الرشيد . وعلى نافع ، وعلى ابن عمر ، وعلى المذكورين والمحذوفين ممن ينسب إليه .

نعم . كل من ذكر في هذا الخبر مكذوب عليه ؛ حتى الله جل وعلا ، وحتى النبي صلوات الله عليه .

(اولاً) حذف الشيخ امين جزءاً في وسط الآية الكريمة التي نقلها ، وهو قوله تعالى « في الكتاب » بعد « ما بيناه للناس » .

وتمام الآية الكريمة بنصها هو : « ان الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » .

وإنما حذف هذا الجزء من الآية الكريمة وليس هو في نهاية الكلام ، لأنه لو ذكر كما جاء في القرآن الكريم لثبت افتراء الخبر على مالك رضي الله عنه ، لأن مالكاً يعف عن الخلط بين الحديث والكتاب ، فلا يجترىء على جعل الحديث من الآيات المنزلة في القرآن .

وهذا هو الكذب على الله .

أما الكذب على النبي صلوات الله عليه فهو ثابت من الروايات الصحيحة جميعاً ، وهو اثبت من ذلك بسند التاريخ الذي لا شك فيه .

فليس في روايات الحديث الصحيحة خبر عن هذه القصة بجذافيرها ، وجميع المصادر المعول عليها التي ألفها الثقات عن الأحاديث الموضوعة قد ذكرتها بين الأحاديث المكذوبة وعقب عليها بعضهم بلعن الكاذبين .

على ان كذب الخبر بالسند الذي لا شك فيه من التاريخ يغني عن النظر في اقوال الرواة الثقات وغير الثقات ، فإن الخبر يروي عن جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه انه اهدى السفارج إلى النبي صلوات الله عليه ».

والمعلوم علم اليقين أن جعفرا قتل في غزوة « مؤتة » في شهر جمادى الأولى، ومعاوية بن ابي سفيان أسلم بعد فتح مكة في شهر رمضان ، فبين مقتل جعفر وإسلام معاوية أكثر من خمسة شهور ، ولا محل بعد ذلك للسؤال عن صدق الرواة للاحاديث فان كذب الخبر بالتاريخ المحقق ثابت ثبوت اليقين الذي لا يحتمل الخلاف .

والشيخ أمين الخولي – الذي وضع التاريخ كله جميعاً تحت حمايته – يحذف اسم جعفر من الخبر، فيقول ان النبي أهدي إليه السفرجل بصيغة المجهول، فلماذا يختزل اختزاله حتى في نقله للخبر المكذوب ؟! أيحذف الاسم هنا كما حذف الكلمتين من الآية الكريمة لأن ذكر اسم جعفر قاطع في تكذيب ما رواه ؟

قال الشوكاني في كتاب « الفرائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة » ، بعد ايراد ذلك الحديث المكذوب : « وجعفر قتل في مؤته ومعاوية إنما أسلم عام الفتح ، فلعن الله الكاذبين » .

أما الكذب على الامام مالك فشاهده الذي لا حاجة إلى شاهد غيره أن « موطأ مالك » خال من ذكره ومن الإشارة إليه .

وشاهده الذي هو أقوى من كل شاهد آخر أن مالكاً رضي الله عنه لا يجعل الحديث من الآيات البينات المنزلة في القرآن الكريم ».

ولا محل للافاضة في بيان الكذب على الخليفة هارون الرشيد الذي رماه الرجل الثبت المتحرج بالحماقة وهو يستند إلى كل تلك الأباطيل ، فإن مالكاً رضي الله عنه لم يرو الحديث ولم يكن للرشيد من داع إلى الحجر على روايته ،

وليس الرشيد بالذي يجهل الخبر عن مقتل جعفر بن أبي طالب وهو على علمه وعلم عترته بتاريخ أهل البيت .

أما الكذب على نافع وابن عمر فيكفي في اثباته أن الخبر لم يرد في موطأ مالك ، ولم يأت له ذكر في غير رواية يعيش بن هشام .

والدار قطني يقول عن يعيش هذا « إنه يروي الغرائب » وكل أفراد إسناده بين ضعيف ومجهول .

والخليل يقول عن هذا الحديث (انه منكر جداً)

والحافظ الذهبي يقول انه موضوع

والسيوطي يقول انه لا أصل له

ولم ترد الإشارة إليه حيث وردت من كتب التحقيق إلا ليتبع بابطاله أو تضعيفه او بلعن راويه .

وهذه هي الأسانيد التي يحققها الشيخ أمين ويحتكر من أجلها أن يلقن التاريخ كلمته الأخيرة في التراجم ويتخذها قدوة للذين ينعى عليهم « الحاجة الشديدة للاصول التاريخية « ... » والتغيير العنيف لصور المترجمين » .

ثم ختم العقاد مقالته هذه بعد أن ناقش الشيخ أمين الخولي مناقشة حامية حول ما نقله من كتاب العقاد (عبقرية الامام) وناقشه في مقاله الذي قال فيه ان التاريخ ينكر صورة الامام وهو راكب الفرس لأن الرسول عليه السلام أعلن أن علياً راجلا — من المشاة — خير منه فارساً ثم عقب على الرواية التي أتى بها الشيخ الخولي قائلا .

« هذه سبع مرات يبطل فيها التاريخ رواية أبي حيان، ونحن الذين نملي على التاريخ احتكار عدد المرات كما نختارها نحن ، لأننا لم نسلم بعد للشيخ أمين بالحق الوحيد في احتكار الاملاء على التاريخ المسكين ، ولأننا سنعود إلى رسم الصورة على الغلاف بغير رخصة من فن الخولي او فن ابي حيان .

والحق – مرة أخرى – انه لعبث لا يسكت عليه ، ولا يسكت عليه – خاصة – لإنسان هو من أحوج خلق الله إلى العلم بقدره والعلم بأقدار الناس ولن يحتاج الناس إلى تحذير من كلام أحد في التاريخ وفي العلم كحاجتهم إلى التحذير من مؤرخ يتعالى بدعواه ويحكم على الناس « بالحاجة الشديـــدة » إلى الأصول التاريخية ، وهو يقرر رواياته فإذا بالرواية الواحدة تجمع الأكاذيب على كل من ذكر فيها ، ولا تسلم منها حتى أرقام السنين والشهور في التاريخ[1] » .

لم يسكت الشيخ أمين الخولي فعقب على كلام العقاد زاعماً أن الكلمتين في كتابه سقطتا من المطبعة ولم تسقطا من قلمه وهما « في الكتاب « من الآية » إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (البقرة آية ١٥٩) .

فخرج العقاد على صفحات الأخبار بمقال عنيف عن الشيخ أمين الخولي جعل عنوانه « نطق دهراً وسكت قهراً » قال فيه :

« قضى الشيخ أمـــين الخولي نحو عشرين سنة ، يكتب ويشطب ثم يشطب ويكتب فيما يسمونه نقداً تارة وفيما يسميه تحليلاً موضوعياً تارة أُخرى ، ومداره كله على موضوعات من الأدب الغربي والثقافة العصرية ، أو جز ما يقال عنها أننا قرأنا فيها كتب النقد والتحليل أكثر مما يحفظ الشيخ أمين من أبيات ألفية ابن مالك، مع التواضع الكثير !

وكنا نقرأ بعض ما كتب وشطب ، ونسمع ببعضه ولا نقرأه ، ثم نشطبه جميعاً ولا نرى فيه ما يحتمل المناقشة .. ولعلنا وغيرنا سواء في النظرة إلى كل ما يكتبه الشيخ نقداً لموضوعات الأدب الحديث ! هل رأيتم ذلك الريفي الذي

---

(١) الاخبار ١٩٦٢/١٢/١٩ يوميات العقاد بعنوان « عبث لا يسكت عليه » وتراجع يوميات العقاد ج ١ ط . دار المعارف ص ٤٠١

يدخل المطعم مرة أو مرتين وينطلق بعدها إلى مجالس الحاضرة ليعلم الناس كيف يأكلون بالشوكة والسكين ؟

من لم يره فقد رأى الشيخ في نقده « الموضوعي » لتلك الموضوعات » وعرف لكل منهما حقه في المناقشة والتعليق .

ثم ألف الشيخ أمين ، او أعاد تأليف كتابه عن الامام مالك ، فقدم له بفصل طويل في الموضوع او في النقـــد الموضوعي ولا مؤاخذه ... وما هذا الموضوع يا ترى ؟ ليس مالكا ولا ابن مالك ، ولا هو ذلك ، ولا شبيه ذلك ...

كلا ... ولكنه هو الموضوع الذي خلاصته على لسان الشيخ أمين :

« أنا الموضوع ، أنا التاريخ – أنا السند . أنا الموضوعية .. أنا العلم .. أنا العلماء .. أنا أنا أنا الأمناء ... أنا كذلك وكل ذلك . ولكن من هو العقاد موضوع المقدمة دون مالك وأهل مالك ... هو بالايجاز : ما ليس كذلك !

ولقد كان في وسع الشيخ أمين أن يحمل شوكته وسكينه كما يشاء ليعلم بها الحضريين السذج كيف يأكلون ، بل كيف يشربون الماء بالشوك والسكاكين .

كان في وسعه ذلك « كله جميعاً » دون أن نحاسبه على لقمة واحدة ، غصت بها حلوق المساكين على هذه المائدة !

ولكننا سئلنا عما يخصنا منها وجاءنا السؤال ممن يستحقون الجواب ، فسمعنا وأجبنا وانكسرت الشوكة والسكين في يمين الشيخ أمين !

ولقد صاح التاريخ والموضوع والسند و « الأنا » المكررة مرات عداد الأسطر في الصفحات ، ولقد صاح معها « الأمناء » الذين يتعددون بعدد الأشكال والازياء ، ولجوا في الصياح وهم يعلنون السكوت عن المباح وغير المباح .

إن اللامفهومية — على مايظهر — مذهب « لدني » لمن يخرج عن كل موضوع في الكتابة الموضوعية .

فمن المفهوم أن يعتصم بالسكوت من تحرش به الناس وألحوا عليه بالتحرش ليتكلم على كره منه ، فإذا سبق إلى الكلام مرة بعد مرة قالها مرة واحدة ليعلن النية على السكوت الطويل او القصير .

ولكن هذا غير مفهوم ممن يتصدى للكلام ويعيد الكلام ويعود إلى الاعادة والناس معرضون عنه لا يلتفتون إليه ، فإذا تكلم دهراً ثم سكت قهراً فمعنى ذلك أنه قد عرف أخيراً أن الله حق وأن الكلام باطل لا يغني عن الحق ، وأن أعلم الخلق ، ومعلم الغرب والشرق ، خليق أن يخفي الشوكة والسكين ، في موضع « موضوعي » أمين !

* * *

وحسن على كل حال ان يسكت المتكلم إذا كان يتكلم ليقول ما تمجه الاسماع وتأباه العقول .

حسن أن يسكت وليس بالحسن أن يتكلم ليتمسح بصفّاف الحروف ويزعم أن الكلمتين (في الكتاب) سقطتا من المطبعة ولم تسقطا من قلمه ، ثم يعود القارىء إلى طبعة الكتاب الأولى فيرى أن المؤلف الأمين مصر على إسقاط الكلمتين من الآية القرآنية لأنه في الصفحة الـ (٣٢٩) من تلك الطبعة يقول عن الامام مالك : انه في حديث السفرجل تلا قوله تعالى : « ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس « .. الآيه » !

هكذا بغير اتمام الآية وبغير ذكر « بيناه للناس في الكتاب» وآية الآيات في النقل الصحيح أن المؤلف الذي يضن على الشواهد القرآنية بالتمام يفسح الصفحات لأكذوبة أبي حيان من الألف إلى الياء، ويفسحها للواهن الضعيف من الأحاديث

المكذوبة ثم يعيدها من طبعة إلى طبعة ومن صفحة إلى صفحة بغير اقتضاب ، إلا لاخفاء المصدر المدعى عليه .

يفعل هذا ويكرر فعله ويحرم علينا أن نحاسبه على الحذف من القرآن او على اقتضاب الاشارة إليه ، وانه ليبيح لنفسه من رواية أبي حيان أن يحاسبنا على صورة غلاف وأن يجعل تلك الرواية سنداً قاطعاً يحرم على المصورين والمؤلفين رسم علي بن أبي طالب على ظهر حصان .

وانه ليكمل الحديث الواهن ويعترف بتوهينه ثم يقول إن مالكاً يعتبره في حكم القرآن الكريم الذي يلعن الله واللاعنون من يكتمونه ، ثم هو يبني على هذا السند الواهن وصف الرشيد بالحماقة واقدامه على محو الثابت في الكتاب ؟ وما الثابت في الكتاب ؟؟.. الثابت في الكتاب هو ذلك الحديث غير الثابت وغير الجدير بالذكر في صفحة وطبعة بعد طبعة ، حيث تضنّ الصفحات على آيات القرآن بالاتمام .

وأعبث العبث ان يقرر توهين الحديث ثم يبلغ من ثقته به ان يحسبه من الاحاديث التي اسقطت من « الموطأ » وهو لا يدري ان اثبات الاحاديث في الموطأ إنما يستشهد به على الاحكام الفقهية في الكتاب والسنة ، لأنه كتاب فقه وليس بكتاب حديث .

* * *

وان احرى الناس ان يسكت ولا يجري القلم بكلمة في امر الأحاديث النبوية من يتكلم في امر كتب الأحاديث فيسمعنا العجب من تقسيمها إلى شائع وغير شائع وعادي وفوق العادة ... فما علمنا ان كتب الأحاديث تنقسم إلى شيء غير كتب الصحيح وغير الصحيح ، فليست هي بشيء منقوش وشيء آخر غير منقوش وليست هي بتحفة في متحف المخطوطات او — سلعة في اسواق المطبوعات ، فإنما هو تقسيم يعرفه الذين يقسمون ازياء الرجال بين « الكرافته » وطوقها

المنشى ... أو بين اللاسة والطاقية على الجلباب والجاكته الرياضية ، أو بين الصندل المخروق في الترام وفي السوق او بين الفيصلية على الجبة والقفطان . او بين الجبة والقفطان بالرأس .

كلا ليس بالحسن أن يتكلم الإنسان ليميز بين كتب الحديث بغرائب الأزياء وإنما تتميز كتب الحديث بصحة السند وصدق الرواة ، ولا تميز لها غير ذلك عند طلاب الحقائق من الأحاديث ، فإذا جاز هذا التمييز لأحد يستجيز ما لا يجوز فليس بالجائز في العقول أن يكون القاضي عياش قد نقل حديثاً بالسند الصحيح عن نافع عن عبد الله بن عمر ثم حكم عليه بالتوهين .. فمن الجهل المحض أن ينسب هذا إلى القاضي عياض وهو يعلم أن هذا السند هو أصح الصحيح » .

ثم أخذ العقاد يقدم للشيخ أمين أدلة من الواقع ، ليبطل له سند الرواة الذين نقل عنهم الحديث ومنها أن جعفر بن أبي طالب قد مات قبل إسلام معاوية ببضعة شهور فمن المستحيل أن يكون حاضراً يهدي السفرجل إلى الرسول بعد إسلام معاوية بزمن يقصر او يطول .

ويقول العقاد :

« من المستحيل هذا إلا إذا صح عند الشيخ أمين فرض واحد وسند واحد لا يستغرب منه أن يعتمد عليه ، فقد كان جعفر رضي الله عنه يلقب بالطيار بين أهل الجنة ، ومن الجنة حمل السفرجل إلى الأرض ثم عاد سالماً إلى قواعده في السماء .

إذا كان هذا سند الشيخ أمين — او الشيخ أمناء بالجملة — فليبينه لنا من مصادره « غير العادية » .. ولن يكون في هذا البيان أغرب في الافتتان من مصادره عن أبي حيان عن فلان ، ولا فلان ...

بل لن يكون أغرب من تعرضه لتمحيص الثقة بالرواة والثقة بنافع مولى ابن

عمر على الخصوص ، وانه ليجهل تاريخه ويقول عنه في طبعته المطولة ان الخليفة بعثه إلى مصر (يعلم الناس الحديث وفيها مات سنة ١١٧ هجرية) ولو راجع تاريخه — وهو بعض ما يلزم لتحقيق سند الرواة — لعلم كما جاء في التجريد أنه مات بالمدينة !

كل هذا جميعه ليس بحسن ولا شبيه بالحسن ، وأسوأ من هذا « كله جميعه » أن يأخذ بتلابيب مالك المظلوم ، وهو يتصدى لتمحيص تاريخه ، فلا يزال هذا الامام المظلوم موعوداً من الشيخ باسناد الأحاديث الباطلة إليه في كل خبر يعترضه اسم من اسماء الجعافرة كائناً من كان لا فرق بين جعفر بن أبي طالب وجعفر الصادق وأبي جعفر المنصور[1] ... الخ »

لم تنته مقالات العقاد في الرد على الشيخ أمين الخولي عند تلك المقالة ، وإنما نراه يكتب بعدها بأسبوع مقالاً جعل عنوانه « المتهافت بأنفاسه » تتمة لما كتبه من قبل في مناقشة الشيخ أمين بدأها بقوله :

« حكاية الأزياء الخمسة التي يتزيّا بها الشيخ أمين الخولي ، او الشيخ « أمناء » بالجملة » كانت معروفة بين ركاب الترام بمصر الجديدة وطلاب الجامعة الذين سعدوا بتمثيل هذا المخزن المسرحي المجتمع في شخص واحد ، ولكنها قد تكون اليوم معروفة بين الكثيرين من قراء هذه المقالات ، ثم تظل معرفتهم بنا محتاجة إلى بقية موجزة للاستفادة منها في المعرض الوحيد ، الذي يجعلها حقيقة بأن تذكر وتفيد .. وهو موضع الدراسة النفسية في تلك الحالة التي تغني — إذا هي عرفت على حقيقتها — عن اضاعة الوقت في أخذها مأخذ الجد وتحميل « الموضوع » ما لا يطيق من مناقشات العلم ومساجلات الأدب والتاريخ .

---

(١) الأخبار ١٩٦٢/١٢/٢٦ يوميات العقاد بعنوان نطق دهراً وسكت قهراً وتراجع يوميات ج ١ للعقاد ط دار المعارف ص ٤٠٧ وما بعدها .

فالقصة التي أصبحت مشهورة الآن عن أزياء الشيخ الخمسة : كرافته على الجبة والقفطان ، وعمامة على «الشورت» والقميص المفتوح ، وصندل افرنجي — بدل القبقاب — مع الطاقية البلدية ، ورأس عار مع القفطان الفضفاض ، ولاسة مع البدلة الافرنجية تارة والجلباب « المنزلي » تارة أخرى ..

... قصة هذه الازياء هي — من الوجهة الفنية الموضوعية — قصة مقتضبة ان لم تلحق بها لواحقها وسوابقها من أزياء الشيخ « الموضوعية والوضعية » منذ أيام طاقية الطفولة إلى ايام طيلسان الأستاذية في الكهولة .. ولا حاجة هنا إلى سند أو اسناد من الأحاديث العادية أو الأحاديث « فوق العادة » غير عادات الشيخ فيما يكتبه بقلمه أو يصنعه بنفسه غير مكره عليه ، او يفتح منافذه لمفتاح شخصيته بيديه ؟

فالشيخ الموقر هو الذي كتب عن نفسه في صباه فقال انه كان في الثانية عشرة او الحادية عشرة يعجب كلما سمع فقيه المكتب يقول له وهو يطيل التأمل في عينيه : يا خوفي من هاتين العينين !

والشيخ هو الذي قضى بعد ذلك أربعين او نيفاً وأربعين سنة وهو يطيل التأمل في شخصه ولا يرى في الوجود شخصاً يجوز النظر إليه أو التحدث عنه غير أمين ثم أمين ثم أمين ثم أمين .. خمسة أمناء على خمسة أزياء او على خمسين من الأزياء .. فإذا اجتمع حوله نفر ممن يجتمعون على أمثاله فليست لهم أسماء ولا صفات ولا ملامح ولا ذوات ، ولكنهم حسبة مكونة من أمين واحد مضروباً في خمسة او خمسين .. وهذه إذن — يكرم الله السامعين — هي جمعية الامناء المكررين المعطرين المبخرين ، وقاية لهم — بعيد الشر — من حسد الحاسدين ...

والمقصود من هذه الحكاية «الموضوعية» في الصميم ، أن قصة الفقية الذي أطال التأمل في عيني الشيخ .. مضافة إلى قصة الأزياء الخمسة ... مضافة إلى قصة الدنيا التي خلت من كل شيء غير أمين واحد ومضروب فيما شاء من الأرقام .. مضافة

إلى طول الأنفـاس في تسويد القرطاس ، والهبوط إلى الأسـاس ، او الصعود إلي السقف بالسند والقياس.. مضافة إلى كثير من صنف هذه الأشكال والأجناس!

« كل ذلك جميعه « إنما ينجلي على حكاية كاملة شاملة ، خلاصتها أننا امام « ظاهرة نفسية » ينبغي أن تفهم فهمها وتوضع في موضعها ، ولا حاجة بعد ذلك إلى اضاعة الوقت في معاملة لها غير هذه المعاملة ، فإنها هي — دون غيرها — وجه الفائدة في الكلام عنها » .

ثم استطرد العقاد قائلاً :

« والأمر الذي يعنينا فيما نحن بصدده ملاحظتان :

« احداهما » أن اصحاب هذه الظاهرة لهم غصة واحدة تهون إلى جانبها « كل الخصص جميعها » وهي ان يوجد في الدنيا إنسان يتحدث عنه الناس ويشغل الاسماع — كثيراً أو قليلا ، عن مهمة التأمل الطويل في عينيها — أي عيني تلك الظاهرة — او يشغلها عن مهمة تكرار الامناء إلى غير انتهاء .. او يشغلها بزي واحد منظور او مفهوم ، لا تستغرقه تلك الأزياء !

ولسوء حظ (الظاهرة اياها) أن كاتب هذه السطور كان ممن يذكرون على ألسنة الناس ولا يزال ، فكان من اعترافات الشيخ الأخيرة أنه غص بذكره منذ ثلاثين سنة وكتب إليه وكتب عنه طوال تلك السنين، وهو لا يلتفت إليه ...

والملاحظة الثانية ان الظاهرة النفسية التي يستغرقها الولع بلفت الأنظار إليها موكلة بالظواهر والقشور تعيش فيها ومنها وعليها ، ولا تنفذ من ورائها إلى أمر ذي طائل ، فإنها كلما تجاوزت الظواهر إلى ما وراءها تهافتت بأنفاسها لاضطرابها وتناقضها وغلبة القشور عليها ، وهذه هي الخصلة التي عرفناها من خصال الشيخ فأهملنا الرد عليه ، وعلمنا أن كلام أمثاله « مردود عليه منه وفيه »

فلا حاجة بنا ولا بالقراء إلى إضاعة الوقت في التعليق عليه، إلا أن يكون في الكلام عنه فائدة للقراء على هذا المنوال .

والشيخ – عافاه الله – كفيل باعفاء كل ذي قول من مؤونة الرد عليه في كل صفحة يسطرها بيمينه، فهو موفق أسوأ التوفيق لاثبات ما يؤخذ عليه من الخطأ والعبث والجهالة، وكل ما نحسبه قدرة عندنا على إقامة الحجة يتقاصر دون قدرته المعكوسة على إقامة حجتنا، تبرعاً منه غير مشكور عليسه ! »

ثم أخذ العقاد يعيد على قرائه أخطاء الشيخ أمين الخولي في نقل الأحاديث النبوية من أسانيد خاطئة وختم مقاله قائلاً :

« والظاهرة النفسية هي التي تسول لصاحبها أن يعلن نفسه حامياً للتاريخ وحامياً للعلم وحامياً للناشئة وواعظاً للكتاب، ومعلماً لهم كيف يكتبون ويقصدون في المقال .

وبعض ما قال الشيخ، صاحب الظاهرة إياها، في مقاله الأخير أننا « نستطيع الضلال » .. وأننا نتلقى سياط الحق – حقه هو بسلامته – من يد التاريخ .. وأننا مصابون بالجرأة المريضة .. وأننا « غير ذوي ضمير » وأنه ينشر كلام المنقود بطينه .. وأننا . وأنه . على ما قال من هذا القبيل في الصحف « غير الباقية » وفي مقدمة كتابه، وله طول البقاء !

ان « الظاهرة النفسية » هي التي تحسب أن هــذا الاسلوب هو العفة وهو الأدب وهو التهذيب والنقاوة من الطراز الممتاز لأنها هي – بسلامتهـا – تكتبه .. وهي بسلامتها مسموح لها بما يسمح به « للمحروسين » في أعـين الفقه والفقهاء .

ذلك هو الأدب المخصوص !

وما هو الأدب « العادي » الذي تولى صاحبنا حماية التاريخ والناشئين منه؟

ما هو ما ليس كذلك ، لأنه هو الادب الذي يضعه في موضعه بين الظواهر النفسية ؟ بغير خروج من الموضوعية او الموضوع[1]!! »

* * *

عقب تلك المقالات لاذ الشيخ أمين الخولي بالصمت العميق حتى وفاة العقاد، فخرج على الناس في مجلة « الأدب » التي يصدرونها بالقاهرة بعد أن ملأ صفحاتها بما كتبه الرافعي في كتاب « على السفود » وكأنه بهذا العمل يؤدب العقاد عقب مماته على تلك المقالات التي سبق أن كتبها عنه وعن كتابه « الامام مالك » حينما سأله القراء عن ما جاء فيه .

---

(١) الاخبار ١٩٦٣/١/٢ يوميات العقاد بعنوان « المتهافت بأنفاسه » وتراجع يوميات العقاد ج ١ ط دار المعارف القاهرة ص ٤١٥ وما بعدها.

خاتمة

وبعد - أيها القارىء الكريم - فإنك لتلمس من هذه المعارك التي خاضها العقاد رحمه الله ونازل فيها جمعاً غفيراً من أصحاب الأهواء وحملة الأقلام المنكوبة في ضميرها ، تلمس أو ترى العقاد يخوضها في ثبات وكان حليفه العقل المتزن والثقافة الواعية العميقة ينهج في اجابته دائماً منهجاً منطقياً يقوم على الاقناع والسداد في الفكرة . ان اعداءه لينصفونه حق انصاف بينهم وبين أنفسهم لأنهم يعلمون القدرة الفكرية لهذا العبقري الذي استولى على زمام البيان ، ولكنهم يجحدون هذه المكانة أمام الناس ليحطوا من شأنه ولكن الحقيقة هي الحقيقة تظهر ولو تضاعفت عليها الاستار وتراها العيون ولو بعد حين وهذا حينها فانظر إليها بعين العدل والانصاف ولك أن تقول بحق بعد ذلك « ان العقاد لرجل عظيم ومفكر عظيم وكاتب قدير » .

* * *

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
مقدمة	٥
مصطفى صادق الرافعي	٨
احمد شوقي	١٧
جميل صدقي الزهاوي	٣٠
طه حسين	٧١
سلامه موسى	١٠٠
الدكتور محمد مندور	١٠٧
محمود امين العالم وعبد العظيم انيس	١٢٦
توفيق الحكيم او راهب الفكر	١٣٧
الملاكم الادبي او زكي مبارك	١٦٠
ابو شادي وابولو	١٦٦
الدكتور محمد كامل حسين	٢٠٠
امين الخولي وبنت الشاطيء	٢١٩

خالد ابو الهيجاء

خالد ابو الهيجاء



عامر العقاد

معارك العقاد الادبية

المكتبة العصرية

صيدا – بيروت

هذا الكتاب



اول ما يروعك في العقاد انه صارم قوي الجأش لا يأبه للعواقب ، واصدق ما يكون في القتال اذا نازل من مس كرامته أو جرح عزته ، اذ ذاك يكون أجرأ من السيل ، واهول من الليل ، ينسى نفسه وماله وكل شيء حتى يسترد كرامته ويثأر لعزته .

وفي هذا المعنى يقول عن نفسه :

« انا اطلب الكرامة عن طريق الادب والثقافة واعتبر الادب والثقافة رسالة مقدسة يحق لصاحبها ان يصان شرفه بين اعلى الطبقات الاجتماعية ، بل بين ارفع المقامات الانسانية بغير استثناء . »

احمد امين

ولكنني احب ان اقول هنا كلمة أؤمن بها للحقيقة والتاريخ ، فالعقاد لم يكن في فكرة من افكاره مأجوراً ... ولم تكن لحساب احد كما ادعى الكثيرون ، وأعترف انني واحد من الذين اخطأوا في حق العقاد واتهموه بانه كان مأجوراً في بعض كتبه ودراساته ... فالعقاد كثيراً ما يفرض على الذين يناقشونه ان يستخدموا ضده كل الاسلحة حماية لهم من اسلحته التي يستخدمها هو ، والتي كانت بلا حدود .

رجاء النقاش

الثمن : ٥٠٠ ق. ل.